obeikan.com

نصف میت

الكتاب : نصف ميت
المؤلف : حسن الجندي
تصميم الغلاف : إسلام علام
تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد
رقم الإيداع : 2016/5213
الترقيم الدولي : 978-977- 778-056-8
صدرت الطبعة الأولى : 2010
الطبعة الحديثة : 2016

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-02-35860372 011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

نصف ميت

رواية لـ

حسن الجندي

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى والدي رحمه الله، كنت أتمنى أن أراك ولو لمرة واحدة في حياتي.

إلى جدي رحمه الله، أتمنى أن أتحدث معك ولو لثانية واحدة.

obeikan.com

obeikan.com

(لطالما أنتظر اللحظة التي ستُقبض فيها روحي، لذلك أُهدي تلك الرواية إلى الموكل بقبض روحي.. إلى ملك الموت)

الإهداء المكتوب في الرواية الأصلية

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

شكر خاص لكل من سمح لنا باستخدام أحداث حياته الواقعية في هذه الرواية، وكل من وافق على استخدامنا لمعلومات حقيقية عن أشخاص راحلين يمتون له بصلة قرابة، ونهدي لهم هذه الرواية محققين وعدنا بعدم نشر الأسماء أو الأماكن أو التواريخ الحقيقية بقدر الإمكان، حفاظًا على حريتهم الشخصية واحترامًا لحرمة الموت.

قمت بإعادة كتابة تلك الأحداث بتوجيهات من الأشخاص الحقيقيين أو من أقربائهم الأحياء.

openkan.com

obeikan.com

الفصل الأول

(البداية)

5 أغسطس 2006، الساعة التاسعة

هذا السائق يعرف طرقًا غريبة بحق، فهو يقود الحافلة متجهًا إلى الإسكندرية ولكنه يسلك طرقًا عجيبة ويقف عند محلات مأكولات كثيرة، ويعلن للركاب أنهم يمكنهم النزول لعشر دقائق لشراء ما يحتاجونه، يعرف الركاب بالطبع أنه يتفق مع تلك المحلات مسبقًا كي يأتي بالركاب إليها، ولكن ما باليد حيلة.

فيجب عليهم أن يتحملوا بصبر حتى يصلوا إلى الإسكندرية بسلام، مرت ساعتان منذ تحركهم من موقف السيارات في القاهرة، وقد ساعد الظلام داخل الحافلة على انتشار النوم بين الركاب، حتى إن الجميع لم يعترضوا على وقوف السائق أكثر من مرة على جانب الطريق ليدخن سيجارة ثم يعود ليكمل مرة أخرى السير..

هدوء تام داخل السيارة إلا من بعض الأشخاص الذين يستيقظون بين الحين والآخر، ينظرون حولهم بنصف عين ثم يغيرون أوضاعهم ليكملوا النوم مرة أخرى، خذ عندك مثلاً هذا الشاب الذي يجلس بجانب إحدى النوافذ وهو يرتكن برأسه للوراء ويبتسم ناظرًا إلى السقف، يبدو أنه يسرح في عالم من الخيالات السعيدة.

وخاصة وهو يقرب إليه علبة صغيرة يقبض عليها بين يديه، ثم يفتحها لتظهر داخلها دبلة ذهبية صغيرة بجانب دبلة أخرى من الفضة، وعلى الدبلتين نُقشت حروف بارزة.. نظر الشاب حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يراقبه، ثم قرب الدبلة الذهبية من شفتيه وقبلها وهو يغمض عينيه متخيلاً حبيبته، أعادها مرة أخرى ليده ليطبق عليها وينظر لسقف السيارة ويعيش في تخيلاته مرة أخرى..

عندما كنت صغيرًا شاهدت أحد الأفلام القديمة، وفي بداية الفيلم تُظهر لقطة الكثير من الناس يسيرون في الشارع، ثم يقول الراوي إن لكل واحد من هؤلاء حكاية مختلفة، ويمكن للمشاهدين اختيار أحدهم كي يبدأ الراوي في سرد حكايته.. وأنا أيضًا أقول إن لكل شخص في تلك الحافلة حكاية وطموحات وأحلام وأفكار. جميعهم اجتمعوا في تلك الحافلة متجهين إلى مكان واحد.

من المفترض أن يكون هذا المكان هو الإسكندرية، لكن من صدف القدر أنه في بعض الأحيان هو الذي يختار المحطة التي نتجه إليها، هو الذي يحدد وجهتنا. بجوار الشاب الذي يمسك بالعلبة الصغيرة وينظر حالمًا لسقف السيارة، هناك هذا الشاب الذي يغمض عينيه، ولكنه يفكر بعمق وهو يقطب حاجبيه ويتذكر ذكريات لا يبدو أنها مبهجة؛ لأن يديه تقبضان بقوة على مسند مقعده، هل عيناه يخرج منها ما يشبه الدموع أم إنه خداع بصري؟ هناك دموع مترقرقة في عينيه ولكنه يحبسها بقوة..

ربما هذا السائق له قصة ما هو الآخر ولكننا لا نعلمها، إنه عم (محمد) الرجل الطيب الهادئ الذي لا يضع بالاً لشيء في حياته، يصلي

الفروض في أوقاتها ويتطوع لصوم أيام كثيرة من كل شهر، رزقه الله بابنته الوحيدة (سمية) نور عينيه، والتي يحبها أكثر من نفسه، يوفر لها كل ما تحتاجه كي تظهر بمظهر لائق أمام زميلاتها في الجامعة.

وهي ليست تلك الفتاة التي تظهر في الأفلام القديمة وتخجل من مهنة والدها.. بل تفتخر به أمام كل من تعرفهم، وتفتخر بكفاحه في سبيل تربيتها، وهي أيضًا لم تبخل على والدها وجعلته يفتخر بدخولها كلية الطب كما حلم هو لها.

زملاؤه أصبحوا ينادونه (أبو الدكتورة)، وهو يبتسم لهم وتكاد الدموع تنفجر من عينيه من الفرحة في كل مرة يسمع فيها ذلك اللقب، من الصعب وصف تلك العلاقة بينه وبين ابنته، والتي تكونت منذ أول لحظة ميلاد لها، عندما أقسم بداخله أن يلبي كل طلباتها حتى ولو مات في سبيل ذلك، ربما لذلك يقبل عم (محمد) ببعض التنازلات، ربما يقبل بأن يقوم باستخدام بعض حافلات الشركة بعد أوقات عملها الرسمية في تشغيلها على خطوط القاهرة بدون علم الإدارة.. يحدث هذا مرة كل أسبوع على الأكثر، ويساعده في ذلك بعض زملائه؛ لأنه يساعدهم هو الآخر في إخراج بعض الحافلات لخطوط أخرى..

مصاعب الحياة هي ما تجعله يفعل هذا، من داخله أصبح لا يعرف هل ما يفعله حرام أم حلال.. لكن الراتب لا يكفي منذ القدم، و(سمية) كبرت وتحتاج لملابس كثيرة ومصروف يومي يليق بسنها، وطعام.. وكل ملذات الحياة التي يجب توفيرها، ما يفعله خطر عليه، ولو حدث وكُشف أمره ستكون نهايته، ولكنه يخاطر بكل هذا في سبيل

الابتسامة التي يراها على شفتي (سمية) وهو يعطيها ما تريد ويربت على كتفها بحنان، كل هذا يهون في سبيل أن يراها تقفز من على الأرض ثم تقبله وهي فرحة بتلبية أحد مطالبها..

يتمنى من الله أن يسامحه على ما يفعله، ويقول لنفسه إنه لا يضر الشركة في شيء في تلك المرة التي يستخدم فيها الحافلة في غير أوقات عملها الرسمية، حتى في آخر مرة والتي استخدم فيها هذه الحافلة بالذات أمس داخل القاهرة، واكتشف وجود مشكلة في المكابح في آخر اليوم؛ قرر أن يصلحها بنفسه، ولكنه لم يستطع بسبب دخولها الخدمة اليوم.

ولكنه ينوي أن يصلحها بمجرد أن يعود للقاهرة مرة أخرى، ولا مشكلة تخيفه، فهو يمتلك الخبرة التي تجعله يقود هذه الحافلة بحالة مكابحها تلك، ولن يعلم أحد بذلك ولا خوف عليه.. صحيح أن الليل شديد السواد، ولكن لا مشكلة.

صحيح أنه لا يعرف لماذا يفكر الآن في ابنته (سمية) بتلك الطريقة الغريبة، وكأنه يخاف عليها، ويشعر بأنه يحتاج لرؤيتها حالاً، ولكن لا مشكلة، لا مشكلة، فالحياة تسير بهدوء، وما عليه سوى أن يعبر شريط القطار هذا ويسير قليلاً ليتوقف عند مقهى الفيومي الذي يأخذ منه إكرامية على كل مرة يقف فيها عنده، إنه يقترب من الشريط ولكن هل يرى جيدًا أم أنه يتخيل؟ الشريط مغلق، إذن هناك قطار سيمر الآن..

بالفعل هذا هو صوت عجلات القطار، لا مشكلة سيتوقف بالقرب من الشريط حتى يمر القطار، ثم يمر هو عندما يُزيل العامل تلك

السلسلة الرفيعة التي تمنع المارة، ها هو يقترب والقطار يقترب أيضًا، رفع قدمه قليلاً من على دواسة الوقود وهو يضغط على دواسة المكابح.. ماذا يحدث؟

حاول مرة أخرى، ولكن الحافلة تسير بنفس سرعتها السابقة، أو بسرعة أقل قليلاً من جراء التقليل من ضغط دواسة الوقود، شعر بالارتباك بالفعل عندما تخيل ما سيحدث، بقيت أمتار على شريط القطار والمكابح لا تعمل، ماذا حدث لها، لقد كانت تستجيب ولكن ببطء، أما الآن فهي لا تستجيب أصلاً!!!

القطار يقترب، وصوته يعلو، والحافلة تقترب أكثر، رفع قدمه من على دواسة الوقود، ولكن الحافلة تقترب أكثر، ماذا يفعل؟ ماذا يفعل؟

لو حاول الانحراف الآن من المحتمل أن تنقلب الحافلة وهي بهذه السرعة.. هناك احتمال أن تستطيع الحافلة عبور الشريط قبل أن يصطدم القطار بها.. أغمض عينيه وهو يتذكر كمية الاحتمالات التي كان يمكنه أن يفعلها ولكنه نسيها الآن، لم يرَ شيئًا سوى صورة ابنته وهي تحتضنه وتقبله.

الحافلة تقطع السلسلة وتعبر الشريط، ولكن القطار يصطدم بها فتنقلب، ثم يدفعها القطار للأمام، ركاب الحافلة لم يطلقوا أي صرخات، فقد كانوا يغطون في النوم، فتم كل شيء بسرعة وقبل أن يشعر أحدهم بأي شيء، إنه القدر بالفعل.

***

نفس الليلة..

ليلة حارة.. وربما لم يفكر رجال الشرطة كثيرًا هل شدة الحرارة كانت من حرارة الجو أم من تلك السخونة المتصاعدة من الدخان الذي يخرج من منطقة الحادث، رجال الإطفاء يغادرون المكان بحذر بعد أن انتهوا من عملهم وخمدت النيران العنيفة التي اشتعلت جراء انفجار تم بالحافلة بعد اصطدام القطار بها، الانفجار لم يعلم أحد سببه، ولكنه سبَّب الكثير من الفوضى، وخاصة بعد أن انقلب جزء من القطار بعد خروجه عن القضبان، واشتعلت النار بعد انفجار الحافلة..

في القطار مات عشرة أشخاص، وفي الحافلة اثنان وثلاثون شخصًا، والباقون على قيد الحياة، بالرغم من تجمع الأهالي حول مكان الحادث؛ إلا أنهم لم يقتربوا من منطقة الاصطدام التي توقف عندها القطار بعد خروجه عن القضبان، وإن كان السبب الحقيقي وراء عدم اقترابهم ليس احترام النظام، وإنما ذلك المشهد الذي يثير الغثيان؛ فالحافلة مفتوحة من الوسط، وأجساد متفحمة تخرج منها وكأنها كانت تحاول الهرب، وأجساد أخرى ملتصقة ببعضها، وأعضاء بشرية ملقاة على الأرض، حتى إن رجال الإسعاف كانوا يتحركون ببطء شديد؛ لصعوبة التفرقة بين الأحياء والأموات..

مشهد مقزز ويصعب وصفه ويبعث على القشعريرة أكثر منه يبعث على الحزن، بصفة عامة كان جو من الإحباط يسيطر على الجميع ويجعلهم يتصرفون بحزن شديد.. قرب الحادث بأمتار، وسط

الواقفين، ووسط أصوات الاستنكار من الناس وكلمات الحسرة والدعاء للمتوفين، قال أحدهم لصاحبه وهو يشير أمامه إلى جثة يبدو أن صاحبها قد خرج من الحافلة بعد الحادث: لحظة.. ما هذا؟ عندما نظر صديقه للجثة لم يفهم لماذا يشير لها، ولكن لاحظ أن رأس الجثة مشوه ومكسور العظم، وقد ضاعت ملامحه وملامح جسده الباقية بسبب الحروق الشديدة، اليد اليسرى للجثة متآكلة، كما أن الجسد نفسه متهتك و.... اتسعت عينا الرجل وهو ينظر ثم يداري عينيه بيديه من الغثيان، آخر تفاصيل طالعتها عيناه أن الجثة تقبض بيدها اليمنى المفرودة على شيء ما، ولكن المفزع أن الجثة كانت بدون نصفها الأسفل!!

أي إن صاحب الجثة خرج من السيارة وهو لا يرى ولا يسمع، وبدون نصفه الأسفل، ويده اليسرى مشوهة، وظل يزحف بيده الوحيدة التي تقبض على شيء ما حتى مات في موضعه هذا، لقد تعذب كثيرًا قبل موته..

***

فتحت (دينا) الزوجة المخلصة عينيها ببطء وهي تنظر حولها، حتى وقعت عينيها على وجه زوجها النائم، ابتسمت وهي تعيد خصلات شعرها المتناثرة للوراء لتتمكن من تأمل ملامح زوجها قليلاً.. يا له من وسيم، وسامة تحتلها لمحة من الحزن، ما زالت تلك المشكلة تسيطر عليه في الأيام الأخيرة، وخاصة بعد ليلة

أمس التي تحدث فيها مع شقيقها، فجأة تذكرت وهي تنظر بجانبها للمنبه الموضوع بجانب الدمية التي أهداها لها زوجها، الساعة تقترب من التاسعة، يجب أن يستيقظ زوجها ليجدها في أحسن حال، نهضت بخفة واتجهت للحمام لتغسل وجهها وأسنانها وتمشط شعرها، وتخرج لتبدل ملابسها، ثم تجري باتجاه المطبخ لتعد الإفطار الذي يحبه ككل يوم، مرت دقائق وهي تعد الإفطار حتى سمعت صوت المنبه ينطلق من داخل غرفة النوم.. مرة والثانية ولم تسمع صوت حبيبها ينادي عليها كما تعود عندما يستيقظ من نومه. تركت ما في يدها وهي تتجه ناحية غرفة النوم وتغني بصوتها العذب لزوجها، دخلت الغرفة وهو ما زال نائمًا على فراشه، جلست بجانبه وهي تكمل الغناء وتتناول يده بين يديها لتوقظه بلطف، يده متصلبة وباردة. قلبته على ظهره فانقلب بسهولة ولكن بجسد متصلب، توقفت عن الغناء وهي تشهق ثم تنادي باسمه بلا وعي، شهقت مرة أخرى ونظرت للسقف وهي تصرخ باسمه.

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

الفصل الثاني

نفس الليلة، الساعة الحادية عشرة والنصف.

لم تستطع (داليا) أن تفهم ما يحدث، صداع غريب اجتاح رأسها فجأة ومنعها من النوم، فتحت عينيها للمرة العاشرة في آخر ساعة، وهي تنظر للظلام في الغرفة بضيق.

لماذا تفكر في (حاتم) بهذه الطريقة، لماذا تتخيل صورته بتلك الطريقة الغريبة؟ ما هذا الاشتياق الرهيب له؟ ما الذي يجعلها تتمنى أن تأخذه بين أحضانها بقوة وكأنها تريد أن تخبئه بين ضلوعها.. ما السبب الذي يجعلها تشعر بأنفاسه تصطدم بروحها؟ ورائحته تملأ أنفها، وملمس يده القوية بين يديها..

زاد الصداع هذه المرة عن الحد الطبيعي؛ فنهضت من الفراش بعصبية ثم تحسست طريقها لباب الغرفة وفتحته بحذر كي لا توقظ شقيقتها من النوم، خرجت للصالة التي تغرق في إضاءة خافتة تأتي من الشرفة المفتوحة، اتجهت ناحيتها كي تجلس فيها قليلاً حتى ينتهي هذا الصداع المزعج، جلست على المقعد وهي تتأمل الشارع الطويل المليء بالمصطافين الذين يزورون الإسكندرية كل عام.

حاولت أن تندمج بنظرها مع حركة الشارع، ولكنها فشلت وظل رأسها مصرًا على شيئين، الصداع الرهيب والتفكير في (حاتم)، قررت أن تحاول أن تشغل رأسها بـ (حاتم) قليلاً حتى تنسى الصداع، ولكنها

تذكرت أنها تفكر فيه منذ ساعتين بطريقة غير طبيعية، وكأنها تعرفه لأول مرة، ومعجبة به كما فعلت منذ سنين، ابتسمت قليلاً وشعرت بالبهجة وهي تتذكر إصرارها على دخول كلية دار العلوم، ورفض والدتها ابتعادها عنها، وأيامًا طويلة من الشد والجذب بين أفراد عائلتها حول إمكانية سفرها من الإسكندرية للقاهرة حتى يمكنها الالتحاق بالكلية.

وهل من الممكن أن تسكن في المدينة الجامعية أم تقيم في بيت أحد أقربائها، أم ينسى الجميع تلك الفكرة وتلتحق هي بكلية أخرى في جامعة الإسكندرية؟ يا لها من أيام جميلة مليئة بالذكريات، وخاصة عندما أوصلها والدها إلى الكلية، وظل مقيمًا معها عند أقربائهم لأسبوع، قبل أن يعود للإسكندرية بعد أن اطمأن عليها وعلى استقرارها في المدينة الجامعية، ثم تلك المحاضرات التي كانت تُطربها بسبب عشقها لعلوم اللغة العربية منذ صغرها، ربما صُدمت من طريقة التدريس في البداية، وهذا الكم الكبير من المعلومات الذي فوجئت به في الكتب، ولكنها حافظت على عشقها لتلك الكلية العريقة التي ظلت تحلم بها بعد أن كان يحكي أستاذها - الذي تخرج من نفس الكلية - عن سنوات عمره التي قضاها بها والعلوم التي درسها، مر شهر والثاني وأصبحت مميزة وسط الدفعة بذكائها وتفوقها في المواد الدراسية، وإطلاعها الضخم الذي تكوّن من زياراتها المستمرة لمكتبة الجامعة.

ولكنها كانت تسأل نفسها دائمًا عن هذا الشاب الذي كلما دخلت المكتبة تجده يمسك بمجموعة كتب ضخمة وكشكول ويدوِّن شيئًا

ما!! مرة تجده يمسك قلمًا، ومرة يكتب شيئًا، ومرة يقرأ بتمعن.. لا يمكنها أن تُحدّثه حتى لو أرادت هي؛ فهي لم تَتَرَبَّ على مثل تلك الطريقة، وحتى لو أعجبت بأحدهم فلن تتمكن من التحدث إليه، وفي صغرها لم تتكلم مع ولد غريب ولا مرة واحدة.

أما هذا الشاب فقد جذبها منذ البداية، واستطاعت أن تحدد بالتقريب وقت دخوله المكتبة، الغريب أنه كان نفس وقت تواجدها؛ أي بين المحاضرات وبعد انتهائها، لم تمر عشرة أيام إلا وقد عرفت أنه في نفس دفعتها بكلية دار العلوم، أصابها ذلك بنوع من الفرحة الممزوجة بالغباء، خبر سعيد أن تعرف أنه معها في دفعتها، ولكن ماذا ستفعل على أي حال؟

أليس من الممكن مثلاً أن ينظر لها ويعجب بها؟ لماذا لا تجده فجأة يقترب منها ويقول لها إنه يحبها؟ سيغشى عليها خجلاً عند تلك اللحظة، ولكن لماذا لا يفعلها؟ بالطبع لن يفعلها؛ لأنه لا ينتبه لنظراتها، نظراتها التي ترمقه كل عشر دقائق بقوة وهو يجلس بين أرفف الكتب، كانت تجلس في الغالب على المنضدة التي تجاوره، فالمكتبة مقسمة على هيئة مناضد طولية مجاورة لبعضها، وأمام المناضد وخلفها أرفف الكتب الضخمة، المغطاة بالواجهات الزجاجية التي تحفظ الكتب القديمة.

كانت تجلس على المنضدة المجاورة وهي تقرأ في كتاب تختاره، ولكنها كل عشر دقائق تنظر له بطرف عينها قليلاً، وإذا تأكدت من عدم انتباه أحدهم لها فإنها تنظر له بتمعن، لتجده إما يقرأ فيما

أمامه أو ينظر شاردًا لأرفف الكتب أمامه.. يا ترى في ماذا يشرد؟ هل هو مرتبط بفتاة أخرى؟

لا توجد في يده دبلة، ولكن هذا لا يعني أنه لا يعرف أي فتاة، يومًا بعد الآخر أصبحت قامته الطويلة ووجهه الأبيض وشعره القصير وعيناه الخضراوان، وكل تلك التفاصيل محفورة داخلها.. لماذا لا ينتبه لها هذا الغبي؟ ولماذا أصبح ينظر لأرفف الكتب كل هذه المدة؟

مر شهر كامل منذ أول مرة رأته فيها ولم تحدثه، لم تستطع الصبر أكثر من هذا، من قال إن الحب يُعطل عن الدراسة؟ لقد أصبحت أسرع بمراحل في مراجعة المواد وحفظها، وأصبحت أكثر تميزًا بين صديقاتها، ولكن صديقاتها لاحظن شيئًا ما عليها، حتى إن (عفاف) أخبرتها أن هناك تغيرات كثيرة تدل على ظهور حب في حياتها، بالطبع أخذت تقفز كالقرود وتنكر وكأن أحدهم اتهمها بتهريب المخدرات، ثم هدأت واعترفت..

وكما يحدث بين أي مجموعة فتيات جامعيات؛ فقد انتشر الخبر بين صديقاتها الأربعة، وقررن مساعدتها في إيقاع هذا الشاب في براثن الحب، هناك من أخذت تجمع التفاصيل عنه، وعادت بالخبر اليقين عن أنه يدعى (حاتم)، وبلدته في المنصورة، جاء منها مع صديقه ليسكن في المدينة الجامعية للدراسة، شاب مستقيم محبوب من الجميع،، بعض الغموض يلف شخصيته لكن حب الجميع له يُنسيهم هذا الغموض، وفوق كل هذا فهو متفوق جدًّا جدًّا، ويكاد تميزه وسط أصدقائه في المواد الدراسية يفوق تميزها هي نفسها..

عند تلك النقطة ابتسمت (داليا) وهي تستمع لصديقتها، وأحست بالفرح عندما عرفت أن حبيبها يفوقها قوة في مجال ما، فهذا هو ما تريده؛ فهي لن تقبل أن تشعر بضعف حبيبها أمامها، المهم أنها استمعت لباقي المعلومات التي جمعتها صديقتها بطريقة ما لم ولن تعرفها، وفي النهاية فوجئت بأن صديقتها قد أحضرت رقم هاتفه المحمول!!

يبدو أن صديقتها هذه كانت تعمل في الموساد لتقوم بكل تلك التحريات في يوم واحد! نأتي لصديقة أخرى ظلت تراقبه منذ خروجه من المكتبة إلى مقابلته لأصدقائه حتى دخوله لمنطقة سكن الطلاب في المدينة الجامعية، وصديقة أخرى أخذت تتعرف بأقرب الناس إليه حتى تصبح خط دفاع ثانٍ عندما تفشل إحدى المحاولات التي سيقمن بها، أما (عفاف) فقد أخذت (داليا) من يدها وجعلتها تقف أمام المرآة في صباح اليوم التالي، لتتأمل وجهها..

قالت بسخرية: "ما أنا مش وحشة أهو قوي يا عفاف، دا أنا حتى فيَّ شبه من استيفان روستي!"، فردت عليها (عفاف) غاضبة وهي تُخرج شيئًا ما من الكومود الصغير الذي يقبع بجانب المرآة: "استيفان روستي.. يا غبية انتي أجمل بنت في الجامعة، بس مش مهتمة بنفسك من الأول، مخبية البياض ده والعيون العسلي والشفايف الصغنونة دي لمين؟ أنا هاخليكي تهتمي بنفسك غصب عنك.. النهارده هاقوم بأكبر عملية تجميل في التاريخ، هاحوِّل الفيسخ لشربات".. نظرت لها (داليا) لتجدها أخرجت من الكومود علبة مساحيق تجميل ومجموعة طرح جديدة وشيئًا ما ملفوفًا في كيس بلاستيكي، مرت ساعة كاملة، ونظرت

(داليا) مرة أخرى في المرآة.. عندها قالت بصدق: "مين دي؟!" بالفعل أصبحت فتاة أخرى، بعد أحمر الشفاه وتحديد العينين وبعض الكريمات والأشياء الأخرى، أما الملابس التي اشترتها (عفاف) أمس بدون أن تعلم، فقد كانت على مقاسها بالضبط، ملابس جميلة لا تُظهر تفاصيل جسدها، ولكن اختيار ألوانها كان رائعًا، مع الطرح الثلاثة التي ارتدتها على شعرها، ومساحيق التجميل التي وُضعت بكمية قليلة جدًّا، ولكن باحترافية شديدة، كل هذا جعلها تنظر مندهشة لمظهرها الذي تغير من حال إلى حال، لدرجة يستحيل أن يصدقها أحد.

احتضنتها (عفاف) وكأنها تحتضن ابنتها ليلة عرسها، وقالت (داليا) فرحة: "اشتريتي اللبس والميك أب والطرح الجديدة وكل ده من غير ما أعرف؟ انتي أكتر من أختي..."

استغرقت الاثنتان في العناق حتى دخلت عليهما الحجرة صديقتها التي تراقب (حاتم) وقالت: "يظهر إني جيت في وقت مش مناسب.. مين الآنسة دي يا (عفاف)؟" فأخذت (داليا) تقنعها بأنها هي، وصديقتها تنظر لها برعب، حتى تذكرت شيئًا ما، فقالت بسرعة: "مفيش وقت نضيَّعه.. الساعة دلوقت عشرة الصبح.. و(حاتم) مَرْمِي في المكتبة من ساعة، وهايمشي كمان نص ساعة علشان يروح للمحاضرة، لازم تتحركوا دلوقت"، بالفعل تحركت (عفاف) و(داليا)، وكانت الخطة بسيطة جدًّا، تجلس (داليا) بجانب (عفاف) في المكتبة، وبعد برهة من الوقت تنهض (عفاف) لتسأل (حاتم) إن كان من نفس دفعتهم أم لا، وعندها تقوم بسؤاله عن شيء ما في المواد، وتطلب منه أن يقوم

بشرحه لها ولصديقتها، وعندما ينتقل ليجلس بجانب (داليا) تعتذر هي لوجود مكالمة ستجريها وتترك الاثنين بمفردهما.

والباقي سيكون سهلاً، المهم أن يتعرف بـ (داليا).. كانت الأخيرة ما زالت تُراجع الخطة، حتى دخلت المكتبة وبجانبها (عفاف) وجلستا في نفس المكان الذي تعودت أن تجلس فيه، هنا فوجئت بـ (حاتم) يدير رأسه وينظر لها بدهشة.. فاحمر وجهها، وارتبكت (عفاف) مع هذا التغير المفاجئ الذي أربك الخطة.

نهض (حاتم) واقترب حتى جلس أمامهما، وهو ينظر إلى (داليا) ويقول: "آنسة (داليا).. أعتقد إنك في دفعتنا.. مش كده برضه؟ تحبّي أشرحلك أي حاجة في المنهج؟".. فتحت (عفاف) فاها من الدهشة، ولكنها قالت بطريقة متلعثمة: "أنا رايحة للحمام.. أقصد للتليفون.. أ.. رايحة الحمام علشان أعمل تليفون".. قالت العبارة السابقة ونهضت تجري، وعين (داليا) تنظر لها متوسلة وكأنها تريد أن تجري مثلها، في حين قال (حاتم) بابتسامة: "قبل ما أشرح أي حاجة، ممكن أطب منك إنك تقومي دلوقت وتقعدي على نفس الكرسي اللي كنت أنا قاعد عليه؟". ابتلعت ريقها ولم تفهم، ولكنها نظرت حولها فلم تجد أي طلاب قريبين، والمشرفة على هذا القسم في المكتبة مشغولة بأوراق تطالعها، فنظرت له؛ فطمأنها بابتسامة وهو يشير لها للمقعد.

قامت بالفعل واتجهت بخطوات متعثرة حتى جلست على المقعد، ورفعت رأسها أمامها فوجدت انعكاس (حاتم) في المرآة ينظر لها مبتسمًا..

يا للهول!! لم يكن (حاتم) يستغرق في الشرود عندما كان ينظر أمامه، لقد كان ينظر لتلك الواجهة الزجاجية التي تعكس صورتها، لقد كان يراها وهي تنظر له، شعرت بدماء الخجل تصعد لرأسها حتى كادت تُفجره، لقد كان يرى نظراتها له طوال هذا الشهر.. لقد كان يرى عينيها المثبتة عليه.. لقد كان يفهم، فوجئت به يجلس بجانبها وهو يبتسم لها ويقول بخجل:

"كنت بابُص عليكي طول الأيام اللي فاتت، وبعديها دوَّرت وراكي لغاية ما عرفت عنك كل حاجة، وكنت عايز أقولك إني معجب بيكي بعد كام يوم، لكن ما قدرتش أشوفك النهارده بالشكل ده في المراية وما أجيش أكلمك".

مرت عشر دقائق وهو يتحدث وهي صامتة ويدها ترتعش، ولكنها تكلمت في النهاية تطلب منه الاستئذان، سارت بسرعة حتى خرجت من المكتبة وهي ترتعش، واصطدمت بـ (عفاف) التي كانت تنتظر خارج المكتبة؛ فأخذت تصيح مهللة كالمجانين، حتى أخرستها (عفاف) وهي تجرها لسكن الطالبات كي تشرح لها ما حدث.

مازالت (داليا) تجلس سارحة، حتى إن الصداع اختفى وهي مازالت تتذكر كل تلك الذكريات السعيدة، حتى فوجئت بصوت ما يأتي من الصالة، قطبت حاجبيها في دهشة ونهضت وهي تفتح باب الشرفة لتخرج للصالة وتنظر بعينيها محاولة اختراق الظلام.

الصالة طبيعية، ولكن الصوت ما زال مستمرًا. ما هذا الصوت؟ إنه صوت خفيض يشبه الأنين!! هل أذنها تخدعها؟ وقفت في وسط

ظلام الصالة تنظر حولها وضوء خفيض من الداخل يأتيها من الشرفة.. لا شيء، لكن لحظة..

هل صوت الأنين يأتي من الصالة أم من غرفة نومها؟ ربما كان صوت أنين شقيقتها الصغيرة.

فتحت باب غرفة النوم وأضاءت الأنوار، وهنا تأكدت أن صوت الأنين يأتي من غرفة النوم بالفعل، فهنا الصوت أوضح.. نظرت لشقيقتها فوجدتها نائمة كما هي ويبدو أن الصوت لا يخرج منها..

فجأة نظرت على المنضدة الصغيرة الموضوعة بجانب فراشها.. نظرت واتسعت عيناها في رعب.. شهقت ثم صرخت في فزع...

***

obeikan.com

الفصل الثالث

6 أغسطس 2006، الساعة الثانية ظهرًا..

إنها الثانية ظهرًا حيث العمل في ذروته في المستشفى، والصحفيون ورجال الأمن ينتشرون بين أروقة المستشفى، الجثث التي استُخرجت من الحادثة اثنان وأربعون جثة، وبدأت المشرحة في تسليم الجثث للأهالي منذ ساعة مضت، انتهى الأطباء من تشريح مجموعة ضخمة من الجثث منذ نقلها أمس ليلاً، ولكن قابلت الأطباء مشكلة كبيرة، وجود ثلاث عشرة جثة مشوهة من بين اثنين وأربعين، هي كل الجثث التي خرجت من الحادث، والذي لم يتضح حتى الآن سبب وقوعه. ولكن داخل مكتب مدير المستشفى الدكتور (فتحي غانم) كان هناك حوار من نوع خاص:

- "يعني انت شايف إن يتم الإعلان عن عشر حالات وفاة بس؟"

كان قائل العبارة هو الدكتور (فتحي) نفسه، ولكن الرد جاء من وكيل الوزارة الذي كان يجلس أمامه على المقعد وهو يحتسي القهوة:

- "لا يا دكتور (فتحي)، أعتقد إن خمستاشر جثة هاتكون رقم كويس بالنسبة لوسائل الإعلام وممكن يعدُّوها، لغاية دلوقت كل وسائل الإعلام بتقول جملة واحدة (لم يتم تحديد حالات الوفاة بالكامل)، لكن دلوقت أنا هابلغ الوزراة تُخرج بيان بعدد المتوفين في الحادث إنه خمستاشر حالة بس، لكن عليك انت بقى تسلم الجثث

للأهالي بسرعة علشان ما تحصلشي شوشرة، والصحفيين يقدروا يحصروا عدد الأهالي، ويعرفوا الفرق الرهيب بين العدد اللي أعلنا عنه والعدد الحقيقي".

- "الأهالي استلموا بالفعل كام جثة من ساعة.. حوالي 8 جثث، وأنا هانبّه على الأطباء والعاملين إنهم يهتموا بسرعة تسليم الجثث للأهالي وتخليص التصاريح اللازمة، ما تخافش.. الموضوع مش هاياخد كتير حتى بالنسبة للجثث اللي ما اتشرَّحتش".

ابتسم وكيل الوزارة وهو يُخرج هاتفه المحمول ويطلب رقمًا ما ويُكمل كلامه مع دكتور (فتحي) قائلاً:

- "أنا هابلغ الوزارة دلوقت.. كل اللي عليك تعمله إنك تخلي الموضوع ده يخلص الليلة وكأن مفيش حاجة حصلت، ولا كأن الحادثة حصلت أساسًا، مش عايزين الموضوع ياخد اهتمام كبير الأيام الجاية في القنوات الفضائية والجرايد".

نهض (فتحي) من وراء مكتبه وهو يقول بجدية:

- "مفيش مشكلة، أنا هاسيبك دلوقت تعمل اتصالاتك وأروح أنا أتابع الموقف علشان الجثث والجرحى كمان".

- "آه.. زي ما انت قلت.. موضوع الجرحى مهم قوي.. علشان احنا هانسمح بالقنوات الفضائية كمان ساعتين إنها تصور الجرحى وهما بيتكلموا على المعاملة الكويسة اللي تلقوها.. وطبعًا ده هايكون والوزير بيتصور معاهم وهو بيطمِّن عليهم".

ابتسم دكتور (فتحي) له محييًا وهو يغادر غرفة المكتب..

***

كانت (داليا) تجلس على الفراش منذ الصباح تنظر ساهمة أمامها، لم تذق النوم منذ ما حدث الليلة السابقة، كان ما رأته مرعبًا أكثر منه غريبًا..

بعد ما حدث جلست على فراشها وهي تقرأ القرآن وشقيقتها التي استيقظت من الصراخ تحتضنها وتربت على رأسها، ووالدتها ووالدها وشقيقها الصغير يقفون أمامها يستفسرون عما حدث.

فلقد سمع الجميع صوت صراخها ليلاً، وأتى الجميع ليجدوها تقف داخل غرفة النوم تنظر للمنضدة الصغيرة الموضوعة بجانب الفراش وهي تلصق ظهرها بالدولاب وتفتح فمها وجسدها يرتعش، اقتربت منها شقيقتها الصغرى وهي تربت على كتفها وتحاول تحريكها لتجلس على الفراش، وهي ما زالت تنظر برعب للمنضدة الصغيرة حتى بعد أن جلست، الجميع يستعيذون بالله، وشقيقتها تهدئها وهي مازالت تفتح فمها وترتعش، عندما مرت دقيقة بدأت تتكلم بصوت متحشرج وهي تقرأ آيات متقطعة من القرآن الكريم، وتُغلق عينها والدموع تخرج منها، ظل الحال هكذا مدة حتى هدأت وأغمضت عينها وتراخى جسدها وتأكد الجميع أنها نامت، فخرجوا من الغرفة مندهشين مما حدث، وقد قرر الوالد ألا يضغط على أعصابها أكثر من ذلك ويسألها عما رأت في الصباح، وخاصة بعد أن نامت.

تركها الجميع مع شقيقتها بعد أن أوصوها بها.. مرت دقائق وشقيقتها تربت على شعرها حتى تأكدت من نومها فانتقلت هي إلى فراشها.

ولكنها بمجرد انتقالها إلى الفراش فتحت (داليا) عينيها مرة أخرى وهي تتذكر ما حدث منذ قليل، مر الليل وهي تنظر في الفراغ المظلم لغرفة النوم، حتى جاء الصباح وذهب والدها ووالدتها لعملهما، وشقيقتها هي من قامت بتحضير طعام الإفطار لها ولشقيقهما الصغير متجنبة أي حديث عما حدث أمس.

تناولت (داليا) إفطارها وهي شاردة الذهن، وأخذ شقيقها ذو السنوات السبع يلعب، وذهبت شقيقتها للسوق، وظلت هي جالسة كما هي تنظر للفراغ وتتذكر ما حدث، لحظة سماعها الأنين، لحظة دخولها الغرفة، لحظة توجيه نظراتها ناحية المنضدة التي بجانب الفراش.. على الضوء القليل الذي يأتي من النافذة رأت دميتها التي أهداها لها (حاتم) والتي اتخذت شكل عروس صغيرة ترتدي فستان زفاف، العروس ينزل سائل من عينيها يشبه الدماء!!

ينزل ليغطي فستانها الأبيض، ثم يكمل نزوله بغزارة حتى تنزل القطرات للأرض، فتحت عينيها بفزع وهي تشهق، والقطرات تتجمع على الأرض لتكوّن رسمة مهزوزة المعالم لقلب يخترقه سهمان متقاطعان.. يا للهول!! إنها تلك الرسمة، إنها هي..

لم تصدق نفسها.. فتحت فمها تحاول الصراخ بصعوبة، ولكنها لم تستطع، حاولت الصراخ مرة أخرى، ونجحت هذه المرة، انطلقت

صرختها بفزع لتوقظ الجميع وتُفزع شقيقتها من فراشها، أسرعت تنهض لتفتح الأضواء، فوجدت العروس موضوعة في مكانها ولا وجود للدماء!!

يجب أن تهدأ.. يجب أن تهدأ.. لقد كانت تتخيل.. نعم.. بالتأكيد لقد كانت تتخيل.. اقتربت شقيقتها منها تحيطها بذراعها وهي تُهدئها، وباب الغرفة يُفتح ويدخل منه والداها، والجميع يستفسر بتعجب عما يحدث، وهي ما زالت تنظر للعروس التي ظلت تقف مبتسمة في مكانها وكأنها تتحداها.

سمعت صوت شقيقها يقول بصوت طفولي فرح:

- "(دعاء) جت.. (دعاء) جت".

انتبهت (داليا) لوصول (دعاء) شقيقتها؛ فنهضت من الفراش وهي تفتح باب الغرفة لتساعدها في إعداد الطعام، فقد شعرت بالذنب لتركها وحيدة هكذا بلا كلام، ولكنها عندما نهضت توقفت لحظة وهي ما زالت تتذكر ذلك الشكل الذي رسمته الدماء.

قلب وسهمان متقاطعان على شكل حرف (X) اللاتيني، وقفت قليلاً ثم نزلت تجلس على ركبتيها وهي ترفع ملاءة الفراش عاليًا لتخرج ذلك الصندوق القديم من تحت الفراش، وتقلب في الكتب والأوراق التي تراكمت به من أيام دراستها في الكلية، أخرجت كشكولاً وفتحت أول صفحة وهي تنظر لذلك الشكل المرسوم على جوانب الصفحات..

هذا الشكل الذي كان (حاتم) يرسمه لها دائمًا منذ تعرفت عليه، لقد كانا يملآن كتبهما وأوراقهما بهذا الشكل.. إنه قلب ويقطعه سهمان وأول حرف من اسميهما على مقدمة كل سهم!!!

وهي تتذكر شيئًا مشابهًا قرأته، لا يمكن أن يكون صحيحًا، بالتأكيد هذا خيالها الذي صور لها هذا...

***

وضعت سماعة الهاتف الموضوع بجوار الفراش، واستندت برأسها على الوسادة وهي تُغمض عينيها، كلمات شقيقها على الهاتف تؤكد لها أن.. توقف عقلها عن التفكير في محتوى المكالمة السابقة وهي تسمع صوت قطرات تصطدم بالأرض كأنها قطرات الماء، فتحت عينيها وهي تنظر عن يمينها لترى الموضع الذي يأتي منه الصوت، عن يمينها الكومود الموضوعة عليه دميتها التي ترتدي فستان الفرح، قطَّب حاجبيها في دهشة تحولت لرعب بعد لحظات، الدماء تُغرق فستان الدمية وتنزل على طرف الكومود ثم تتسرب لخارجه لتنزل على الأرض، وتتجمع في كلمة.. (بحبك)، الكلمة التي تعوّد (حازم) أن يكتبها لها على ورقة ويعلقها على باب الغرفة عندما يتخاصمان، ذلك الموقف يذكرها بموقف آخر، لكن لا يمكن!!

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

الفصل الرابع

6 أغسطس 2006، الساعة العاشرة

- "بلاش غباء، قلتلك هاتخرج دلوقت بالعربية ومعاك تلات جثث ما تكتَّرش في الكلام وتقعد تقدم أعذار"..

قال الطبيب العبارة بلهجة آمرة وهو يكلم (سيد محروس) أحد السائقين بالمستشفى، والذي ما انفك أن تذمر وهو يقول بِغِل:

- "يا دكتور أنا ما أعرفش المدافن دي، وكمان ما دَفَنْتِش حد قبل كده في مقبرة.. أنا مال أمي ومال الحاجات دي؟"

رد عليه الطبيب وهو يراجع ورقتين معه جيدًا ويقول:

- "(محمد الناجي) هايكون معاك، وهو عارف عنوان مقابر الصدقة كويس، وهو اللي هايتصرف مع التربي، كل اللي عليك إنك توصله وتساعده في دفن الجثث"..

- "دفن الجثث!!"

- "على فكرة لازم تخلّي بالك وانت بتدفن.. علشان فيه جثة متقطعة.. فخلّي بالك وانت بتنقل الكفن، وجثة من غير دراع، وجثة تانية نصها اللي فوق مفصول عن النص اللي تحت وإيدها الشمال

متفرتكة.. خلي بالك يا (سيد) وانت بتنقل الجثث علشان مفيش حاجة تقع"..

اقشعر بدن (سيد) وهو يتخيل ما يقوله الطبيب بقرف، في حين أعطاه الطبيب الورقتين ليضع إمضاءه عليهما.

انتظر الطبيب حتى شاهد (سيد) يخرج من باب الغرفة، ثم رفع سماعة الهاتف ليطلب رقمًا، وانتظر حتى سمع محدثه على الجانب الآخر فقال:

- "أنا سلمت آخر تلات جثث لـ (سيد)، ووزعت الجثث على مقابر الصدقة زي ما قلت يا دكتور (فتحي)، آه عملت كده.. موضوع التصاريح ده أنا اتصرفت فيه.. وفيه كام تربي احنا هانظبط معاهم ماتخافش، أول سواق هايروح البحيرة في المدافن هناك بتاعة عم بدر التربي، والسواق التاني طلع المنوفية من ساعتين عند (بدوي)، والتالت هايمشي دلوقت.. آه طبعًا.. الدكاترة كلهم مضوا على تشريحهم للجثث الأخيرة ومحدش هايقدر يتكلم.. وكمان مفيش وقت قدامنا لتشريحهم كلهم.. ثم ما هو كفاية إن الدكتور (عادل) بص بصَّة على كل جثة علشان يتأكد إن التشوهات تمنع حقيقي من التعرف عليهم، تحت أمرك يا دكتور.. تأمرني بحاجة تاني؟"

((الهاتف المطلوب ربما يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة نرجو المحاولة في وقت لاحق))

قذفت (داليا) هاتفها على الفراش وهي تنفخ بعصبية وتسير جيئة وذهابًا في غرفتها، هاتف (حاتم) مغلق منذ الصباح! وتلك ليست عادته، صحيح أنهما اتفقا على أن يتحدثا كل ليلة بعد الساعة الثانية عشرة، ولكنها لا تطيق الانتظار حتى منتصف الليل، وخصوصًا بعد ما حدث الليلة السابقة، وما لا تطيقه هو أنه طلب منها الليلة السابقة أن لا تحدثه تليفونيًّا فهو سيسافر لمكان مهم، وبعدها ستجد هي مفاجأة سارة!! أين هي المفاجأة يا (حاتم)؟ هل المفاجأة أن تغلق هاتفك هكذا، أم إن المفاجأة لم تكتمل ولهذا لم يفتح هاتفه؟ (حاتم).. أنا ضائعة بدونك.. لم تستطع التحمل أكثر من هذا وبكت، ولكنها فوجئت بمن يطرق باب الغرفة ثم يفتحه، حاولت مسح دموعها بسرعة وشقيقتها تنظر لها بحرج، ولكنها أخبرتها بأن تدخل. دخلت (دعاء) وقد احمر وجهها بخجل وهي تجلس على الفراش المقابل لـ (داليا) وتقول لها:

- "ممكن أسأل مالك؟ بابا وماما قالولي ما أكلمكيش في اللي حصل امبارح.. لكن أخش عليكي دلوقت ألاقيكي بتعيطي بتعيطي كده يبقى فيه حاجة بجد، إيه اللي حصل؟"

ابتسمت (داليا) قليلاً وهي تنظر لشقيقتها وقالت:

- "متوترة شوية يا حبيبتي".

- "علشان العريس الجديد اللي متقدملك؟"

توترت (داليا) بحق وهي ترد بالنفي، ولكن (دعاء) قالت:

- "انتي لسه مرتبطة بزميلك في الجامعة اللي حكيتيلي عنه؟"

أخذت (داليا) نفسًا طويلاً، ثم أشارت بإيماءة الموافقة برأسها؛ فابتسمت (دعاء) وهي تعتدل في جلستها وتقول بفرحة:

- "طب ما تكمِّليلي حكايته وعملتي إيه معاه بعد ما اتعرفتي عليه؟"

ابتلعت (داليا) ريقها وابتسمت ابتسامة واسعة وقد نسيت الحزن، ثم أراحت جسدها بالكامل على الفراش وهي تقول ناظرة للسقف:

- "أنا هاكمِّلك بس ما تقاطعنيش لو سمحتي"..

- "هاحاول بس ما اوعدكيش".

(بعد أن أخذتها (عفاف) لسكن الطالبات و(داليا) تضحك لها بـ(هبل)، وتقول كلمات غير مفهومة. جلست الاثنتان داخل غرفتهما، و(داليا) تقول نفس الكلمات غير المفهومة بفرح، ولكن (عفاف) وقفت فجأة عابسة الوجه وقالت بغضب:

- "اكتشفت خيانة"..

فتحت (داليا) فمها مندهشة ولكن (عفاف) أكملت قائلة:

- "(سلمى) اللي كانت هاتتعرف على أصحابه وزمايله علشان تبقى خطة بديلة لو فشلنا النهارده".

- "اتجوزت عرفي؟"

- "لا"..

- "اتجوزت شرعي؟"

- "لا"..

- "بلَّغِت البوليس؟"

لم تستطع (عفاف) الحفاظ على عبوسها، فابتسمت وهي تقول:

- "لما سيبتكم جوه المكتبة وخرجت برَّا قابلتني هي واعترفت لي إنها أُعجبت بصاحب (حاتم) اللي جاي معاه من المنصورة، وإنها حكت له عن الخطة، وهو قالها إن صاحبه كمان معجب بيكي من زمان.. علشان كده خطتنا النهارده فشلت".

ابتسمت لها (داليا) بدون أن تتكلم.. يمكننا أن نقول إن الإعجاب تطور من الجانبين وأصبح حبًّا، يكفيك أن تعرف أن بعد بضعة أيام كان الاثنان يحضران جميع المحاضرات وهما يجلسان بجانب بعضهما.. يذهبان للمكتبة معًا.. يجلسان عند تلك الدرجات الخالية بجانب مدرجات كلية العلوم، هل تعلم ماذا يحدث عندما تضع عقلاً مشتعلاً على عقل أكثر اشتعالاً؟ لقد اتحد العقلان كي يبهرا طلاب الدفعة جميعهم، فأصبح الجميع يتحدث عن (حاتم) و(داليا) اللذين يتفوقان على الجميع في جميع المواد بلا استثناء، يجدان الوقت لفعل كل شيء، من مذاكرة واطلاع على المراجع وتحدث ورومانسية.. والجميل أنه قد ظهرت لهما موهبة مبكرة متشابهة إلى حد ما، (حاتم) كان يُخفي عنها أنه يكتب الروايات في أوقات فراغه، وهي صارحته بأنها

تكتب الشعر، حتى في موهبتهما كانا مميزين، لقد كانت أشعار (داليا) تُبهر كل من يسمعها، وروايات (حاتم) القليلة تُفزع كل من يقرأها، بعدما أصبحا في الفرقة الثانية في الكلية، وقد حصل كلاهما على تقدير جيد جدًّا، كانا يجلسان ليستمع كل منهما للآخر، ولكن الحقيقة أن (داليا) كانت تنبهر بكل ما يكتبه (حاتم)، يجلسان في بعض الأحيان في مقهى قريب من الجامعة في وقت فراغهما وهي تقرأ له آخر قصيدة كتبتها، وهو يستمع لها مبتسمًا هائمًا في عينيها، ثم بعد أن تنتهي يعطيها هو بعض الأوراق التي غالبًا ما تكون جزءًا من رواية له كتبها حديثًا؛ فكلما كتب قليلاً من الرواية يجعل (داليا) تقرأها كي تعطيه رأيها، أما هي فقد كانت دائمًا ما تفزع من رواياته، والفزع هنا كان من غرابة ما يكتب، فهو يكتب روايات شديدة التعقيد والحبكة، ويغوص دائمًا في نفسية الأبطال ليخرج منها ما يُدهش الجميع، حتى يرى من يقرأ نفسه أحد أبطال الرواية، ولكن جل ما كان يدهشها هي نهاياته الغريبة الحزينة والتي لا يتوقعها أحد، كان يقول لها كثيرًا وهو ينظر لها بعد أن تفرغ من إحدى رواياته إنه يُخفي داخل كل تفصيلة من الرواية معانٍ مستترة لا ينتبه لها معظم من يقرأ، فهو يضع رسالة خفية للقارئ بين أسماء الأبطال وتواريخ ميلادهم وحتى الجمل التي ينطقون بها، فهو يريد من كل رواية أن توصل معنى سريًّا للقارئ يستتر داخل نهايتها، كما كان يقول لها دائمًا إن القارئ لو توقع نهاية القصة بأي طريقة فستصبح قصته تكرارًا لقصص أخرى، ولذلك كان يُنشئ أفكارًا درامية شديدة التعقيد وأفكارًا غريبة عنها، كتلك الرواية التي ظلت تقرأ فيها أيامًا وأيامًا إلى أن اكتشفت أن (حاتم) قد صاغها بطريقة غريبة، فعندما تصل إلى نهاية الرواية تُفاجأ أنك يجب أن تقرأها مرة أخرى من النهاية للبداية فصلاً فصلاً؛ أي إنك تقرأ قصة

عادية من البداية للنهاية، ثم تجد النهاية غير موجودة، ويطلب منك (حاتم) - في روايته بالطبع - أن تُعيد قراءتها فصلاً فصلاً من الخلف مرة أخرى لتُفاجأ بقصة مرعبة تتكون مرة أخرى عكس القصة الأصلية، حتى تصل لبداية الرواية لتجد أنها نهاية الرواية المعكوسة بالفعل.. ظلت ليلتان تُفكر في تلك الرواية الغريبة التي قرأتها له وهي لا تصدق غرابتها، كانت كل رواية له تحتوي على كم من الغرابة لا يقل عن مثيلاتها، حاول أكثر من مرة أن يعرض رواياته على دار نشر تقبل بها، ولكن الإجابة كانت الرفض غالبًا، فقط إحدى دور النشر عرضت عليه التنازل عن خمسة من رواياته مقابل بضعة آلاف من الجنيهات ليتم نشرها باسم مؤلف آخر مشهور. كانت (داليا) تُقابل كل إحباط يتعرض له بكلماتها الرقيقة وابتسامتها الجميلة وهي تنظر لوجهه الحزين، مرت السنة الثانية عليهما في الجامعة وقد حصل (حاتم) على تقدير امتياز وحصلت (داليا) على تقدير جيد جدًّا بفارق بسيط بينهما.. كان أصعب وقت يمر عليهما هو وقت فراقهما في آخر امتحانات العام الدراسي.

حيث يذهب (حاتم) لأهله في المنصورة، وتذهب (داليا) إلى الإسكندرية، يظلان على اتصال كما تعودا كل ليلة بعد الساعة الثانية عشرة على هاتفيهما المحمولين.

أسرة (حاتم) متوسطة الحال، فوالده يعمل موظفًا حكوميًّا في الصباح وبعد الظهر يمتلك محلاً للأدوات الكهربية يدر عليه دخلاً لا بأس به، وكذلك زوجته التي تعمل في نفس المصلحة الحكومية التي يعمل بها، ولكن في قسم آخر..

لم يُرزقا بأطفال غير (حاتم)، الذي تعاهدا على رعايته حتى بعد زواجه، ولم يعترضا كثيرًا على سفره إلى القاهرة لكلية دار العلوم التي كان يحلم بها، وبالرغم من اقتراح الوالد على (حاتم) بأن يسافر ويعود للمنصورة كل يوم، أو يؤجر شقة له بالقاهرة، لكن (حاتم) أصر على أن يقيم في المدينة الجامعية كي يكون بجانب الكلية، ثم إن صديق دراسته (علاء) كان سيذهب معه للإقامة في المدينة الجامعية هو الآخر.

نعود لإجازة آخر العام التي كان يقضيها (حاتم) في القراءة والكتابة.. والمتابعة مع طبيبه الخاص، ثم تنتهي الإجازة ويعود الحبيبان باشتياق للدراسة في السنة الثالثة بالكلية، وقد كانت ملامح اللهفة من كلاهما عند توديع أسرتيهما غريبة، فكأن الواحد منهما لا يترك دياره للسفر بل كأنه يعود مرة أخرى لدياره.

نضج الحبيبان وبدأت المسئولية تتضح في السنة الثالثة، لقد بقي عام واحد على انتهاء الدراسة ويصبح من الواجب على (حاتم) التقدم رسميًّا لـ (داليا)، كانت المشكلة أن (داليا) لم تذكر له أبدًا مثل هذا الموضوع أو حتى تلمح له به، ولكنه بدأ يدرك أن الوقت يمر ويجب عليه أن يخطط لمستقبلهما معًا.

يمكننا أن نقول إن العام الثالث مرَّ وقد أنضجت نار الحب قلبيهما وأشبعتهما احتراقًا، أصبح (حاتم) أكثر غيرة على (داليا)، وأصبحت هي أكثر غيرة منه بمراحل، كانت تشتعل غضبًا عندما ترى تلك الفتاة الجميلة، أو تلك ممشوقة القوام، أو تلك الخمرية... وهن ينظرن له بإعجاب، أو يحدثنه عن مادة ما كي يشرحها لهن، كانت تعض على

أصابعها عندما تشاهد تلك المواقف، ولكنه - وللحق - قد أثبت أدبًا في التعامل مع أي فتاة يعرفها.

لم تلحظ عليه أي عادة سيئة، ربما اندهشت بضع مرات من قوته على الإقناع، كانا يجلسان في المقهى وجاء أحد الشباب وجلس على أحد مقاعد منضدتهما دون استئذان، كان يبدو عليه الحدة في الطباع، ابتسم بوحشية لـ (حاتم)، وحذره من أنه يراه مرة أخرى يتحدث مع إحدى فتيات الدفعة لأنها تخصه، وإلا سيضع حذاءه على رأسه! وجدت (داليا) (حاتم) يبتسم وهو يقول له إنه لا يعرفها أساسًا ولم يرها من قبل.

وجدت الشاب ينهض وهو يبتسم لـ (حاتم) ويصافحه معتذرًا، لأنه خلط بينه وبين شخص آخر، واعتذر له مرة ثانية ثم اعتذر لـ (داليا) وغادر المقهى.. قوة إقناع رهيبة.. في تلك السنة صُقلت مهارات الكتابة لدى (حاتم)، وإن ظل بحثه الدائم بين دور النشر عمن يمكن أن يقبل المخاطرة وينشر لشاب مثله لم يتجاوز العشرين بعد، حدثته كثيرًا عن مخاوفها من أن يفترقا، وحدثها هو أيضًا عن مخاوفه.. ولكن مخاوفه كانت غريبة بعض الشيء.. لقد كان يحدثها عن مخاوفه من المقبرة، عندما يموت.. عندما يبرد جسده وتتصلب أطرافه ويغطي أصدقاؤه وجهه، عندما يدخل لظلام القبر وحيدًا والكفن الأبيض يحيط بجسده، هل سيكون واعيًا لما يحدث؟ أي هول سيشعر به في تلك اللحظات، كانت تستمع له وهي مندهشة مما يقول، ما تلك المخاوف الفظيعة التي يحملها حبيبها؟!!)

***

الفصل الخامس

"صباح العسل يا أبو ليلى"..

قال (محمد) العبارة السابقة وهو يعطي سيجارة الحشيش لـ (سيد) فتناولها منه الأخير والتقط منها عدة أنفاس ثم أعادها إليه، كان (محمد) الممرض يجلس بجانب (سيد) الذي يقود السيارة التي تنقل الجثث الثلاث لمقابر الصدقة.

تلك السيجارة هي الثانية لهما في تلك الليلة، وحسب كلمات (محمد) فإن تلك (الاصطباحة) هي بداية الليل فقط، فهناك (اصطباحة) أخرى مع حارس المقابر قد اتفق معه عليها عن طريق الهاتف.

ظل (سيد) يتبع إرشادات (محمد) - الذي تجاوز الثلاثين بقليل - حتى يصل إلى المقابر.. توقف (سيد) قبل المقابر بشارع كما طلب منه (محمد)، ثم نزل هذا الأخير من السيارة واتجه إلى منطقة المقابر وسط الظلام الدامس، ثم عاد بعد دقائق ليطلب من (سيد) مرافقته..

بعد مشاورات كثيرة اقتنع (سيد) بأن يترك الجثث في السيارة ويرافقه للداخل، بالرغم من خطورة تركه لها هكذا في السيارة، عندما دخل الرجلان وجدا على أول طريق المقابر الذي يغلفه الظلام شابًا في الثلاثين من العمر أو أكبر قليلاً، يرتدي قميصًا أبيض وسروالاً قماشيًّا

ومركوبًا.. قام (محمد) بتعريفه إلى (سيد) بسرعة بأنه (هادي) حارس المقابر..

كان صوته خافتًا بالرغم من عدم وجود أشخاص حولهم لمئات الأمتار، إلا أن المكان قد أضفى رهبة عليهم جميعًا.

(هادي) يحمل مصباحًا صغيرًا استخدمه وهو يقودهم داخل شارع طويل.. وعلى الجانبين تراصت قباب صغيرة، فنظر (سيد) حوله يتأمل المكان على الضوء الخفيض للمصباح، ذلك الجزء من المقابر هو شارع طويل رئيسي تتراص شوارع وحارات جانبية ضيقة على جانبيه، والأشجار المزروعة بكثافة شديدة داخل كل حارة جانبية لتغطي على قباب القبور، تخفي أجزاء منها.

ظلوا يسيرون في ذلك الشارع طويلاً حتى مرت دقائق وقد تغير شكل الشارع وأصبحت القباب على اليسار فقط، وعلى اليمين مقابر تشبه المنازل مغلقة ببوابات خشبية أو حديدية، ومعلق عليها لافتات من الرخام الأبيض منحوت عليها أسماء عائلات، وبجانب كل اسم تاريخ قديم لبناء المقبرة.

ظل الجميع يسيرون إلى أن خرجوا لشارع آخر تحيطه المقابر، ولكن هنا دخل (هادي) لشارع جانبي ليجدوا غرفة صغيرة مضاءة الأنوار، دخلها (هادي) وتبعه الاثنان، غرفة (هادي) صغيرة نسبيًّا، دُهنت بالأبيض الذي يبدو أنه دهان جديد، حتى إن تلك النافذة الصغيرة طالها الدهان، تلفاز صغير وُضع فوقه جهاز ريسيفر متواضع،

وهو يعرض الآن قناة أفلام أجنبية! بجانب التلفاز منضدة صغيرة عليها بعض الاشياء المتفرّقة وأوراق وملابس ملفوفة وأكياس سوداء..

هناك حمام ملحق بالغرفة مغلق بباب خشبي ومقعدان، وغرفة جانبية ضيقة تظهر منها بعض الأطباق والملاعق وموقد صغير. جلس (سيد) على أحد المقاعد بينما جلس (محمد) على فراش صغير بطريقة تنم على تعوده على الجلوس كثيرًا في هذه الغرفة، قال (محمد) لـ (هادي):

- "يالا هات بقى المسائل علشان أنا هأموت وأدوق الحتة الجديدة".

دخل (هادي) للمطبخ وخرج ومعه "جوزة" وإناء فخاري وضع به بعض الفحم المتوهج! هل كان يقوم بتسخينه قبل مجيئهم؟ دخل مرة ثانية للمطبخ وأحضر بعض الأشياء و(سيد) ينظر لهما برهبة.

جلس (هادي) بعدها بجانب (محمد) على الفراش وهو يسحب أنفاسًا سريعة من الجوزة ويقول له:

- "كام جثة معاك؟"

سحب (محمد) نفسًا طويلاً، وكتمه ثم أخرجه باستمتاع وهو يعطي الجوزة لـ (سيد) الذي تلقاها بحذر..

- "تلاتة يا سيدي".

- "والواحد بكام؟"

مد (محمد) يده في جيبه وهو يبحث عن شيء ما، و(سيد) يشاهدهما باستغراب وهو يسحب أنفاس الجوزة، حتى أخرج الأول مبلغًا من جيبه:

- "التلاتة بألف جنيه يا عمنا، أنا هاخد 300 جنيه منهم، و(سيد) ياخد 200، وانت حلال عليك الباقي يا سيدي".

- "طب حالة الجثث إيه؟ ينفع تتباع يعني؟ والعضم مكسَّر وألا إيه نظامه؟"

هنا تكلم (سيد) وقد تخطى حاجز الصمت بعد سماعه آخر عبارة:

- "إيه يا عم منك له، جثث إيه اللي تتباع وعضم إيه اللي بتسأل عليه، وكمان الفلوس اللي بتتوزع دي بتاعة مين وليه؟!!"

أطلق (محمد) ضحكة وهو يأخذ الجوزة من أمام (سيد)، و(هادي) يقول بابتسامة ساخرة:

- "صاحبك ما يعرفش حاجة ولا إيه؟"

ناول (محمد) عصا الجوزة لـ (هادي) وهو يقول لـ (سيد):

- "الفلوس دي يا أبو السِّيد أجرة التربي في دفن الجثث، ومن الآخر الجثث هاتندفن من غير تصريح، لكن معانا كده حتة ورقة مالهاش لزمة متزورة على إنها تصريح هانطلعها لو حصل في الأمور أمور، (هادي) بيحب يساعد الناس اللي عايزة تدفن حد من غير مشاكل ومن غير وجع قلب للحكومة وتحقيق والكلام الفاضي ده".

- " الجثث دي مالهاش تصاريح ليه؟"

- "ما انت راجل طيب يا أبو سيد.. يا عم الحج الحادثة بتاعة القطر اللي ولع امبارح ده هو والأتوبيس.. دي جثثها بقى".

- "مش فاهم حاجة!!"

فتح (محمد) فمه ليجيب، ولكن (هادي) أعطاه عصا "الجوزة" في فمه؛ فضحك الأول وهو يسحب نفسًا عميقًا، و(هادي) يرد على (سيد) قائلاً:

- "بص يا سيدي، الحادثة لمَّا تحصل لو جثثها مش كتير قوي يعني وملياانة جثث مشوهة ومتبهدلة ومش عارفين يتعرفوا على أهلها، الحكومة ربنا يخليها لنا بتقول إن مثلاً عشرين واحد مات، والحقيقة تكون أربعين، يعملوا إيه في الجثث الباقية؟ يا إما يسلموها لأهاليها، أو لو مش عارفين يوصلوا لحد منهم يدفنوها في مقابر الصدقة من غير تصاريح، فيه كام جثة من اللي أعلنوا عنها ممكن تكون مالهاش معالم؛ فيقوموا مطلَّعين ليها تصاريح وتندفن برضه في مقابر الصدقة، فهمت يا أبو السِّيد؟"

- "يعني الجثث دي المستشفى هاتدفنها من غير ما حد يعرف عنها حاجة؟!"

- "الله ينوَّر عليك".

كان (محمد) في تلك المحادثة يلتقط أنفاسًا بطيئة طويلة من الجوزة، ثم أعطاها لسيد الذي تلقفها وهو يلتقط أنفاسًا منها مفكرًا، و(محمد) يقول وهو يهرش في رأسه:

- "شوفت بقى إن الموضوع مفيهوش مشاكل ازاي، دا كمان انت بتاخد ثواب علشان هاتساعد على دفن الجثث، يعني ثواب وفلوس يا راجل".

انتبه (سيد) فجأة ورفع رأسه كأنه تذكر شيئًا، فقال بشك:

- "انت قلت إنك هتبيع الجثث وعايز تتأكد من عضمها؟"

نفخ (هادي) متضايقًا وهو يتناول عصا الجوزة من (سيد) قائلاً بنفاد صبر:

- "ما تشوفلك حل في صاحبك ده يا أبو حميد".

قال (محمد) بطريقة ناعمة:

- "بص يا (سيد)، الجثث دي بتبقى مليانة خير من كله، طلبة طب عايزين يتمرنوا في بيوتهم.. ناس بتعمل تجارب على أعضاء بشرية، جماعة كده يجولك ويقولولك محتاجين عضم الجثث بعد ما تتحلل، ناس عايزة جماجم تطحنها، وغيرهم وغيرهم.. كلهم بيدفعوا زي الفل، وصدقني دي كلها خدمات مش حرام، بالعكس انت بتعمل جمايل لناس وبتعمل خير كمان".

- "هو إيه اللي مش حرام ده يا (محمد)؟!! انت اتجننت؟!!"

- "يا جدع اهدا بس واسمع، هي الجثة هَتْهِم صاحبها في إيه بس؟ ما هي روحه بقت مع ربنا خلاص يا جدع، ثم كمان اسأل في الدين وهايقولك إن الروح هي اللي بتعيش في نعيم أو عذاب لما الإنسان يموت، يعني الجثة مابتبقاش ليها لزمة والأرض بتاكلها واحدة واحدة، إحنا بقى بنفيد طلبة طب ونخليهم يتعلموا عليها ويذاكروا، وكمان علشان البحث العلمي يا جدع، وكل مصلحة وليها ناسها".

ابتلع (سيد) ريقه وهو يفكر في حين أخذ (محمد) الجوزة وهو يعطيها له ويقول ضاحكًا:

- "انسى يا جدع وماتفكرش كتير في الحاجات دي، خَلِّي العايش عايش والميت ميت، ومحدش بيشتكي لحد".

- "أيوه محدش بيشتكي لحد علشان معندهومش لسان يتكلموا".

قال (هادي) بسخرية:

- "ومين اللي قالك إنهم ما بيتكلموش، ساعات العفاريت بيطلعوا برضه يعملوا شويتيين وينامو تاني".

ضحك الاثنان وابتسم (سيد) وهو يقول لـ (هادي) مستفسرًا:

- "حقيقي موضوع العفاريت والأرواح ده؟"

قال (هادي) بدون أن يرفع عينيه من على الجوزة:

- "والله أنا ماشوفتش عيني عينك عفاريت، سمعت أصوات آه.. وحسيت أكتر من مرة إن حد جنبي أو معدي أو صوت خروشة.. لكن ماشوفتش عفريت قدامي، لكن الحكايات اللي سمعتها من أهلي كتير ثوي ما تِتْعَدِّش".

- "هو انت أهلك كلهم شغالين..."

- "تُربيَّة.. أنا عمامي كلهم شغالين في المدافن، وجدودنا من زمان برضه، من أيام أبو جدي".

شعر (سيد) بأن هناك شيئًا ما يدخل في مجال إبصاره من على يمينه؛ أي من اتجاه باب الغرفة، فنظر بعينيه ناحية الباب ببطء كي يتأكد من أنه يتخيل، ولكنه فوجئ بعينين خضراوين تنظران له بفزع!!! شهق (سيد) وهو يقف ويرجع للرواء فيتعثر ويسقط، وقام (محمد) مفزوعًا وهو ينظر عند الباب...

- "تحب تاكل حاجة يا (علي)؟"

قائل العبارة كان (هادي)، والذي لم يُحرك عينيه من على الجوزة وهو يقول تلك العبارة للشخص الواقف على الباب بنوع من اللامبالاة، ثم تبعها بأن مد يده إلى المنضدة الصغيرة التي وضع عليها بعض الأشياء، وتناول كيسًا يحوي فتات خبز قديم ورماه باتجاه الشخص الواقف ليقع تحت قدميه، جلس الواقف على ركبتيه وهو يمسك الكيس ويفتحه ويأخذ منه لقيمات يضعها في فمه ويمضغها ناظرًا لـ (محمد) و(سيد)، اللذين تمالكا أعصابهما وهما يستفسران عن هذا الشخص.

في الحقيقة كان الشخص الواقف شابًّا في العشرينات من عمره، قسمات وجهه تختفي تحت بعض الأتربة وإن كانت تميزها الوسامة وخاصة بعينيه الخضراوين، شعره المغبر بالأتربة كان طويلاً ومنكوشًا، جسده نحيل جدًّا، وهو نفسه ضئيل الجسد قصير، ولكن ليس بدرجة كبيرة.

يرتدي قميصًا ممزقًا يظهر من تحته تي شيرت بلون أحمر متسخ، وسروالاً باليًا، وحافي القدمين، مظهره يوحي بالشفقة أكثر منه بالخوف، وقد نزل على ركبتيه وهو يأكل الخبز وينظر لهم في حين، قال (محمد) بحذر:

- "مين الواد ده يا بني؟"

- "غريبة.. انت أول مرة تشوف (علي)؟! ده معروف هنا قوي في التُّرَب".

- "يعني انت شايفني كنت ساكن معاك هنا!!"

جلس (سيد) على كرسيِّه وقد هدأ قليلاً، وكذلك (محمد) عاد للجلوس على الفراش وهو يتناول عصا الجوزة ويستمع لـ (هادي) الذي قال موجهًا حديثه لـ (علي) الذي ما زال يأكل:

- "امشي يا (علي) دلوقت وخد الأكل معاك".

أخذ (علي) الخبز وضمَّه إلى صدره وهو ينهض ثم يغادر الغرفة بهدوء..

- "زمان لما كنت صغير كان فيه حكاية كده باسمعها عن مقبرة هنا جوه لشيخ اسمه (صالح عبد الراضي أبو العنين)، اندفن هنا في قبر عيلتهم في 1911، وده التاريخ اللي محفور على القبر، المهم اللي حضر الكلام ده هو أبو جدي الله يرحمه، واللي وصَّى جدي الوصية اللي جدي وصى بيها أبويا وأبويا وصَّهاني"..

- "وصية إيه؟!"

- "ما نقرَّبش للقبر ده كل يوم تلات، حتى لو سمعنا أصوات عنده أو شوفت نور أو صوت حد بيخبط".

قال (سيد) برهبة:

- "أصوات إيه دي؟"

- "والله الكلام كتير، جدي كان بيقول إن الشيخ أبو العنين كان من الصوفية، وكان راجل زاهد في الدنيا، وإن كل يوم تلات تحصل حلقة ذكر كبيرة بيعملها الشيخ أبو العنين في حضرة الجان، أو بيقولوا اللي بيموت بيفضل قرينه عايش، وكل الناس الكويسين اللي ماتوا بيتجمعوا في الليلة دي يذكروا ربنا عند قبر الشيخ الطيب ده، وعشان كده استحالة حد فينا كان يقرب من الحوش اللي اندفن فيه الشيخ أبو العنين بالليل، وحتى جدي كان بيقول إن بعد ما اندفن الشيخ بحوالي سنتين مات واحد من عيلته.."

أخذ (هادي) أنفاسًا طويلة من الجوزة وهو يحرك الفحم بالماسك ويكمل:

- "فتحنا القبر ودخّلنا الراجل اللي كانوا بيقولوا إنه فتوة بياخد فلوس من الناس علشان يحميهم، وياما قتل ناس وبهدل ناس، المهم إن جدي بيقول إنه كان صغير ساعتها وهما بيدفنوا الراجل ده جنب الشيخ أبو العنين، وبعد ما اندفن بليلتين بقوا يسمعوا أصوات حد بيصرخ وكأنه بيصرخ من الوجع، الصوت كان جاي من جوه الحوش بتاع عيلة أبو العنين.. فاتت كام ليلة على الحال ده لغاية ما حلم أبو جدي وأخواته في نفس الليلة بالشيخ أبو العنين جايلهم في الحلم وبيزعق ويقول: "شيلوا النِّجِس ده من جنبي".. الحلم اتكرر كام مرة، وبعديها لقوا رجالة عيلة أبو العنين جايين يطلبوا إنهم يشيلوا الجثة اللي دفنوها جديد من جنب الشيخ أبو العنين علشان هو زارهم في المنام كتير ووصاهم بكده.. المهم فتحوا القبر وشالوا الجثة ودخلوها جبانة تانية وعملوا حاجة غريبة قوي"..

كان الترقب قد وصل إلى قمته عند تلك النقطة من الحكاية الغريبة و(محمد) و(سيد) ينتظران من (هادي) أن يكمل، فأكمل قائلاً وهو يترك الجوزة وينظر لهما:

- "أبو جدي وأخواته شالوا الباب الحديد بتاع الحوش وبنوا مكانه سور من الطوب، وحطوا رخامة باسم الشيخ أبو العنين وعليها السنة اللي بيقولوا إنه مات فيها، وبكده مفيش حد قدر يخش حوش القبر من ساعتها ولا حد شاف القبر اللي جوه حتى لغاية دلوقت".

- "وموضوع الأصوات ده حقيقي ولا افتكاسة؟"

- "والله أنا ماعرفش، بس أنا مقرَّبْتِش ولا مرة من المكان ده بالليل ولا سمعت صوت خالص، إلا في اليوم اللي شوفت فيه الواد (علي)"..

- "(علي) مين؟!"

- "(علي الطيب).. الواد اللي كان واقف هنا دلوقت، أمال انت فاكرني بحكيلك على الحكاية دي ليه؟ ما هو علشان أقولك مين (علي) ده"..

تنحنح (هادي) وهو يعطي الجوزة لسيد ويكمل:

- "كنت أنا مخلَّص إعدادية كده أو قول كنت دخلت ثانوي مش فاكر قوي.. وكنت قاعد مع أبويا وأمي بنتعشى وكنا ليلة التلات، سمعنا صوت بيصرخ ويعيط ويتوجَّع بس كأنه جاي من عيل صغير، خرج أبويا جري وأنا جريت وراه واحنا بندور على المكان اللي الصوت خارج منه، الصوت بِعْلى واحنا نجري أكتر ناحيته، لغاية ما قرَّبنا من حوش الشيخ أبو العنين، هنا أبويا وقّفني وقال لي ما تتحركش من مكانك، وما رضيش يخلِّيني أكمل معاه، ووصَّاني أقرأ قرآن؛ لأن الدنيا كانت ضلمة قوي وسط الجبانات، ودخل هو في الحارات الباقية لغاية ما سمعته بيقرأ قرآن بصوت عالي، وبينادي على مين بيصرخ.. شوية ولقيته خارج وهو ماسك في إيده عيل صغير فاتح بقه وعينه وشكله كده ما يعدِّيش سبع أو تمن سنين بالكتير، أبويا كان ماسك الواد وهو بيحاول يكلمه والواد ساكت خالص وفاتح بقه، رجعنا تاني على الأوضة بتاعتنا نحاول نعرف حكاية الواد ده؟ الواد كان لابس لبس نضيف وشكله ابن ناس، لكنه مابينطقش خالص وفضل ساكت كده طول الليل، أبويا قال إنه لما قرَّب من مقبرة الشيخ أبو العنين ملقاش حاجة والواد ده كان واقف ساكت وباصص للحيطة اللي قافلة الحوش، طبعًا أبويا قعد كام شهر يدور على أهل للواد ده محدش

عرف يستدل على حاجة، سمّيناه (علي)، وبدأ هو يختفي ويغيب يومين ويرجع تاني لأوضتنا، كان يقعد يلف في المقابر وينام فيها واحنا طبعًا مش كل يوم كنا هاندور عليه في الجبَّانات، فاتعوّدنا نسيبه يعيش حياته، والناس كمان اتعودوا يسيبوه بعد ماعرفوا بيه وبحكايته، وبقى كل واحد يعطف عليه باللي يقدر عليه، لا عمره اتكلم ولا عمره أذى حد، دايمًا في حاله لا يسأل على أكل ولا يسأل على نومة، ياكل أي حاجة يقدموها الناس ليه وينام في أي مكان النوم يكبس عليه فيه، علشان كده سمناه الطيب، عرفتوا بقى حكاية الواد ده إيه؟!"

امتلأ جو الغرفة بالأدخنة، وقد بدأ مفعول المخدرات باللعب في عقولهم، وبدأت الأجساد بالتراخي، فلم يتكلم أحد بعد انتهاء كلام (هادي)، وإنما ظلوا يدخنون لدقائق، قبل أن يقول (سيد) وقد تذكر شيئًا:

- "الجثث اللي في العربية دي إحنا نسيناها!!"

- "هاهاهاهاهاهاها.. تصدق إني نسيت إنكم جايين هنا علشان تدفنوا جثث، والله القعدة الحلوة ماتتعوضش بس برضه الشغل شغل".

قام (هادي) مترنحًا وهو يقول لهما والضحكة لم تزل على شفتيه:

- "يالا بينا يا شباب علشان نخلص شغلنا".

***

الفصل السادس

((لم يكن هناك مفر من أن يتحدثا في موضوع الزواج، فالوقت قد ضاق وهما الآن في السنة الرابعة.. من بدأ الحديث هو (حاتم)، عندما قال لها إنه سيتقدم لخطبتها بعد انتهاء الدراسة، ظهر الخجل عليها ممزوجًا بالفرحة، ولكنه قال لها بارتباك إنه يخشى أن يرفضه والدها لأنه لم ينته من تكوين مستقبله بعد ومازال يحتاج لعمل يدر عليه دخلاً كبيرًا.

الواقع أن والد (حاتم) قد أعد عدته ليوم زواجه وقام بتوفير شقة خاصة له، وكذلك تعب كثيرًا حتى يوفر نقودًا تُعينه على هذا اليوم، و(حاتم) كان يعلم هذا جيدًا، ولكنه يشعر من داخله بأنه بذلك يضغط على عائلته أكثر من اللازم، فكان يريد عملاً يدر عليه الدخل السريع، ولكن (داليا) بادرته بطلب عجيب:

- "فاضل حوالي سنة على ما نخلَّص جامعة صح؟"

رد (حاتم) عليها بتلقائية:

- "مظبوط".

- "وانت عايز تتقدم لي بعد السنة دي؟"

- "طبعًا.. ولازم ساعتها أكون شغال في شغلانة كويسة".

- "إيه رأيك تشتغل كاتب؟"

قهقه (حاتم) ضاحكًا فأكملت (داليا) بجدية:

- "انت بتحب التأليف من زمان يا (حاتم)، دايمًا تقولي إنك نفسك تشتغل مؤلف.."

- "مفيش مؤلف بيكسب فلوس من التأليف إلا مؤلفين قليلين قوي، وكمان مش هادخل على أبوكي وأقوله إني شغال مؤلف".

- "لا ممكن، وأنا هأقولك على الحل".

- "الحل؟!!"

- "قدامك سنة من دلوقت يا (حاتم)، وفي السنة دي مش هسألك على أي حاجة تبع شغلك، لكن هايبقى قدامك فرصة واحدة بس إن بعد السنة دي تنجح في القصص والروايات وتكسب فلوس منها كمان، ولو عدِّت السنة دي من غير ما تنجح في المجال ده.. يبقى.."

نظر لها (حاتم) بدهشة وقد توقفت ضحكاته، رمقها بجدية مماثلة للتي ترمقه بها، مرت فترة صمت وقال هو بعدها:

- "انتي بتتكلمي بجد؟ انتي عارفة إن مفيش دار نشر بتقبل تنشر لي حاجة، ودايمًا عايزين يا إما الحاجات الخفيفة قوي أو الهايفة قوي أو المثيرة قوي".

- "أكيد فيه حل، وكتاباتك هاتفرض نفسها على الناس..."

- "إيه كلام الأفلام ده؟ كتابات إيه اللي هاتفرض نفسها دي؟ هو أنا اتنشر لي حاجة أساسًا، وكمان مين ده اللي هاينشر لي حاجة وهايهتم بيها كدعاية وتوزيع، الكلام ده صعب".

- "(حاتم).. الفرصة قدَّامك.. يا إمَّا تكون واثق في موهبتك وواثق إنك هاتوصل، يا إما ماتحاولش تكتب تاني وكفاية بقى رواياتك وقصصك اللي انت عمال تحوشها دي من غير فايدة، سنة كاملة وبعديها هانكون قدام أمر واقع مش هانعرف نهرب منه، ممكن تقدر تكسب من كتاباتك وتنجح وتبقى مؤلف هايل... أو من دلوقت تدور على شغل تاني".

تغيرت نظرات (حاتم) لـ (داليا) لتصبح مليئة بالدهشة من طريقتها العنيفة التي تستخدمها لأول مرة معه في الحديث:

- "ما لك يا (داليا)؟ انتي بتقولي كلام مش معقول، عايزاني أكسب فلوس من الكتابة ازاي في خلال سنة واحدة بس، وانتي عارفة إني بَلِف على دور النشر من زمان ومحدش عايز ينشر لي صفحة واحدة بس، أنا كده ممكن أعمل حاجة أحسن، أنا هاكتب قصص جنسية وأبيعها للجرايد الصفرا وبكدة هاكسب الفلوس اللي انتي عايزاها".

نظرت (داليا) للأرض والدموع تتكون في عينيها وتقول بصوت خفيض مهزوز:

- "أنا آسفة يا حبيبي.. أنا كنت فاكرة إني بكلامي اللي فات باستفزك علشان تنجح في المجال اللي انت بتحبه، أنا مش متخيلاك

بتشتغل حاجة تانية غير إنك تبقى مؤلف مشهور، أنا عمري ما هاتجوز غيرك، وهافضل مستنياك لو حتى قعدت 100 سنة علشان تنشر قصصك، اوعى تبيع دماغك لحد يا (حاتم)، اوعى تهدل موهبتك، أنا هاستناك وعمري ما..."

قاطعها (حاتم) بجدية صارمة قائلاً:

- "استنّي يا (داليا).. المرة دي أنا اللي هاتفق معاكي فيه على اتفاق، أنا قدامي سنة بالظبط علشان أتقدملك رسمي لبيتكم، وفي السنة دي أنا هاثبت نفسي في الكتابة وهانشر قصة من تأليفي، وأوعدك لو السنة عدت وفشلت.. أنا هابطل كتابة وهاشتغل أي حاجة تانية".

كادت (داليا) أن تتكلم وترد على جملته، ولكنه بادرها بأن رفع يده ليُسكتها، ثم استأذن منها لينصرف ونهض مغادرًا المكان بعد أن ترك الحساب على المنضدة)).

***

الفصل السابع

الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً

وقف الثلاثة أمام السيارة ينظرون لها، و(هادي) يتلفت حوله بين الحين والآخر بحذر، فتح (سيد) الباب الخلفي للسيارة بتردد، وبرغم تأثير الحشيش الذي عصف بعقله إلا أنه ظل يردد: (أنتم السابقون ونحن اللاحقون).. أكثر من مرة وكأنها عزيمة ستحميه من شر الأموات.

أما (محمد) فقد وقف خلفه ليساعده على إخراج الجثث، أول جثة لم تكن جثة بالمعنى المعروف، بل كان الكفن الأبيض مغلقًا تمامًا ولكنه أقل في الطول من طول إنسان، هنا قال (سيد) بصوت خافض ويد مرتعشة لـ (محمد) وهو يسحب الكفن ناحيته ليخرجه من السيارة:

- "دي الجثة المتقطعة".

لم يبدُ على (محمد) التأثُّر، ولكنه ساعده على سحب الجثة وحملها خارج السيارة ليستقبلهما (هادي) بسرعة قبل أن تقع الجثة. عندما حمل (محمد) الجثة شعر باشمئزاز فجأة من ملمس الجسد المقطع وهو لا يعلم أي قطعة يلمسها الآن من خارج الكفن، قال (هادي) لـ (سيد) وهو يحمل الجثة مع (محمد):

- "أنا و(محمد) هانروح نحط الجثة جنب المدفن، وإنت استنَّى هنا جنب الجثث لغاية ما نرجع".

بالفعل قام الاثنان بنقل الجثة الأولى، وعادا لـ (سيد) الذي كان على وشك الموت خوفًا من وقفته بجانب الأكفان وحيدًا، العجيب برغم أنك تعلم أن الجثة لن تعود للحياة وأنها لن تؤذيك إلا أنك تظل خائفًا من النظر إليها..

وأضف إلى هذا علمك بأن تلك الجثث مشوهة ومقطعة، وأنها ماتت في حادثة مؤلمة، خيالك سينسج لك ألف شكل لتلك الجثث برغم أنك لم ترها بعد، وربما كان مظهرها الحقيقي أقل وطأة عليك من المظهر الذي رسمه خيالك، ولكنك في النهاية تكتشف أنها لن تتحرك ولن تؤذيك ولن تعود لها روحها إلا يوم الحشر.

قاما بنقل الجثة الثانية ثم الثالثة، والتي ساعدهما في نقلها (سيد) بنفسه وهو ما زال يرتعش، حتى وصلوا إلى المقبرة التي وُضعت الجثث بجانبها، توقف الجميع وهم يلتقطون أنفاسهم، وضوء المصباح الأبيض الصغير الذي وضعه (هادي) ينير لهم قليلاً، و(سيد) يتأمل المقبرة الفقيرة المفتوحة، والتي تظهر من الخارج الدرجات التي تقود إلى الأسفل..

إلى داخل المقبرة المظلمة.. الرائحة العطنة التي تجمع بين رائحة التراب ورائحة مقززة أخرى، الأجساد الثلاثة الملقاة بجانب القبر، الليل حالك الظلمة الذي يفرد سطوته على تلك الجريمة، ورق

الأشجار الذابل يغطي الأرض وقد اختلط بأغصان جافة صغيرة تتكسر تحت قدميك عند سيرك.

ثلاثة أجساد حية وثلاثة أجساد ميتة، ترى ماذا لو تبدل الأمر ودخل الأحياء للمقبرة وظل الأموات في الخارج، تراجع (سيد) للوراء خطوة فجأة وهو يرى (هادي) يقوم بإخراج سكين صغيرة من ملابسه وينزل على ركبتيه وهو يستخدمها ليقطع الحبل الذي يربط الكفن لإحدى الجثث!!

فتح (سيد) فاه ولسانه لا يقوى على التحرك ليسأله عن ماذا يفعل، وخاصة بعد أن جلس (محمد) أيضًا بجانب (هادي)، وساعده على فتح جزء من الكفن فظهرت ملامح الجثة المشوهة بارزة، فدارى (سيد) عينيه بيديه، وصوت (هادي) يتردد:

- "حتة حلوة، بس خسارة دراعه متفتفت ووشه بايظ، وكمان جسمه مقطوع من الوسط".

كان (هادي) يقلِّب في الجثة بنوع من اللامبالاة وهو يتفرس فيها جيدًا، و(محمد) يجلس بجانبه واضعًا يده على فتحتي أنفه كي يمنع تلك الرائحة التي بدأت تخرج من الجثة من الوصول إلى أنفه، أما (سيد) فهو يحاول أن يرى من بين أصابع يده التي يضعها على وجهه، قام بفتح كفن آخر لتظهر داخله أشلاء للجثة، فحاول إغلاق الكفن وهو يقول:

- "الحتة دي مش هاعرف آخد منها حاجة أصلاً، لا لحم ولا عضم، دي أنا هادفنها في حتة كده بأدفن فيها الجثث البايظة".

أما الكفن الثالث فقد وجد (هادي) به وجهًا مليئًا بالحروق، ودماء متجمدة تغطي الوجه والجسد، وذراع الجثة الأيسر مقطوع وموجود بداخل الكفن، بالإضافة إلى أن عينه اليسرى تجمدت عليها مادة كأنها خرجت من العين نفسها، ظهرت معالم الفرحة على (هادي)..

- "الحمد لله، أخيرًا شوفت واحد سليم شوية، هو دراعه مفصول آه.. بس باقي الجثة سليم ما عدا وشه بس، هايندفع فيه سعر مش اللي هو يعني بس أهو كويس"..

بالنسبة لـ (سيد) كان الوقوف كل تلك المدة أمام تلك المناظر مستحيلاً.. ولكنه لم يتخيل أن المخدرات قد أذهبت عقله تمامًا هو و(محمد) ليقفا أمام رجل ينتهك حرمة الموتى ويقوم بكل حنكة بتصنيف الجثث لبيعها أو للتخلص منها، كأنه يتحدث عن سمك فاسد وسمك طازج يصلح للبيع، وربما بسبب المخدرات وافقه الاثنان على كلامه عندما قال:

- "بعد بكره بالليل هايجيلي الناس اللي هايشيلوا الجثث، بس أنا هادِّيهم الحتة دي بس، بتاعة الواد اللي من غير دراع ده، وهاخَلّي الحتة بتاعت الواد اللي نصه اللي تحت مفصول في التربة لغاية ما تبقى عضم وأبيعها بالحتة، أما اللي متقطع ده أنا مش هادخله التربة أساسًا ده ما يسواش نكلة.. أنا هادفنه بمعرفتي".

- "هي إيد الجثة دي ما لها؟"

هنا نظر الجميع للجثة بفضول، وقد كانت الجثة التي يشير لها (هادي) هي جثة الشاب ذي الذراع اليسرى المتهتكة والرأس المحطمة المليئة بالحروق، ويده السليمة مشدودة ونهاية قبضتها مغلقة، أما جسده فهو مفصول من الوسط، ولكن عندما قرَّب (هادي) المصباح من قبضة الجثة وضح أن القبضة قد ذاب الجلد المحيط بها فكوّن شكلاً متكورًا غير واضح المعالم لها.

- "الواد ده قافش على حاجة!! كف إيده جواه حاجة.. مش معقول يكون كف إيده كبير كده".

قالها وهو يقترب من الجثة ويمسك يدها، ولكن (سيد) لم يتمالك نفسه وهو يتخيل أن (هادي) سيقوم بـ....

مد (سيد) يده في محاولة غير جدّية لمنعه مما سيفعل، ولكن (هادي) بكل برود غرز السكين في قبضة الجثة وأخذ يقطع بصعوبة الأصابع الظاهرة، والسكين يُصدر صوتًا كالحفيف وهو يدخل ويخرج في اللحم يمزقه بلا رحمة، هل كان تأثير المخدر لتلك الدرجة التي تمنع (محمد) و(سيد) من اتخاذ ردة فعل لانتهاك حرمة الجثة؟

أم إنهما كانا يسيران بمبدأ (ليس بعد الكفر من ذنب)، أي إنه لن يفرق معهما شيء بعد أن قَبِلا ببيع الجثث ومعاملتها كأنها بضاعة.. أو كأنها أسماك...

استمر (هادي) في قطع الأصابع وإزاحة اللحم، ليبتسم وهو يقول منتصرًا:

- "مش قولتلكم الواد ده قافش على حاجة"..

كانت علبة حمراء صغيرة من التي تُستخدم في محلات الذهب لحفظ الخواتم، طُبِّقت جوانبها، فتحها (هادي) وهو يتأمل الخاتمان اللذان وُضِعا داخلها، وقد كُتبت عليهما حروف بارزة.

- "يا ابن المحظوظة، دبلة دهب ودبلة فضة.. كل دي دبلة دهب!! دا انت كنت غني يا روح أمك".

قال (هادي) العبارة السابقة وهو يتأمل النقش البارز من الخارج على الدبلتين ويقرأ الأسماء بصعوبة بحروف إنجليزية:

- "دا.. دل... دله.. دليلة.. إيه الأسماء الغريبة دي، مش مشكلة.. أهو ارتاح من الجواز خالص وهايخش الجنة كمان فوق البيعة".

أغلق العلبة بسرعة ووضعها في جيبه، و(محمد) و(سيد) ينظران له ببلاهة وكأنهما يشاهدان ضربًا من الخيال أمامهما، لقد فاق الأمر طاقة عقليهما على التحمل.

فهما مهما فعلا - وخاصة (محمد) - لم يشاركا في تشويه جثة أو استخدام سكين لانتهاكها بهذا الشكل، لقد فاق ما حدث قدرتهما على التحمل، وأصبح (هادي) هو القائد في ذلك الموقف، فكأنه فرض عليهما سطوته بما فعله بالجثة، وأصبحا الآن بسبب ما حدث -

وبسبب تأثير المخدر - طوع أمره، ولم يجرؤ أحدهما أن يسأله عن العلبة التي احتفظ بها في جيبه.

- "يالا بينا ندخل الجثث بسرعة علشان عندي زيارة من ناس حبايبي زيكم كده بعد شوية".

ظلَّت نظرات التيه على وجهي الاثنين، ولكن (هادي) بدأ ينزل القبر متراجعًا بظهره، وهو يحمل بيده المصباح ويقول:

- "أبو حميد.. والنبي ابعتلي أول جثة.. بس حاسب وانت نازل على السلالم".

نظر (محمد) إلى (سيد) في الظلام الدامس الذي عمّ بسبب أخذ (هادي) المصباح، وقد فاق من شروده وهو يقول:

- "يالا بينا ننزل أول جثة".

هز (سيد) رأسه بخوف علامة الموافقة، ولكن عينيه حملتا شرودًا عجيبًا، وكأنه لا يدري ما يفعل.

خطوات تكسر الأغصان وورق الأشجار الذابل تتصاعد بجانبهما!! توقف (سيد) وهو يرهف السمع ويقول:

- "(محمد)، أنا سامع أصوات كأن حد جاي نحيتنا"..

توقف (محمد) هو الآخر ليرهف السمع، وبالفعل سمع مثله أصوات أغصان تتحطم؛ فنادى الاثنان على (هادي) الذي صعد

بسرعة، وضوء المصباح يبدد الظلام، نظر حولهم حتى وقعت عيناه على خيال شخص يقترب بحذر منهم، فابتسم قائلاً بسخرية وهو يعود للدخول للمقبرة بظهره:

- "ده الواد (علي الطيب).. تلاقيه جه لما شاف النور"..

بالفعل اقترب (علي) بمشيته البطيئة منهم وهو ينظر للجثث على الأرض.. اقترب منهم قليلاً ثم جلس متربعًا على الأرض قريبًا من الجثث، وهو ينظر لها متأملاً إياها.

- "الواد ده مش هايفضحنا يا (هادي)؟"

قالها (محمد) بصوت خافض فجاءه صوت (هادي) من داخل المقبرة وهو يقول بنفاد صبر:

- "ما تخافش.. ده يا ما شاف كتير، المهم ناولني أول حتة بقى".

بالفعل غَطَّى (محمد) أول كفن على قدر ما استطاع، وقد كان كفن الشاب الذي يحمل العلبة، ثم سحبه على الأرض وساعده (سيد) بيد مهزوزة على رفعه عن الأرض قليلاً، لينزل (محمد) بظهره الدرج لأسفل، ويلتقطه (هادي) من داخل فتحة القبر.

للصدق والأمانة كانت عين (علي) غريبة، يمكنك وأنت تسير في الشارع أن تُقابل متخلِّفًا عقليًّا أو مجذوبًا أو مجنونًا أو مصابًا بالفصام أو جنون العظمة، يمكنك أن تميز العيون، فتعرف أن هذا

المجنون لا يدري ما يفعله بحق، وأن هذا المجنون مغيَّب الوعي، وأن هذا قد فقد منطقية التفكير..

عين (علي) كانت تتحرك بطريقة توحي لك بأنه يمتلك وعيًا ناضجًا، ويفهم ما يحدث، ويفهم الفرق بين الموت والحياة، وبين الصواب والخطأ.

كانت عيناه في تلك اللحظة مركِّزة على الجثة ذات الذراع الأيمن، برغم أن الإضاءة تُعتبر منعدمة إلا من ضوء بسيط يخرج من المصباح داخل القبر، إلا أن (علي) تركزت عيناه على ذراع الجثة الأيمن.. الأصابع تحركت!!

صعد هنا (سيد) و(محمد)، فنظر (علي) لهما وأشار بيده بهدوء ناحية الجثة، فنظر الاثنان بعدم فهم له، ثم نظرا للجثة فوجدا الأصابع تتحرك حركة صغيرة غير واضحة ثم تخمد؟!! شهق (محمد)، وتراجع (سيد)، فصعد (هادي) بسرعة وهو يحمل المصباح وينظر لهما مستفسرًا، فقال (سيد) وقد انفلتت أعصابه:

- "الـ.. الـ.. الجثة حركت إيديها!! الجثة حركت إيديها!!"

وأخذ يبلع ريقه بعد تلك العبارة ويتنفس بسرعة شديدة، فنظر (هادي) لـ (محمد) مستفسرًا، فقال الأخير وهو يشير للجثة برعب:

- "الجثة حركت صوابعها يا (هادي)".

اقترب (هادي) من الجثة ونظر لها متفحصًا، ثم ركلها بقدمه عدة مرات، ونظر بعدها لهما قائلاً بعصبية:

- "أهو يا سيدي.. الجثة لا بتتحرك ولا حاجة، أكيد كانت الجثة بترتخي بعد ما بتتصلب الأول، عادي يا جماعة.. الكلام ده شوفناه كتير.. المهم يالا بينا بسرعة"..

قالها وهو يعود للنزول مجددًا والآخران يتبعانه.. لكن عين (علي) ظلت على يد الجثة، ظلت متعلقة بها، ظلت مركَّزة بشدة على أصابعها.. وبالفعل تحركت مرة أخرى!!

***

obeikan.com

الفصل الثامن

سمعت (داليا) أصوات طرقات على باب الغرفة، فتوقفت عن تكملة بقية الحكاية مع شقيقتها، انفتح الباب فظهر خلفه شقيقهما الصغير ينظر لهما بحذر وخجل ويتجه ناحية (داليا)، ثم يصعد على الفراش ويجلس بين يديها ويقرب فمه من أذنها قائلاً لها:

- "انتي زعلانة ليه يا (داليا)؟"

ضحكت (داليا) من حنان شقيقها، فاحتضنته وهي تقول له:

- "لا يا حبيبي أنا مش زعلانة خلاص.. كنت تعبانة شوية ودلوقت بقيت زي الحصان.. ولو مش مصدق تعالى أورِّيك".

أمسكته ورفعته للأعلى ثم أنزلته على الفراش وأخذت تداعبه وهو يضحك، حتى سمعت صوت شقيقتها (دعاء) تقول:

- "أيوه.. خلِّيكم كده علشان آخد صورة ليكي وانتي شبه أُمِّنا الغولة بشعرك المنكوش ده"..

نظرت لها سريعًا فوجدتها تُمسك هاتفها المحمول وهي تلتقط لها صورة، فرفعت يديها أمام وجهها يمرح كي لا تُظهر تفاصيل ملامحها، في حين التقطت (دعاء) أكثر من صورة محاولة أن تقترب من وجهها بعناد ومرح طفولي، و(داليا) تحاول الهروب من كاميرا الهاتف المحمول.

هدأت (دعاء) وأخذت تُقلب في الصور التي التقطتها، في حين جلست (داليا) وأكملت مداعبتها لشقيقها الأصغر.

- "(داليا).. عايزاكي هنا بسرعة تشوفي حاجة!!"

نطقتها (دعاء) بصوت جاد وهي ما زالت تنظر لهاتفها، فنظرت لها (داليا) متسائلة؛ فرددت (دعاء) نفس العبارة، مما جعل الأولى تنهض وتنزل من على الفراش وتقترب منها.

أعطت (دعاء) الهاتف المحمول لها وقد عقدت حاجبيها من الدهشة، مما جعل (داليا) تنظر بسرعة لشاشة الهاتف.. صورها هي وشقيقها على الفراش، ما هذا الذي ظهر على يسار الصورة؟ لون أسود شفاف!!

لون أسود شفاف له كتلة قريب من وجه (داليا).. باقي الصور تظهر بها نفس الكتلة السوداء الشفافة ولكن من لقطات مختلفة.. إحدى الصور كانت قريبة من رأس (داليا)، وبالتالي من الكتلة السوداء الشفافة.. الكتلة السوداء تتخذ شكلاً أقرب إلى الرأس!!

رفعت (داليا) عينيها لشقيقتها مندهشة!!

***

وضعت (دينا) السماعة وهي تُريح رأسها على ظهر المقعد، هل سيقوم شقيقها الوحيد بإحضار المحامي كما طلبت؟ هو قال لها إنه كان يتحدث مع زوجها قبل موته بليلتين عن هذا الموضوع،

وأنه كان يخبئ لها مفاجأة الميراث، فجأة انتبهت لصوت جرس هاتفها يأتي من غرفة النوم، نهضت من على المقعد واتجهت إلى غرفة النوم وهي تبحث عن الهاتف حتى وجدته على (التسريحة)، أمسكته وهي تتطلع إلى شاشته!! اسم المتصل هو (حبيبي)!! إنه الاسم الذي سجلت به رقم هاتف زوجها المتوفى!! أغمضت عينيها وفتحتهما.. الهاتف المحمول يرن.. ولكنها نزعت شريحة الاتصال من هاتف زوجها بعد دفنه أمس!! الهاتف ما زال يرن.. أمسكته بفزع وضغطت زر الرد.. ووضعت الهاتف على أذنها بتردد.. لا صوت... قالت: "ألو".. ولا مجيب، كانت تنظر في تلك اللحظة أمامها في المرآة والهاتف على أذنها.. ولكنها أسقطت الهاتف مما رأت.

وجه من الدخان يظهر لها في المرآة!! وجه بملامح واضحة مرسومة لرجل أفطس الأنف ولحيته كبيرة واضحة، ويبدو من رأسه أنه أصلع، اقتربت أكثر من المرآة وهي تتأمل ملامح الوجه.. وشفتاها تردد كلمة ظلت ترددها إلى أن خرجت من فمها بصوت مسموع وهي تقول: "النصف ميت"...

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

انتهى (هادي) من إغلاق باب القبر بالقفل وحوله (سيد) و(محمد) صامتين، وهما يريانه يُمسك الكفن الثالث الذي تركه للنهاية.. يحمله بصعوبة ويفشل، ثم يعود لمحاولة حمله فيفشل، فيقرر أن يجره خلفه، وبالفعل حمل المصباح بيده اليسرى وبيده اليمنى أخذ يجر الكفن الثالث الذي يحمل الجثة المقطعة أشلاء.

الظلام يحيط بمكان القبر، و(علي) ما زال جالسًا، و(محمد) و(سيد) يسيران خلف (هادي) كي يلحقا بضوء مصباحه..

- "هو احنا هانسيب (علي) في الضلمة لوحده؟"

قالها (سيد) وهو ينظر خلفه للظلام محاولاً أن يرى (علي) الجالس، فرد عليه (هادي) بلا مبالاة:

- "ما تخافش.. هوَّ متعوِّد على كده".

ظل الجميع يسير بلا صوت حتى مرت دقائق وخرجوا من منطقة المقابر وقد اقتربوا من السيارة... فتوقف (هادي) فجأة وهو ينظر إلى سيارة (hummer) سوداء ضخمة تقف، نظر للباقيين وقال:

- "طب امشوا انتوا دلوقت علشان الضيوف اللي أنا مستنيهم وصلوا ومش هاينفع أتأخر عليهم".

نظرا له باستغراب.. فلم يعطِهما الفرصة وعاد أدراجه وهو يجر الكفن خلفه ويقول قبل أن يبتعد:

- "اتصل بِيَّا بكرة يا (محمد) علشان نتفق على حبة حاجات.. ماشي؟"

قالها (هادي) وهو يبتعد هو والصباح، في حين أن (سيد) نظر إلى (محمد) وهو يقول له:

- "هو ما له بص على العربية الواقفة هناك دي وجري ليه؟ ومين الناس اللي هو مستنِّيهم؟"

- "هاقولك.. بس تهدى وما تسألش أسئلة"..

اقترب من أذن (سيد) وهو يقول له كلمات بصوت خافض، فاتسعت عينا (سيد) وانفتح فمه في رهبة وهو يشهق بصوت عال...

***

انتهى (هادي) من دفن الأشلاء في التراب، ثم أخذ ينفض يديه وأخذ الرفش معه، واتجه متجاوزًا الأشجار الكثيفة، وسار حتى وصل إلى غرفته الصغيرة، ولكنه بدلاً من أن يفتح باب الغرفة طرق عليها من الخارج وكأنه يستأذن في الدخول، فسمع من الداخل صوتًا جهوريًا يقول:

- "ادخل يا (هادي)"..

انفتح الباب فدخل (هادي) وهو ينظر إلى الرجل الجالس على أحد المقاعد يرتدي بِزَّة رمادية وربطة عنق أنيقة ونظارة طبية ذهبية الإطار ويفوح منه عطر راقٍ.. نظر (هادي) لمن فتح له الباب فوجده شابًّا ضخم الجثة، يرتدي بزة سوداء، وعلى وجهه نظرة متصلِّبة، وبجانبه

شاب آخر يحمل نفس الصفات يقف ناظرًا إليه بوجه جامد، أما بجانب الرجل الذي يجلس فقد وقف شاب آخر قليل البنية عن الشابين الآخرين، لكن ملامحه تحمل شراسة تفوق شراسة ملامحهما..

- "(طاهر) باشا.. والله نوَّرتنا".

قالها (هادي) متلهِّفًا، فابتسم الرجل الجالس بمودة وهو ينهض ويقترب من (هادي) الذي نظر للأرض في رعب من هيبة الرجل.. اقترب وربت على كتفه بمودة وهو يقول:

- "اتصلت بيَّا النهاردة وبلَّغتني إن فيه أمانة.. ها.. قولي سنَّها كام؟"

ابتسم (هادي) وهو يبلع ريقه قائلاً:

- "لا يا باشا ما أقولَّكش على الحلاوة ولا الجمال ولا الشعر.. سنَّها مش أكتر من 25 سنة، حاجة تقول للقمر قوم وأنا أقعد مطرحك.. لا مرض ولا عيب فيها، ولسه داخلة الليلة الساعة 8 ونص؛ يعني ساعة ما كلمت حضرتك بالظبط".

زادت ابتسامة الرجل وهو يعود مرة أخرى للجلوس على المقعد ويقول بصوته الجهوري القوي:

- "لو عجبتني هازودك ألف جنيه فوق ما احنا متفقين".

- "يا باشا خيرك سابق، أهم حاجة عندي إنك تنبسط وتتمتع".

- "إدِّيلُه الفلوس يا (أحمد)".

أخرج أحد الشابين الواقفين بجانب الباب من جيب بذلته مبلغًا وعدَّه جيدًا ليتأكد أنه ثلاثة آلاف جنيه، ثم أعطاها لـ (هادي) الذي أخذها بلهفة وهو يقول لـ (طاهر):

- "طب يا باشا أنا رايح أجيب الأمانة وجاي على طول"..

كاد (هادي) أن يغادر.. إلا أن صوت (طاهر) ارتفع وهو يأمر الاثنين الواقفين عند الباب بالذهاب معه ومساعدته.

خرج (هادي) حاملاً مصباحه يتلفَّت حوله وهو يسير وبجانبه الحارسان الشخصيان لـ (طاهر) الرجل الغريب الذي ينتظره في غرفته.. المصباح يبدد الظلام أمامهم والحارسان بدأت تظهر الرهبة عليهما من صفوف المقابر التي يسيرون بينها، الحارسان ينظران حولهما وتحت أرجلهما وأصوات تحطم الأغصان الجافة تتصاعد من موضع أقدامهما، ونسمة هواء بسيطة تحمل رائحة التراب تعبر من خلالهم.

توقف (هادي) عند إحدى البوابات الخشبية لحوش صغير، وبجانب الباب وُضعت لافتة رخامية عليها اسم عائلة ما لا يظهر في الظلام، أخرج (هادي) من جيبه سلسلة مفاتيح ضخمة، وأخذ يتفحص جيدًا على ضوء المصباح الذي يحمله المفاتيح وهو يجرب بعضها على مزلاج الباب، حتى استطاع مفتاح من تلك السلسلة أن يدور داخل المزلاج ويسمع الجميع التكة التي تُشير إلى انفتاح الباب.

تقدمهما (هادي) لداخل الحوش الصغير وتأخر الشابان وهما يقفان في الخارج، وضوء مصباح (هادي) يأتيهما من الداخل.. ظل الاثنان ينظران لبعضهما بقلق، فهذا الموقف يضطران لخوضه كل مدة أو يضطران لمشاهدته.. تظل الكوابيس تطاردهما يومًا أو اثنين أو حتى أسبوع، لكن في النهاية المبالغ الهائلة التي يحصلان عليها من العمل مع هذا الرجل المدعو (طاهر) تجعلهما يضطران إلى نسيان كل هذا، ينظران لبعضهما، ولكن تلك المرة النظرة تختلف، نظرة تحمل الاشمئزاز والقبح والخجل مما يحدث، نظرة تحمل لمحة غريبة..

كأن كلاً منهما يتمنى من الثاني أن يقول له هيا بنا نذهب من هنا، أو يُجبره على الخروج من تلك المقابر والتخلي عن الخدمة عند (طاهر) باشا والتخلي بالتالي عن المبالغ الضخمة التي تؤمن لهما مستقبلهما ومستقبل عائلتيهما، ترى لو علمت عائلتيهما بما يقومان بفعله الآن ماذا سيحدث؟ كيف سينظر الناس لهما؟

- "إيه يا رجالة!! انتوا خايفين ولا إيه؟ ما تيجوا تساعدوني"..

انتفض الاثنان ونفشا صدريهما وهما يدخلان الحوش وينظران لمصدر الإضاءة، (هادي) يقف والتراب يغطي وجهه وملابسه ويده ولكنه يبستم بسخرية!! وتحت قدميه الكفن الأبيض، جزء منه مفتوح يظهر منه رأس فتاة مغمضة العينين.. جميلة.. وهناك طرحة بيضاء ملقاة بجانب الرأس تدل على أن (هادي) خلعها عن رأس الفتاة الآن.

مرت لحظة والشابان ينظران لجثة الفتاة التي ترقد في وداعة وقد شعر أولهما بانقباض في قلبه بشبه الألم من مظهرها البريء الطاهر،

أما الثاني فقد تعلقت عيناه بالطرحة البيضاء الملقاة بجانب رأسها وهو يتخيل تلك الطرحة عندما كانت تُغطي رأسها، قبل أن يظهر شعرها الناعم المعقوص بهذا الشكل عندما انتزعها (هادي).

أعاد (هادي) إغلاق الكفن بعد أن تأكد من وجه الفتاة، ولكن الكفن لم يُغلق جيدًا بالطبع، ثم بدأ برفع جسدها برفق، فجرى الشابان ليساعداه في حملها وهو يقول بسخرية:

- "بالرَّاحة يا جماعة على البنية، دي الأموات بتحس برضه وبتتوجع"..

***

أزاح (هادي) باب غرفته ببطء وحذر كي لا تسقط الفتاة منه والشابان يساعدانه.

دخل (هادي) بجثة الفتاة ووضعها على الأرض بحرص، نظر إلى (طاهر) الذي جلس على المقعد كما هو وفي يده مشروب يشربه باستمتاع، وقد فك ربطة عنقه وخلع سترته واضعًا قدمًا على الأخرى.

فراش (هادي) نفسه فرش عليه غطاء ورديًّا نظيفًا يغطي الفراش والمخدَّات... أما على المنضدة فوُضعت زجاجتان لم يميز (هادي) نوعهما، لكنه توقع أنه نوع غالٍ من الخمور، هذا كله غير الرائحة العطرية التي انتشرت في الغرفة لتُخفي رائحتها المكتومة الدائمة.

نهض (طاهر) وهو ينظر لجثة الفتاة والجميع يزيح له الطريق، وقف عندها يتأملها لدقيقة كاملة.

كاد (هادي) يقسم أنه سمع صوت ابتلاع (طاهر) لريقه أكثر من مرة وهو يتأمل ملامح الفتاة.. فجأة رفع (طاهر) رأسه عن وجه الجثة ونظر إلى أحد حراسه وقال له:

- "إدِّيله ألف جنيه"..

ابتسم (هادي) وهو ينظر للشاب الذي أخرج من جيبه النقود وعد منها ألف جنيه وأعطاها له..

- "تؤمرني بحاجة تاني يا باشا؟"

هز (طاهر) رأسه نافيًا، فتراجع بظهره وهو يقول:

- "بعد ما تخلَّص أنا جنبك هنا.. ابعت لي أي حد من رجالتك وأنا أجيلك على طول"..

فتح (هادي) الباب وخرج والرجال الثلاثة يتبعونه للخارج، وآخرهم يغلق باب الغرفة، ويقف ثلاثتهم قريبين من الغرفة على مسافة مناسبة.

خلف الغرفة من الظلام المحيط بالمقابر تقدم (علي الطيب) يسير بخطى متأنية هادئة وعيناه تحمل تعبير الخواء، وهو ينظر إلى النافذة المطلة على غرفة (هادي).

تلك النافذة التي تُطل على المقابر، أخذ يقترب منها والظلام يحيط به، الظلام الذي لا يخشاه، ولِمَ يخشاه؟ الظلام لا يعني له سوى الهدوء والسكينة والراحة، ربما ضايقه قليلاً ما يراه عندما يحل

الظلام، ولكنه تعود عليه، حتى الآن عندما يقترب من الغرفة في وسط الظلام، هو يتوقع ما سيراه، اقترب من النافذة أكثر حتى أصبح يرى تفاصيل الغرفة، إنه هو!!

نفس الرجل الذي يدعوه الجميع بـ (طاهر) باشا يقف في الغرفة وحيدًا يفك أزرار قميصه، يخلعه حتى يظهر جسده العاري، يجلس على ركبتيه ويحمل.. يحمل الفتاة!! إذن فالدور اليوم على تلك الفتاة، فتيات وفتيات ونساء ونساء و(طاهر) باشا وغيره وغيره، ولكن تلك الفتاة جميلة بحق.

ابتسم (علي) وهو يتخيل تلك الفتاة وهي تفتح عينيها مثلاً وتنظر له بعطف وتضمه إلى صدرها، عندما كان صغيرًا كان الأطفال الآخرون لهم دائمًا من يضمهم إلى صدره وينامون بين يديه، أما هو فينام على التراب كل ليلة ويحلم بأحدهم يضمه إلى صدره، لم يعرف هذا الشعور من قبل، الجميع يشمئز منه وهو يعلم هذا، وهو يشمئز من الجميع ولكنهم لا يعلمون هذا، ولكنه لم يفهم شعور (طاهر) باشا هذا وهو يحمل الفتاة على يديه ويضعها على الفراش.

كيف يفعل هذا والفتاة ميتة؟ كيف يمزق رداءها الأبيض الناصع ليُظهر جسدها من تحته، لماذا يتأمله بهذا الشكل، المسكينة لن تقوم بأي رد فعل.. يده تتحسسها وهو يقبلها على شفتيها، لماذا يفعل ذلك؟ لماذا يعطيه (هادي) جسدها؟ هل هو ملك لـ (هادي)؟ هو يعرف أن الفتاة لا ترضى عن هذا، يشعر بذلك داخله مثلما شعر بأجساد كثيرة.

الفتاة تصرخ من داخلها.. تبكي.. تتعذب.. عظامها تئن، و(طاهر) باشا يهتك شرف جسدها.

يطلق المغتصب أصوات استمتاعه من حنجرته وجسده ينتفض والفتاة ما زالت تئن من داخلها.. يكاد يسمع توسلاتها، يكاد يشعر بأنفاسها الساخنة وهي تشهق من الألم، يكاد يسمع صرختها..

يكاد يراها وهي تدعو.. تدعو ربها أن ينتقم لها من (هادي) و(طاهر)، هل يا ترى تدعو عليه؟ لا يسمعها تدعو عليه بعد، ولكنه ينظر الآن لما يحدث ولا يفعل شيئًا.. هنا وُضعت يد قوية على كتفه فنظر خلفه بسرعة.

(هادي) يقف مبتسمًا له بسخرية وهو يقول بصوت خافض:

- "بتتفرج على إيه يا (علي)؟!"

لم يجبه وهو ينظر إليه؛ فأمسك (هادي) بيده برفق وسار وهو يجره معه حتى ابتعدا قليلاً عن غرفة هذا الأخير، وجلس (هادي) على الأرض مستندًا إلى جدار أحد الأحواش وهو يُجلس (علي) معه.

مرت دقائق صمت و(هادي) ينظر للسماء برأسه المرتكنة على الحائط، و(علي) صامت بطبعه، حتى قال (هادي) بصوت مرتخٍ:

- "أنا عارف إنك فاهم كل حاجة يا (علي)".

لم يبدُ على (علي) أنه سمعه أساسًا وهو مرتكن على الحائط ينظر أمامه، فأكمل (هادي) عبارته:

- "انت فاهم كل حاجة، وعارف أنا باعمل إيه، وعارف إيه اللي بيحصل دلوقت في الأوضة بتاعتي".

صمتُ (علي) لم ينجرح حتى الآن...

- "عارف يا (علي) إني باعتبرك أخويا!! من أول يوم لقيناك وأنا بقول عليك أخويا بيني وبين نفسي، مستحيل تلاقي حد حبك قد ما أنا حبيتك، أو حد يخاف عليك زي ما بخاف عليك، الناس ممكن يعطفوا عليك ويدوك لقمة عيش منتِّنة زيادة عندهم، حبة مية علشان تشرب وبعديها يكسروا الكوباية علشان قرفانين منك، بيعطفوا عليك علشان يتقال عليهم إن عندهم قلب، يرموا ليك قميص مقطع بدل ما يعملوه فوطة تنضيف، حبة لبن حامضين بدل ما يرموهم في الزبالة، كل ده وانت بعيد عنهم، ولو قربت منهم تاخد بالجزمة على دماغك، عمرك ياض كان نفسك حد يخدك في حضنه؟"

نظر له (علي) ببطء..

- "مش قولت لك أنا أخوك وحاسس بيك، أنا كمان نفسي حد ياخدني في حضنه، نفسي حد ما يقرفش مني، أنا وانت زي بعض يا (علي)، أنا وانت الناس بيعاملونا وحش، الوحيدين اللي عمرهم ما قرفوا مننا ولا زعلوا لما نقرب منهم هما الأموات.. الجثث.. عمرك قربت من جثة يا (علي) وقالتلك لا؟ عمر جثة اشتكت إنك حضنتها؟"

عين (علي) ضاقت وهو يشير بيده باتجاه غرفة (هادي)، فضحك الأخير قائلاً:

- "(طاهر) باشا.. هاهاهاهاهاها.. انت عارف كويس هو بيعمل إيه، إيه!! أول مرة تسأل مع إنك ياما شوفت وسكت، مش قولت لك أنا وانت زي بعض مفيش فرق، أنا باسلِّمه الجثة ينام معاها وأبقى كده وسخ، وانت بتشوف بيعمل إيه وتسكت، لا أنا قادر أبطل اللي باعمله ولا انت هاتقدر تعمل حاجة"..

خفض (علي) يده فقال (هادي):

- "أقول لك على سر رياض يا (علي)؟"..

لم يبدُ على (علي) الاهتمام، ولكن (هادي) أكمل وهو يغمض عينيه:

- "أنا ما بعرفش أنام.. لازم أشرب إزازة بيرة وآخد كام حباية (ترامادول) علشان النوم يهوِّب ناحيتي.. كل ما أنام أحلم بحلم واحد يا جدع.. إن يوم القيامة بدأ، وأنا واقف وسط ناس كتير قوي، وواحد يقرب مني من وسط الناس، يقرب مني أكتر، الناس توسع ليه، راجل ملوش وش، وشه ممسوح، أسأله وأنا باعيَّط: إيه اللي بيحصل؟ يرد عليَّ يقولي: كل الناس اللي واقفين دول ذنبهم في رقبتك، وهايستنوا معاك للآخر علشان ربنا يجيبلهم حقهم منك"..

صمت (هادي) بعد آخر عبارة طويلاً، فنظر له (علي) ليجد الدموع تهبط من عينيه بلا صوت.. من وسط الدموع قال:

- "أنا عارف إني لما أموت جثتي هاتتباع، وتربي هايبجي مكاني يبيعها ويقبض تمنها، ساعتها بس هاعرف إحساس الجتت اللي أنا بِعْتَها إيه،

يا ترى حقيقي بيحسوا بوجع؟ يا ترى زي ما سمعنا إنهم بيتألّموا، لو كانوا كده فعلاً فتبقى البت اللي جوه دي بتصرخ من الوجع.. البت دي ماتت النهاردة من الحزن على أبوها لما عرفت إنه مات في حادثة، دنيا تضحَّك يا (علي).. أبوها يموت الأول ومع ذلك لسه ما اندفنش وهي تموت بعديه وتندفن الأول، بكره جثته هاتيجي الصبح علشان تنحط جنب بنته، الناس هاتعمل رخامة عليها اسم الأب (محمد عبد المعطي) ورخامة جنبها عليها اسم البت (سمية محمد عبد المعطي)، الاتنين قدرهم يكونوا مع بعض.. يعيشوا سوا ويموتوا سوا"..

***

ربما كان هذا السائق له قصة ما هو الآخر ولكننا لا نعلمها، إنه عم (محمد) الرجل الطيب الهادئ الذي لا يضع بالاً لشيء ما في حياته، يصلي الفروض في أوقاتها ويتطوع لصوم أيام كثيرة من كل شهر، رزقه الله بابنته الوحيدة (سمية) نور عينيه والتي يحبها أكثر من نفسه..

***

الفصل التاسع

صالون منزل (داليا) تجلس به الفتاتان (داليا) و(دعاء) أمام الحاسب الآلي.. هناك سلك رفيع يربط هاتف (دعاء) بالحاسب الآلي لنقل الصور التي صورتها الأخيرة إليه، بعد دقيقة فتحت (دعاء) أول الصور التي تظهر بها الكتلة السوداء، قربتها قليلاً وقد ظهرت تفاصيلها..

- "ده مش عيب كاميرا زي ما قولتلك يا (داليا)، اللون الأسود ده كان موجود جنبك لحظة التصوير".

كانت الفتاتان تجلسان على مقعدين أمام منضدة الحاسب الآلي، فأراحت (داليا) ظهرها على ظهر المقعد وهي صامتة، وشقيقتها تقول مقلِّبة الصور:

- "إيه حكاية اللون الأسود ده يا بت؟ ده كل ما ألقط ليكي صورة قريبة من وشك ألاقي اللون بيكبر وكأنه موجود؟"

لما طال صمت (داليا) نظرت لها شقيقتها فوجدت عينيها تتسعان ببطء كأنها تتذكر شيئًا، وتنفرج شفتاها وكأنها ستقول شيئًا..

- "تعالي معايا.. عايزة أكمِّلك حكاية (حاتم)"..

- "وده وقته يا (داليا)؟ مش تخلِّينا في الصورة!!"

- "اسمعيني بس للآخر وخلّيني أكمّلك حكاية (حاتم)".

نهضت (داليا) من مقعدها وهي تجذب (دعاء) من يدها والأخيرة تنهض مندهشة وتسير وراءها، تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى.

عندما دخلت الشقيقتان الغرفة أمسكت (داليا) بهاتفها المحمول وطلبت رقم (حاتم) مرة أخرى ولكنه كان مغلقًا، جلست على الفراش وعيناها ساهمتان، فلكزتها (دعاء) تستفسر منها عن السبب الذي من أجله تُصر على أن تكمل لها قصة (حاتم).

نظرت لها قليلاً بنفس الوجوم ثم قالت:

- "أنا لازم أكمّلك حكاية (حاتم)".

- "وليه لازم دلوقت؟"

- "هاتعرفي ساعتها"..

جلست (دعاء) هي الأخرى على طرف الفراش وانتظرت كي تكمل (داليا) الحكاية..

((تغير (حاتم) جدًّا بعد آخر محادثة، نعم تغير (حاتم) تمامًا.. ظهر السواد تحت عينيه، وأصبح يشرد كثيرًا، اعتذرت له (داليا) أكثر من مرة عن طريقتها في الكلام، وقالت إنها كانت تحاول أن تبث فيه روح التحدي، ولكنه كان يبتسم لها ابتسامة صفراء ويقول لها عبارة مشهور (أنا قبلت التحدي).. شعرت بالغضب من تصرفها ولامت نفسها ليالٍ كثيرة على ما فعلته، ثم بدأت تراقب تصرفاته وخاصة نمو

تلك الهالات السوداء التي بدأت تتكون تحت عينيه، والتي تعني أنه يسهر كثيرًا، مرت أيام تجده فيها يجلس وحيدًا خارج قاعة المحاضرات ينظر شاردًا، فتجلس بجانبه ولكنه لم يكن ينتبه لها، كانت تسأل نفسها كثيرًا ما الذي يفكر فيه ويجعله لا يشعر بها حتى عندما تجلس بجانبه.

قل الحديث بينهما، واعتقدت أنه يحاول معاقبتها على ما فعلته معه في حديثها السابق، ولكن هذا الاعتقاد سرعان ما زال لأسباب كثيرة، منها ذلك اليوم الذي وجدته يجلس فيه على الأعشاب بجانب قاعات المحاضرات ويسند ظهره لشجرة ما وينظر أمامه.

حاولت أن تكون مرحة، فاقتربت من وراء ظهره وأخذت تسير بخطوات بلا صوت كي يتفاجأ، ولكنها توقفت عند الشجرة خلفه، وأمسكت بالكتب التي وضعها بجانبه بجوار كشكول المحاضرات وكتاب آخر في الشعر النبطي، أمسكت الكتب لتقرأ أسماءها بدهشة.

(الكوميديا الإلهية).. (فلسفة الموت).. (نصوص من كتاب الموتى).. انتبه لها (حاتم)، فسألته عن سر تلك الكتب التي لم يكن يقرأ في أنواعها قديمًا، كانت إجابته أنه يقرأ تلك الكتب لتفيده في روايته الجديدة!

قلّ كلام (حاتم) وقلّ مرحه، وأصبح أكثر شرودًا وأكثر ميلاً للعزلة، ومر شهر وهو على تلك الحالة، حتى وجدته في المقهى الذي تعودا الجلوس عليه يجلس منشغلاً بالكتابة في شيء ما، وأوراق كثيرة مسودة بالكلمات موضوعة أمامه، اقتربت وجلست وأمسكت الورق

فأجفل، ولكنها قلبت في الورق سريعًا حتى وقعت عيناها على اسم الرواية في صفحة منفصلة.. كان اسم الرواية هو (نصف ميت)!!

- "اسم غريب!!"

- "شوية"..

- "بتتكلم عن إيه القصة دي يا حبيبي؟"

- "هاتعرفي لما تخلص كلها".

- "واشمعنى المرة دي مش عايز تخليني أقراها إلا لما تخلص؟"

سكت (حاتم) ولم يرد، لسكوته وقع مفزع عليها، هل بدأ يكرهها؟ أم أصبح الآن لا يريد لها أن تطلع على إنتاجه الأدبي بعد أن كانت أول من يعلق على قصصه، أم إن هناك سرًّا يخفيه في تلك الرواية؟

استمر الحال هكذا حتى جاء ذلك اليوم، وكانت تتذكره جيدًا جدًّا.. (الأربعاء) 2/12.. كانت تجلس هي و(عفاف) وباقي الشلة في غرفتها حوالي الساعة الثامنة مساء، يتحدثن عن صديقتهن التي ستتم خطبتها بعد شهر من الآن على مهندس شاب، أثناء الحديث تلقت اتصالاً على هاتفها المحمول، وسمعت على الطرف الآخر صوت زميلتها في الدفعة (دلال) تقول بلهفة:

- "أنا واقفة قريب من مبنى الأولاد في المدينة الجامعية"..

- "طب عايزة إيه؟"

- "شوفت عربية إسعاف جاية وبينقلوا ليها حد؛ فسألت واحد عرفته من الواقفين، طلع اللي بينقلوه ده (حاتم) يا (داليا)!!"

انطلقت صرخة من (داليا)، وبدون تفكير قفزت من الفراش، وبالرغم من أنها كانت تجلس مع زميلاتها إلا أنها كانت بملابس تصلح للخروج، ولكنها بدون طرحة تضعها على شعرها، قفزت وخرجت خارج الغرفة بدون أن تضع طرحتها وصديقاتها يجرين وراءها مهرولين، وإحداهن تحمل طرحتها وتحاول أن تلحق بها.

كان منظرًا غريبًا وهي تجري حتى خرجت من المبنى ذاهبة باتجاه مبيت الرجال لتسأل عما يحدث.. وكانت الإجابة غريبة من أحد زملائه:

- "احنا سمعنا خبط جوه الأوضة وصوت حد بيزوم، قعدنا نخبط على (حاتم) وننادي عليه هو أو (علاء) لكن محدش بيرد والخبط شغال، كسرنا الباب لقينا (حاتم) بيتشنج ويتنفض، مسكناه وحاولنا نهديه لكن حركاته كانت شديدة، لغاية ما جه واحد زميلنا قال لنا حاولوا تخلوه ينام على السرير بسرعة ومحدش يوقف حركاته.. مكنَّاش عارفين ليه، بس فضلنا كده وواحد اتصل بالإسعاف، وفضلنا كده لغاية ما هدي وفاق وكان شكله تعبان قوي، لما جت الإسعاف أخدناه ونزلناه فيها وكان (علاء) جه من بره قام ركب معاه، وفيه ناس ركبوا عربية ومشيوا ورا الإسعاف علشان يتابعوه"..

أخذت (داليا) رقم هاتف (علاء) كي تسأله عن عنوان المستشفى، ثم أخذت (عفاف) بعد أن ارتدت الطرحة وركبا تاكسيًا إلى المستشفى، وهناك سمعت من الطبيب الذي تابع حالته لساعات أغرب تشخيص:

- "الأستاذ حاتم كان عنده نوبة صرع شديدة!!!"

- "طب والصرع ده جاله ليه؟"

- "لا دلوقت مش هاعرف أقول السبب الحقيقي؛ لأنه ممكن يكون وراثي أو عدوى أو مشاكل في المخ، لكن هو لما يتابع معانا في المستشفى كام يوم هانتأكد كويس، احنا عملنا رسم مخ واتأكدنا من وجود الصرع، لكن الأيام الجاية زي ما قلت لكم هانعرف أكتر"..

كانت ليلة سوداء على (داليا) التي لم تنم، وظلت ساهرة وبجانبها (عفاف) بعدما عادتا للمدينة الجامعية، وقامتا بفعل المستحيل ليسمح لهما الأمن بالدخول بعد غلق الباب، وفي اليوم التالي من الصباح كانت (داليا) تقف أمام المستشفى تحاول الدخول في غير مواعيد الزيارة الرسمية لكنهم لم يسمحوا لها، انتظرت وحيدة خارج المستشفى حتى عطف عليها عمال بوابة الدخول عندما وجدوها تجلس وحيدة أمام الرصيف المقابل تنتظر مواعيد الزيارة، التي كانت ستبدأ من الساعة الواحدة ظهرًا؛ أي إنها كانت ستنتظر أربع ساعات أخرى غير الساعتين اللتين انتظرتهما في البداية.

أدخلوها واستطاعت أن تصل لقسم الأمراض العصبية وتدَّعي أنها شقيقة (حاتم) أمام الممرضات كي يتركنها تدخل.

عندما دخلت ووجدت (حاتم) شعرت برغبة كبيرة في أن تجري عليه وتقبل كل قطعة في جسده ثم تنام على صدره لتبكي.. ظلت تجلس بجانبه وهو نائم إلى أن مرت ثلاث ساعات وفتح عينيه ليجدها تجلس

بجانبه، تكلم بصوت خفيض معها وهي تنظر إليه بعينين حمراوين من كثرة البكاء...

- "إيه اللي جابك دلوقت يا مجنونة؟"

- "بحبك".

- "شكلك نَصَبْتي على إدارة المستشفى عشان تدخلي دلوقت"..

- "بحبك"..

ابتسم وهو ينظر لها ثم قال:

- "دلوقت مش هاينفع أخيّي عليكي كتير، كنت فاكر إن الحياة بقت طبيعية خلاص.. وخصوصًا إني كنت منتظم في الدوا وماشي على تعليمات الدكتور.. لكن برضه جت النوبة تاني!!"

- "ألف سلامة عليك يا حبيبي".

- "أنا باتعالج من الصرع من وأنا صغير يا (داليا)، بيقولوا عليه نشاط زايد في كهربة المخ، طبعًا أنا ما باعضِّش الناس والا باهوهو لما بتيجي النوبة، لكن بتبقى حبة رعشات كده وتروح لحالها، برغم إنها مجاتليش في الأربع سنين اللي فاتو غير كام مرة بس وكانت بسيطة، إلا إن الضغط العصبي اللي دخلت نفسي فيه هو اللي دخلني في نوبة".

- "أنا آسفة يا حبيبي إني زعلتك كده".

- "لا يا (داليا).. مش انتي اللي عملتي عليَّ ضغط نفسي، الضغط علشان باكتب في الرواية الجديدة بتاعتي وعايزها تكون أنجح رواية علشان أحقق نفسي بقى"..

- "تغور الرواية.. أنا عايزاك انت!"

نظر لعينيها طويلاً وقال وهو يبتسم لها:

- "انتي عارفة أنا عايز أنجح في مجال الكتابة ليه؟ علشان أشوف ابتسامتك الحلوة وأشوف في عنيكي نظرة فخر بحبيبك".

- "يا حبيبي أنا فخورة بيك في كل وقت.. انت مش محتاج إنك تتعب نفسك علشان تشوف ابتسامة في وشي أو فخر في عيني".

- "ما هو كمان علشان نتجوز يا (داليا)، وعلشان أنجح في الكتابة لازم أكون كاتب مشهور، وعلشان أكون كاتب مشهور لازم تكون الرواية تستحق، وعلشان الرواية تستحق يبقى..."

- "كفاية كلام يا حبيبي"..

ابتسم هنا (حاتم) وأراح رأسه ونظر لأعلى السقف ثم قال:

- "أنا لما النوبة بتجيلي فيه حاجات حواليَّا بتتحرك لوحدها!!"

ابتسمت (داليا) وطلبت منه إعادة العبارة فأعادها كما هي فقالت:

- "مش فاهمة حاجة"..

ابتسم أكثر وقال بدون أن ينظر لها:

- "زمان قوي افتكروا إني ملبوس من الجان، علشان ساعة ما تيجي النوبة تتحرك حاجات حواليَّا، بعد مدة لما اتأكدوا إني مش ملبوس وإن دي نوبات صرع محدِّش فهم ليه لما النوبة بتكون شديدة الحاجات اللي حواليَّا بتتحرك.."

-!!!!

- "د. أمجد فوزي جراح المخ والأعصاب اللي بيتابع حالتي في المنصورة قال إن دي حالة موجودة بره مصر، وإنه شاف زيَّها، وقال إن ده نشاط غير طبيعي للمخ عندي، وممكن يخلِّي حاجات حواليَّا تتحرك حركة خفيفة، وكانت نصايحه إني ما أحاولش أجهد نفسي أو أتعصب علشان النوبات ما ترجعش وترجع الحاجات تتحرك حواليَّا أثناء النوبة.. طبعًا الموضوع مش موضوع حاجات بتتحرك بس، دي حاجات تانية هابقى أحكيلك عليها بعدين".

ظلت (داليا) تنظر له بدهشة تحاول تفسير كلامه، لكنه نظر لها وزادت ابتسامته حتى ابتسمت هي الأخرى وصدرت منها ضحكة خافتة.

***

"رِجْعِتْلَك النوبة يا حبيبي تاني؟" قالت (دينا) تلك العبارة بصوتها الخافض الحاني، ورأس (حازم) على صدرها والعرق يملأ وجهه، وهو يتنفس بصوت عالٍ وصدره يعلو ويهبط، بعد دقيقة من ذلك

الوضع انتظم تنفسه؛ فأخذت (دينا) تمسح بيدها على رأسه وتمتد يدها لتمسح العرق من على وجهه بحنان، وهي تُقبل رأسه وهو بين ذراعيها، وتقول بصوت خافض: "تحب أغنيلك يا حبيبي؟" لم تتلق إجابة على سؤالها، ولكنها تعودت أن تغني له بعد نوبات الصرع التي تأتيه منذ أن تمت خطبتهما، تنحنحت ثم بدأت تتغنى بأغنية أم كلثوم التي يعشقها: "أمل حياتي.. يا حب غالي ما ينتهيش.. يا أحلى غنوة سمعها قلبي ولا تتنسيش.. خد عمري كله بس النهارده.. بس النهارده.. بس النهارده خليني أعيش.. خليني جنبك خليني في حضن قلبك خليني.. وسيبني أحلم سيبني.. وسيبني أحلم سيبني.. يا ريت زماني ما يصحِّنيش"..

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

انفتح باب غرفة (هادي)، وخرج (طاهر) وقد ارتدى قميصه على عجل وترك أزراره مفتوحة، وارتدى سرواله، وأخذ يخطو خطوات قليلة خارج الغرفة وهو يشم نسمات الليل باستمتاع وهي تصطدم بجبهته وتُنعشه، وحبات العرق التي تكونت على جبهته تختفي بالتدريج.. جرى نحوه حارسه الثالث وهو يقول له:

- "حاسب يا باشا لا تستهوى"..

أوقفه (طاهر) بإشارة من يده وهو يشتم الهواء من حوله ويبتسم، فظهر من بعيد (هادي) وهو يهرول حتى وصل له وقال بابتسامة مفتعلة:

- "يا رب تكون انبسطت يا باشا، أشيلها وأرجعها يا باشا؟"

هز (طاهر) رأسه بالنفي بسرعة وهو يقول:

- "لأ سيبها.. أنا داخل ليها تاني".

أدار ظهره لهم وقال وهو يتجه للغرفة مرة أخرى:

- "إدِّيله 500 جنيه كمان.. تسلم إيدك المرة دي يا (هادي)، البت شديدة قوي".

أخرج أحد الشباب من جيبه الخمسمائة جنيه وأعطاها لـ (هادي)، الذي أخذها وسار مرة أخرى عائدًا للمكان الذي كان يجلس فيه على الأرض، ولكنه لم يجد (علي) يجلس كما تركه.. لم يكن غريبًا عليه أن يختفي هكذا.. فربما ذهب ليتمشى مرة أخرى في المقابر. بالفعل كان (علي) يسير بين المقابر وهو ينظر حوله ويفكر، الليلة.. لقد تعلم العد بفطرته، تعلَّم أن يرى الليلة التي يتجمعون فيها، ثم يعدّ الليالي كالآتي، واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة، ثم يتجمعون مرة أخرى يوم الثلاثاء..

عند هذا الحائط الجميل.. سار حتى اقترب منه، هو لم يعرف القراءة ولا الكتابة، ولو كان عرفها لكان قرأ اللوحة الرخامية القديمة التي لُصقت بالأسمنت وكُتب عليها: (مدافن عائلة أبو العنين 1911)...

ذلك الحائط الذي هو أقدس أسراره، وجد نفسه منذ الصغر يذهب لهناك دائمًا، في تلك الليلة يشاهدهم ويتمتع ويقف بعيدًا حتى يأتي الفجر.

اقترب حتى توقف قريبًا منهم، إنهم أقل من آخر ليلة، ولكن لا ضير في ذلك، شيء أبيض يقف بعيدًا وأمامه صفوف من الأجساد البيضاء الناصعة، والتي لا شكل لها سوى أنها تُصدر أصواتًا جميلة تخلبه.. يذوب فيها.

هذه هي البداية فقط؛ لأن الجسد الأبيض الجميل الذي يقف أمام الأجساد الأخرى تظهر له ملامح لرجل ضخم ذي جلباب أبيض ووجه أبيض وبشرة تُشع نورًا، يرفع يده قليلاً أمامه وكأنه يدعو الله وينادي بصوت جميل رقراق خافض: (الله)، فيختلج للكلمة قلب (علي) ويبتسم.. يبتسم لأنه يعرف أنها بداية الليلة عندما يقول الرجل تلك الكلمة، يسمع الصوت الجميل من الأجساد الأخرى تقول (الله).. أصواتهم ترعش جسده وتُذيب إدراكه..

تمر الدقائق والرجل يقول (الله) بصوته الحاني والجمع يرد بصوت أرق (الله)، يجلس بعدها (علي) على الأرض وهو يرى الأجساد تتمايل يمينًا ويسارًا مع كل كلمة تمايل أوراق الشجر مع النسمات، وفجأة تظهر الأجساد لرجال يرتدون ملابس بيضاء لُفت على أجسادهم وهم يندمجون في الكلمة..

حتى يسمع الرجل الذي يقف أمامهم يتكلم بصوته الجميل ويهز رأسه رافعًا صوته قائلاً (يا حي يا قيوم)؛ فيرد الجمع (الله) وتتمايل

الأجساد، ويشعر (علي) باهتزاز جسده مع الكلمات، والرجل يُغير نداءه إلى الله، والرجال يردون عليه.

(علي) يفتح فمه بدون إرادته وكأنه يرتشف رشفات من الكلمات التي يقولها الجمع، يرتوي من أصواتهم، يرتعش من رعشاتهم، يذوب في تلك الكلمة العجيبة (الله)..

بعد ساعة يجد (علي) لسانه يتحرك داخل شفتيه ليردد مع الجمع كلمة (الله).. لسانه يتحرك بلا صوت، ولكنه يهتز وهو جالس على الرمال وأغصان الشجر الجافة، يهتز وكأن قلبه يرقص ونبضاته ترتفع مع الكلمة، ويهيم في نشوة لا يعرف مصدرها ولا يشعر إلا ودموع ساخنة تُبلل خديه تغسل وجهه وتلمس شفتيه، فلا يجدها كالدموع المالحة التي يذرفها عندما يبكي وحيدًا.

كان يقول في نفسه إن هؤلاء القوم هم سره الوحيد ومتعته الدائمة وملاذه الأخير، ظل الذكر طوال الليل وقد جلس الرجل وجلست الأجساد الأخرى حوله، وترقرق صوتهم وعذب أكثر وهم يذكرون الله، حتى حدث ما أفزعه.

هبط صوتهم أكثر وأكثر، وهذا لم يحدث منذ سمعهم أول مرة، هبط الصوت حتى سكت الجميع، ثم نظر له الرجل الذي يقف أمامهم وسار حتى اقترب منه.. تراجع (علي) للوراء بحركة عفوية، ولكن الرجل ذا الوجه الجميل واللحية البيضاء ابتسم له وقال بصوت رقيق خفيض هز قلبه:

- "اذكر الله"..

ظل (علي) ينظر إليه برعب، فقال الرجل:

- "اذكر الله"..

هنا حرَّك (علي) شفتيه وأخرج صوتًا من حلقه دلالة على عدم تمكنه من الكلام..

- "اذكر الله"..

تعالى الصوت الخارج من حنجرة (علي)، والذي يدل على عدم استخدامه لملكة الكلام؛ فقال الرجل المبتسم:

- "مرحبًا بك يا بني بين أقرانك"..

فجأة بدأ الرجل يبتعد بظهره، وجسده يعود للضوء الأبيض مرة أخرى، وباقي الأجساد تعود لتُغلف باللون الأبيض، قال (علي) في داخله: "لماذا أوقفوا الكلمات؟ ولماذا لم يُكمِلوا حتى الفجر ويصطفوا بطريقتهم الجميلة، ويقف الرجل يمارس شيئًا روحانيًّا لطالما أراد أن يمارسه؟" لم يكن (علي) يعلم أنها صلاة الفجر..

تلاشت الأجساد وتلاشى الضوء الأبيض وحل الظلام والوحشة محل النور والأُنس، نظر (علي) حوله يبحث عنهم، ثم أخذ يبكي بحرقة كأنه طفل صغير.

***

الفصل العاشر

خرج (حاتم) من المستشفى بعد أيام، وعاد مرة أخرى لجامعته ولكن تغيرت نظرة أقرانه له.

كل من كان ينهر بشخصية (حاتم) المهذب المتدين الوسيم المتفوق، أصبح الآن يتحاشى أن يُلقي عليه السلام، الجميع سمع عن تلك الليلة التي أصابته التشنجات ونُقل بعدها إلى المستشفى، يمكنك أن تتخيل العديد من السيناريوهات التي ألَّفها الطلبة، فمنهم من قال إنه مصاب بمرض معدٍ، ومنهم من قال إنه مصاب بالإيدز، والمصيبة أن الكثير يوافقونه لضعف معلوماتهم عن الأمراض، البعض قال إنه مصاب بالصرع، مما جعل البعض يتخيل أنه يرتكب جرائم عنيفة أثناء تلك النوبات.

حتى إن البعض قال إنه مصاب بمس من الجان، وهذا الاحتمال الأخير هو ما انتشر بين الطلاب أكثر من أي احتمال آخر، والسبب بسيط..

هناك اثنان من الطلبة كانوا ضمن من دخل غرفته عندما اجتاحته النوبة وأقسما أنهما شاهدا الكتب تتحرك من حولهم حركة بسيطة، وكأنَّ أحدهم يزحزحها من موضعها، وهناك كوب شاي كان موضوعًا على منضدة تحرك من تلقاء نفسه حتى وقع وتهشم!!

تنتشر تلك الحكاية في الجامعة، ثم تظهر حكاية ثانية وثالثة ورابعة، وتسمع من يقول إن فتاة حكت عن (حاتم) أنها شاهدته عندما كانا بالفرقة الأولى في الكلية أثناء إحدى المحاضرات، ينهض من المدرجات وينزل إلى الدكتور الذي يشرح المحاضرة، ثم يأخذ القلم الموضوع أمامه على المنضدة، ويعود لمكانه مرة أخرى ليكتب بالقلم بضعة أشياء، ثم يُعيد القلم أمام منضدة الدكتور بدون أن يعترض الدكتور أو يتكلم أو ينظر له أحد الطلاب، هي الوحيدة التي رأته، بالتأكيد الجان هم الذين يُمكنهم فعل هذا.

وظهرت حكاية عن شاب كان يريد أن يضربه وذهب إليه في إحدى المقاهي، ولكن الشاب يقسم إنه فجأة لم يتذكر أي شيء عن نيته لضرب (حاتم)، وكل ما شعر به أنه يحبه وأنه يجب أن يعتذر له.

الآن وبعد كل تلك الأشياء التي قيلت عن (حاتم) أصبح هذا الأخير حديث الطلاب، يذكرونه دائمًا بالحسرة باعتبار أنه فقد عقله مثلاً، أو ضاع مستقبله، أو سار في طريق لا عودة منه.

أما (حاتم) نفسه فقد انعكست معاملة أصدقائه له على حياته، استطاع أن يحافظ على تفوقه كما هو، ولكن اختفى ذلك البريق من عينيه، بريق الأمل والطموح.. أصبح يسير منكس الرأس بين زملائه وكأنه يُخفي عارًا ملتصقًا به.

كما أن زملاءه تجنبوه هو أيضًا تجنبهم وأصبح يسير وحيدًا دائمًا ويجلس وحيدًا دائمًا، اللهم إلا من صديقه الحميم (علاء)، رفيقه الدائم الذي كان يحاول دائمًا جره لحياته القديمة، وإعادة المياه إلى

مجاريها مع الأصدقاء والزملاء، ولكن (حاتم) كان دائمًا ما يرفض تلك المحاولات؛ لأنه يعتبرها نوعًا من الشفقة..

المحاولة الوحيدة التي لم يعتبرها نوعًا من الشفقة هي محاولات حبيبته (داليا) عندما كانت تُلقي عليه النكات لتُخرجه من حزنه، لقد علم أنها تحاول في كل لحظة أن تُسري عنه، وهي تبذل في ذلك الكثير، بالرغم من نكاتها القديمة إلا أنه كان يضحك من قلبه عند سماعها، لا بسبب النكتة، ولكن يضحك من محاولتها الطفولية لإضحاكه، وهي كانت تضحك هي الأخرى لذلك.

والغريب أنه برغم تلك العزلة التي أثرت على نفسيته إلا أنه استمتع بها في نفس الوقت وارتاح لها..

لقد وفرت له العزلة كل الوقت المراد لقراءة كل تلك الكتب التي كان يشتريها بانتظام، أو يستعيرها من أصدقائه في كلية الآداب قسم الدراسات الفلسفية، كتب تدور عن الموت والحياة..

لاحظت (داليا) في تلك الفترة كثرة انشغاله بشيئين؛ الكتابة والقراءة، ولكن الكتابة انحصرت في روايته الغريبة (نصف ميت)، التي رفض أن يُطلعها عليها نهائيًّا، وصمم على أن تطلع عليها مرة واحدة بعد الانتهاء منها.

مرت الشهور حتى طلب منها اللقاء على عجل داخل المقهى القديم الذي يتقابلان فيه دائمًا.

دخلت المقهى في تمام الخامسة لتجده يجلس على منضدته المفضلة ويبتسم لها، اندهشت من هذا الوضع الذي لم تره فيه منذ شهور، وخاصة أنها تعودت عليه وهو يقرأ أو يكتب أو يشرد، لكن أن ينتظرها ويبتسم بذلك الشكل!!

جلست أمامه فطلب من النادل اثنين من المياه الغازية كما تعودا دائمًا، ونظر لها وقال:

- "أنا قاعد مستني حاجة من ربع ساعة من مكتب الكمبيوتر اللي جنب الكافيه".

أشارت له بعدم الفهم فقال:

- "أصلي امبارح بليل روحت للواد (زياد) الساعة 5، وخلِّيته يقعد من ساعتها لغاية النهارده الساعة 2 الظهر يكتب لي حاجة على الكمبيوتر".

أخذت (داليا) تعد على أصابعها حتى قالت بدهشة:

- "21 ساعة بيكتب؟!! ليه هو بيكتب إيه؟!"

- "هاتعرفي دلوقت، هو بعد ما خلص كتابة راح بالحاجة على مكتب الكمبيوتر اللي جنبينا ده علشان يقعد على إيديهم ينسَّقوا اللي كتبه، ويطبعوا منه نسختين".

قالت (داليا) ضاحكة:

- "إيه يا بني الافترا ده؟ وهو إيه اللي مخليه يستحمل البهدلة والمرمطة دي؟"

ضحك هو الآخر وقال:

- "ما هو أنا واعده بأكلة كباب وفراخ كبيرة تكفيه 3 أيام لو عمل لي اللي أنا طلبته منه في ميعاده".

فجأة رفع عينيه ناحية الباب يراقب (زياد) وهو يدخل المقهى ويسير ببطء ويفتح عينيه بطريقة مضحكة.. يبحث عن (حاتم)، ناداه كي يأتي إليه، فقال (زياد) بعد أن وصل إليه بصوت مرتعش به نبرة تشبه الضحك:

- "هاهاها.. أنا جبت ليك.. هاهاها.. الحاجة أهو.. هاها.. وقولت لبتاع مكتب الكمبيوتر إن الحساب عندك.. نياهاهاهاهاها"...

ابتسم له (حاتم) قائلاً:

- "طب فين الحاجة؟"

- "حاجة إيه؟"

- "الورق اللي طبعته وجلدته يا أخي".

- "هو أنا طبعت ورق؟!"

أشار (حاتم) بنفاد صبر ليد (زياد) التي تقبض على الأشياء، فنظر (زياد) ليده في بلاهة، فنهض (حاتم) وأخذ الأوراق وقال لـ (زياد):

- "طب روح نام انت ولمَّا تصحى بكرة هاجيبلك الكباب والفراخ".

- "هاتجيبهم ليه؟"

- "علشان وعدتك بيهم؟"

- "طب أنا عايز جبنة رومي".

- "حاضر يا (زياد) هاجيبلك جبنة رومي.. يالا روح المدينة الجامعية بقى علشان تنام".

أدار (زياد) جسده وهو يكلم نفسه وخرج من المقهى، فأعطى (حاتم) لـ (داليا) مجموعة من الورق، فأمسكتها وهي تتأملها، رزمة ضخمة من الورق مغلفة بغلاف بلاستيكي ثقيل شفاف، ومن ورائه لوحة مرسومة بشكل مبدع وغريب.. اللوحة مقسومة نصفين، النصف الأيمن ألوانه زيتية واضحة وفاتحة، أما النصف الأيسر فألوانه هي نفس الألوان ولكن أبهت من الجانب الأيمن.

وفي منتصف اللوحة يقف شاب طويل نحيل نصفه الأيمن طبيعي، ونصفه الأيسر مغطى بالدماء والتشوهات تملأه، النصف الأيسر للشاب يحتوي على عينه التالفة وفمه المحطم وحروق بجلده.

تأملت هي الغلاف قليلاً منبهرة بدقة تفاصيله ومظهره المقبض، وخاصة أنه في أعلى اللوحة لطّخ الرسام دماء كثيرة وكتب بخط أبيض (نصف ميت).

وأسفل اللوحة كتب اسم (حاتم الجمَّال) بنفس الطريقة التي كُتبت بها (نصف ميت) في الأعلى، ولكن مع اختلاف أن اسم (حاتم) كُتب بخط أصغر من اسم الرواية.

نظرت (داليا) له وابتسمت قائلة:

- "طبعًا تصميم الغلاف ده اللي عملهولك (عبد الرحمن فتحي) اللي معانا في الكلية صح؟"

- "صح.. طلبت منه ينفذه من أسبوعين وسلمه لي من كام يوم، وخليت (زياد) يقول لمكتب الكمبيوتر يطبع التصميم بالألوان ويحطه في النسختين".

قلبت (داليا) الصفحات فوجدت أنها تصل لـ 520 صفحة.. إذن هذه هي (نصف ميت).. يا لضخامتها، لقد طُبعت على ورق كبير؛ أي بحجم الكتب الضخمة التي يطبعها أستاذة كليتهم، كُتبت على الحاسب الآلي وتم تنسيقها بطريقة تُريح النظر..

- "أنا يا حبيبتي عملتلك النسخة دي من (نصف ميت) علشان تقريها وتقوليلي إيه رأيك زي زمان".

- "طب والنسخة اللي معاك؟"

- "لا النسخة دي هاعمل منها نسخ تانية علشان أعرضها على دور النشر، احنا دلوقت في شهر مايو ويا دوبك أدِّيها لكام دار نشر وأنتبه للامتحانات، ولما أخلص امتحان أكمل رحلة للدور زي المجنون".

- "يعني هاتعمل زي كل مرة!! تلف على الدور ويقولوا ليك إنهم ما ينفعش بينشرو ليك حاجة، ليه يا حبيبي تتعب نفسك؟"

- "أنا قبلت التحدي اللي اتفقنا عليه زمان".

تغيرت ملامح (داليا) وقالت بنوع من التودد:

- "أنا آسفة يا (حاتم).. أنا ماقصدتش تفكر بالطريقة دي، سيبك من ده يا بابا و...."

- "لأ"..

قالها بحزم وهو يقاطعها ويكمل قائلاً:

- "أنا راهنت على الرواية دي خلاص بكل اللي أقدر عليه، يا إما أنجح المرة دي يا إما أبطل محاولات".

حاولت أن تتكلم ولكن نظرة الإصرار في عينيه أخرستها، فنظرت للرواية تتأملها)).

انتهت (داليا) من الكلام فقالت (دعاء):

- "وإيه اللي حصل بعد كده؟"

كانت ملامح (داليا) تحمل مزيجًا غريبًا من القلق والتوتر والخوف، وقد ردت على شقيقتها قائلة:

- "بعديها أنا قريت الرواية وما صدَّقتش نفسي.."

- "ما صدقتيش نفسك؟!"

أكملت (داليا) غير عابئة بسؤال شقيقتها:

- "وبعد الامتحانات رجعت هنا على إسكندرية وفضلت أنا و(حاتم) على اتصال الأيام اللي فاتت، وهو بيقولي إنه بيدوَّر على دار نشر تقبله بعد ما دور نشر كتير رفضت قصته علشان جنونها".

- "رفضت القصة علشان جنونها؟"

نهضت (داليا) من على الفراش وجلست على ركبتيها وهي تُخرج الصندوق الذي تحتفظ به من تحت الفراش وتُخرج الأوراق والكشاكيل والكتب القديمة، حتى وصلت لكيس بلاستيكي أسود اللون، أخرجته وأبعدت الأتربة عنه.. ثم أخرجت منه رواية (نصف ميت).

- "إيه ده!! هي الرواية دي عندك؟"

قالتها (دعاء) بشغف فأعطتها (داليا) الأوراق وقالت:

- "فيه سر في الرواية دي يا (دعاء).. عايزاكي تقريها لو سمحتي".

- "سر إيه؟"

- "اقريها.. وأنا مش هاكلمك إلا لما تقريها".

قالتها (داليا) وهي تغادر الغرفة وتترك (دعاء) بها وحيدة.. نظرت (دعاء) إلى الباب الذي أغلقته (داليا) وراءها ثم نظرت للرواية، وفتحت أولى صفحاتها لترى كلمة (إهداء) وتحتها عبارة تقول:

((لطالما أنتظر اللحظة التي ستُقبض فيها روحي، لذلك أهدي تلك الرواية إلى الموكل بقبض روحي.. إلى ملك الموت))..

اقشعرت (دعاء) من الإهداء، وقلبت الورقة وبدأت في قراءة الفصل الأول.

***

(طاهر) يخرج من غرفة (هادي) وقد ارتدى بزته وهو يربط رباط العنق وقد وضع النظارة الطبية على عينيه..

جرى (هادي) ناحيته وهو يقف له مبتسمًا ويقول:

- "نوَّرْتنا يا باشا".

ابتسم (طاهر) له ابتسامة منهكة وقال:

- "جدع يا (هادي)، انت عارف لو وقعت في إيدك حاجة زي القمورة اللي جوه دي تقولي عليها.. إلا هي كان اسمها إيه؟"

- "(سمية) يا باشا".

ضحك (طاهر) ضحكة صغيرة وقال وهو ينظر باتجاه باب الغرفة:

- "اسمها حلو.. وتستاهله بصحيح".

obeikan.com

ثم نظر إلى (هادي) وقال:

- "الرجالة هايساعدوك علشان ترجَّع الجثة تاني".

وأشار لرجاله، ولكن (هادي) قال بنفس الابتسامة:

- "لا يا باشا خليهم ما يتعبوش نفسهم المرة دي.. أنا هارجعها بنفسي".

فجأة تعالى صوت أذان الفجر من منبر أحد المساجد البعيدة، فسكت الجميع لوهلة، ثم تحرك (طاهر) وخلفه رجاله وهم يغادرون المكان بسرعة بدون أن يُلقوا حتى السلام على (هادي) الذي قال وهم يبتعدون:

- "نوَّرت يا باشا".

ثم نظر للغرفة ذات الباب المفتوح ومد يده لجيبه وهو يُخرج العلبة الحمراء الصغيرة ويفتحها متأملاً الخاتمين، وآذان المسجد يعلو أكثر.. وهناك بين المقابر وبالتحديد في المقبرة التي دُفنت فيها الجثث منذ ساعات، في داخل تلك المقبرة وبين الجثث المتراصة الملفوفة بالكفن الأبيض والعظام المتناثرة.. وسط هذا.. ومن داخل أحد الأكفان البيضاء.. تحركت يد إحدى الجثث المدفونة داخل (اللحد) والأحجار تُحيط بها.. خرجت اليد خارج الكفن لتقبض على أقرب حجر لها.. وخرج صوت متقطع من الجثة.

***

الفصل الحادي عشر

7 أغسطس 2006، الساعة الحادية عشرة صباحًا

- "وبالتالي.. فالاكتئاب ممكن يعمل زي ما بتقول كده؟"

بالفعل شيء يحير!! رددت على د. (ياسر) قائلاً:

- "يعني (سعيد) حتى بعد ما اتعالج واتصرف طبيعي لمدة شهر ينتحر أول ما الفرصة تكون قدامه؟! ده كل التقارير اللي قريتها وكل كلام أهله بيقولوا إنه بدأ يخرج من الاكتئاب وياكل معاهم ويضحك ويقول نكت".

- "أيوه.. بس ما تنساش إنه كان بيسمع أصوات بتقوله ينتحر.. وبتقول له كده في الدقيقة 60 مرة وفي الساعة 360 مرة.. وشوف انت بقى في الـ 24 ساعة كان بيسمع أمر الانتحار ده كام مرة.. الدكتور اللي كان متابعه عالجه من الاكتئاب من خلال الأدوية.. لكن لسَّه موضوع الأصوات ماكنش اتعالج منه، ده غير إن الدكتور طلب من أهله كتير إنه يكون في المستشفى علشان يبقى تحت نظرهم، لكنهم أصروا على إنه يفضل معاهم، وبالتالي مع أول لحظة غفلوا عنه لقوه قاطع شراايينه بسكينة المطبخ".

- "وطبعًا هو عمل كده علشان يرتاح من الأصوات".

- "الله يرحمه ويحسن إليه".

obeikan.com

نحن الآن داخل مكتب من مكاتب قسم علم النفس بكلية الآداب، وهذا هو أستاذي الدكتور (مصطفى زيادة) أستاذ دكتور علم النفس بجامعة (عين شمس)، ولي به صلة قديمة منذ أيام أن كنت طالبًا تحت يده في سنوات الجامعة الأولى.

وكثيرًا ما ساعدني عندما وجد مني عشقًا لعلم النفس، وقد زادت مساعداته لي خاصة بعد تخرجي من كلية الآداب قسم علم النفس، ورفضي لأن أكون معيدًا بالقسم رغم تفوقي فيه..

ثم تحضيري للماجستير في علم النفس الجنائي، لم يتوفق دكتور (مصطفى) عن مساعدتي منذ ذلك الحين، كان دائمًا ما يقول إنه يرى في عقلي أفكارًا ستُغير مسار الطب النفسي في مصر.

كنت أعتبرها مجاملة لي، ولكن دكتور (مصطفى) لم يكف عن الاهتمام بي يومًا واحدًا. أكثر الكتب والمراجع التي أستعين بها لإتمام رسالتي للدكتوراه أحصل عليها من مكتبته الخاصة، المليئة بالكتب الثرية والنادرة والأبحاث الميدانية في مجال علم النفس التجريبي، الذي أعشقه وأعشق معه جو المختبرات النفسية ومعامل التجريب التي تُخرج قوانين تتعلق بالعقل البشري، ومن ثم مع الوقت تتغير تلك القوانين..

يا لها من متعة أن تبحث في ذلك العقل وتتأمل في صنع الله، وتندهش من تلك الدقة وهذه المعجزة التي تتعلق بالمخ البشري.

قال دكتور (مصطفى) ضاحكًا:

- "إيه أخبار دكتورة (جيهان عَلَم الدين)؟"

كانت دكتور (جيهان) هي المشرفة على رسالة الدكتوراه، فرددت قائلاً:

- "الحمد لله".

فابتسم لي وقال:

- "بُص يا (خالد).. انت زي ابني (محمد) تمام، وانت عارف إني ما رضيتش أفتح معاك الموضوع ده قبل كده".

كنت أعرف عن ماذا يتكلم، يتكلم عن سر حزني وحديثي الذي أصبح يقتصر على رسالة الدكتوراه فقط، وشرودي الدائم.

- "يا (خالد) انت لسه سنك صغير قوي، ودي سُنّة الحياة إن يكون فيه موت، وفي يوم من الأيام هاتموت انت كمان وهاتسيب وراك ناس يحزنوا عليك ويفتكروك، وخصوصًا لو كانوا بيحبوك وفاكرين الحاجات الكويسة اللي انت عملتها ليهم، والله العظيم أنا عارف انت كنت بتحبه قد إيه، الله يرحمه كان طيب وفضل معاك لغاية النهاية، لكن انت حالك اتغير خالص، من ساعة الوفاة من شهر 5 اللي فات وانت بالشكل ده، جسمك بيقل وبتضعف وعنيك حزينة ودايمًا ماشي باصص في الأرض وساكت، لا عمرك تتكلم أو تهزر زي زمان ولا أصحابك عارفين يندمجوا معاك زي زمان".

كان دكتور (مصطفى) يعرف اثنين من أصدقائي القدامى بحكم أن أحدهما عُيِّن معيدًا في الجامعة، والثاني يقوم الآن بتحضير رسالة الماجستير.

قلت له وأنا أحاول الابتسام:

- "ما تخافش يا دكتور، يومين وهايعدوا".

- "فاكرني هاصدق كلامك ده؟ يا ابني أنا حاسس بالحزن اللي في قلبك، ومش عارف أعمل معاك إيه، بس في النهاية مش هاقولك أكتر من خلي بالك على نفسك".

- "من إيه يا دكتور؟"

- "من نفسك".

تنحنح الدكتور وقال ووجهه يأخذ طابع الجدية:

- "دلوقت الحالات اللي معاك في الملف ده فيه حاجة فيهم عايز تناقشها؟"

- "والله الحالات اللي حضرتك ادتهاني دي هاتريحني قوي في رسالة الدكتوراه، لكن كان فيه حالة استغربت منها قوي".

- "أنهي؟"

تناولت حقيبتي الجلدية من جانبي وأخرجت منها الملف الضخم وأخذت أقلب الأوراق حتى عثرت على ما أبحث عنه:

- "هي مريضة من المنيا وكانت بتقول كلام لأهلها عن إنها بتموت وروحها بتطلع منها بس مش عايزة تطلع".

توقف دكتور (مصطفى) لحظة وقال وهو يعدل وضع منظاره الطبي:

- "افتكرتها.. دي كانت مريضة بالفصام، وكانت فيه أصوات بتكلمها، ومنهم صوت قوي زي ما كانت بتقول كان بيقولها إنه ملاك الموت وإنه جاي يقبض روحها".

- "أنا عارف الموضوع ده.. بس ما قدرتش أعرف هل هي مريضة بالفصام فبالتالي نتيجة للمرض بالفصام ولاعتقادها إنها بتموت جالها اكتئاب؟ ولا هي مريضة بفوبيا (خوف) من الموت ونتيجة للخوف ده جالها الفصام وترتب عليه الاكتئاب؟"

- "تشخيص الدكتور اللي بيتابعها عندك بيقول إنها مريضة بالفصام من الأول، مجابش سيرة فوبيا الموت، بس انت ممكن يكون عندك حق، لو المريض استمر خوفه من الموت وخصوصًا في المرضى دول ممكن قوي تُصاب بهلاوس سمعية من الفصام بتقولها إنها هاتموت".

- "أنا شكيت إنها حاولت تنتحر أكتر من مرة علشان تسهل على نفسها خروج الروح زي ما كانت بتسمع الأصوات".

- "ملاحظ إنك شاغل مخك قوي بالموضوع ده، أنا عارف إنك عارف كتير عن فوبيا الموت".

- "لا أنا مش شاغل دماغي بفوبيا الموت؛ لأنها موجودة زي ما حضرتك عارف بدرجات متفاوتة في شريحة كبيرة بين المصريين، أنا بادوَّر على مرض تاني ليه علاقة بالموت".

اعتدل دكتور (مصطفى) أكثر على مقعده متسائلاً:

- "وضَّح أكتر؟"

- "لما قريت الكتاب بتاع دكتور (Jacob Edward)، لقيت كلام عن حالات في القرن السابع عشر أصيبت باختلال نفسي معتقدين معاه إنهم أموات أو جثث".

ابتسم الدكتور (مصطفى) وهو يقول:

- "مرض نادر جدًّا جدًّا يا (خالد)، المريض بيكون متأكد إنه عبارة عن جثة، وأعراضه فيها تضارب لأن فيه مريض بيفتكر نفسه إنه جثة لكنه بيتحرك ويتكلم وياكل ويروح الشغل وينام، ومريض لما بيصاب بيه بيفتكر إنه مات فعلاً وجوه القبر، وطبعًا ما بياكلش ولا يشرب ويفضل ساكت، حتى لو حس بالجوع أو العطش بيقول جواه إنه جثة ومش هاينفع يتحرك من مكانه، والأعراض دي فيها شبه من الاكتئاب لكن مش هو الاكتئاب".

- "يعني أعراضه صعب اكتشافها؟"

- " لا ما اقصدش كده، أنا أقصد إنها شبه أعراض تانية كتير".

- "وإيه أسباب المرض ده؟"

obeikan.com

- "الأسباب الحقيقية محدِّش يقدر يعرفها؛ لأن المرض مش منتشر، وبالتالي الأبحاث اللي اتعملت عليه قليلة جدًّا، لكن في حالات من اللي أصيبوا بالمرض ده كانوا اتعرضوا لحادثة عنيفة خلِّتْهُم يعتقدوا إنهم ماتوا بعد الحادثة دي، كأنك مثلاً تتعرض للصعق بالكهربا، وبعد ما تمر التجربة دي تفتكر إنك مت نتيجة الصعق ده وإنك دلوقت جثة".

- "ولو عايز أعرف أكتر عن المرض ده؟"

- "إيه يا (خالد)!! عايز تعمل تجارب على المرض ده؟!"

ابتسمت بحق هذه المرة، وقلت بعد قليل:

- "مفيش دوريات بتتطرق للحالات دي، ده غير بصراحة إني قريت في كتاب إن الحالات دي بتتصنف تحت خانة الاكتئاب الحاد، لكن أنا حسيت إن ده تصنيف بسبب قصور البحث العلمي في الموضوع ده".

- "أنا برضه زمان سمعت بعض التعليقات عن إن المرض ده بيتصنف تحت خانة الاكتئاب، لكن علاجه بأدوية الاكتئاب عمل حاجة غريبة، حالتين اتعالجوا من وسط 8 حالات، وده في رأيي فشل لفكرة الاكتئاب".

- "أنا عايز أعمل التجارب، لكن مفيش عندي الحالات اللي أعمل عليها".

نظر دكتور مصطفى في عيني وقال بخبث:

- "التجارب بتبقى بتصاريح يا (خالد)، وانت استحالة حد يخرجلك تصريح؛ لأنك مش طبيب أمراض نفسية وعصبية، وفي نفس الوقت انت حتى ما أخدتش الدكتوراه في علم النفس من الكلية".

فهمت لما يلمح الدكتور مصطفى، فقلت أنا بصدق:

- "يا دكتور انت عارف إن فيه روتين كتير في مصر، وبسببه علم النفس بقى في الحضيض، والأبحاث اللي بتتقدم كلها متكررة وقديمة ونمطية، والتجارب في المعامل النفسية بقت عبارة عن حبر على ورق، انت عارف إني عملت تجربة على عينة من البلطجية في تلات أماكن مختلفة من القاهرة لمدة سنة، وقدمت مع الماجستير نتيجة التجربة دي اللي تابعتها في الواقع من غير حتى ما أعمل أي حاجة تفصل البلطجية دول عن حياتهم الشخصية.. وزي ما حضرتك فاكر يا دكتور، لما محدش انتبه للتجربة، ومحدش علق عليها أصلاً و...

قاطعني الدكتور وهو يقول:

- "أنا عارف من غير ما تكمل حبك لعلم النفس، لكن التجارب لما بتكون على المرضى النفسيين بتختلف زي ما انت عارف".

- "التجربة أخلاقية".

- "أيوه، الكلام ده تقوله لمدير المستشفى".

- "هو انت تعرف مستشفى فيها حالات زي دي؟"

سكت كأنه وقع في فخ ثم قال بتردد:

- "أيوه أعرف مصحة فيها حالات زي دي.. بس انت برضه مش هاتعرف تعمل التجارب إلا بأمر من المدير".

- "أكيد أنا هاخد الطلب ده من المدير".

- "أنا أعرف المدير معرفة شخصية، وعارف إنه هايرفض الفكرة من أساسها؛ لأنه هايعتبرك بتتعامل مع المرضى كأنهم فئران تجارب".

- "وانت شايف إني من النوع ده؟"

- "لا طبعًا.. بس برضه يا (خالد)".

قاطعته أنا هذه المرة وقلت:

- "أنا هاخد موافقة مدير المستشفى".

سكت قليلاً وهو يفكر ثم قال لي بعض لحظات:

- "أنا هاقولك على عنوان المصحة النفسية دي.. بس بشرط".

- "إيه هو؟"

- "مدير المصحة.. عايزك ما تقولوش إني أنا اللي باعتك ليه".

- "حاضر".

نظر دكتور (مصطفى) في ساعته ونهض بسرعة قائلاً:

opeikan.com

- "نسيت إني عندي محاضرة لفرقة تانية دلوقت، أنا هاكتبلك العنوان على ورقة وادِّيهولك، وبكرة تبلغني عملت إيه".

بالفعل أخذ ورقة على عجل من على مكتبه وخط عليها العنوان ثم ودعني وهو يقول لي:

- "أنا عارف إن فكرة الموت دي بقت مأثرة عليك اليومين دول، بس برضه خلي بالك على نفسك".

خرج من الغرفة وتركني أنا أقف بها وألملم أوراقي وأرتبها في حقيبتي الجلدية، ثم أتأمل الورقة التي كتب عليها العنوان.. الورقة كتب عليها:

(مصحة الأمل.. فيصل.. شارع حسن حماد.. متفرع من شارع العشرين).

لقد نسي الدكتور أن يعطيني اسم مدير المصحة.. على كل حال لا يهم.. وضعت الورقة في جيبي وخرجت من الغرفة، وسرت في ذلك الممر حتى وصلت إلى باب المبنى، فقد كان قسم علم النفس في الدور الأرضي من المبنى، فتحت الباب ونزلت بضعة سلالم حتى وجدت نفسي داخل الجامعة، فكرت.. هل أذهب للمكتبة لتكملة الكتاب الذي كنت أتصفحه أمس، ولكن تذكرت أنني تركت ورق التلخيص في البيت؛ ففضلت العودة للمنزل الآن.

خرجت من باب الجامعة محاولاً تجنب زحام الطلاب الذين يدخلون من نفس الباب، توجهت إلى المترو، دخلت للمحطة وسط

الجموع وأنا أنظر بعيني إلى اللافتة التي عُلقت على المحطة: (الدقي). قلت في نفسي إنني لن آخذ وقتًا طويلاً كي أصل لمحطتي!!

***

ما هذا الظلام؟ إنه ظلام القبر حيث ترقد الجثث.. بالرغم من أن الساعة الحادية عشرة صباحًا إلا أن القبر لا يصل له أي ضوء تقريبًا..

العظام الملقاة.. والكفنان القريبان من بعضهما.. وذلك الكفن المفتوح والذي خرجت يد جثته منه وهي تقبض على حجر اللحد القريب منها.

صوت أنين يتصاعد من الجثة التي تقبض بيدها على الحجر.. يد الجثة تتحرك مرة ثانية حركة عشوائية، يحركها صاحبها يمينًا ويسارًا وهو يُصدر الأنين، يده الأخرى مقطوعة، ولكنه - على كل حال - لا يشعر بها، وبالتالي لا يملك القدرة على تحريكها.. اليد تتحرك محاولة الوصول لنهاية ما تستطيع الوصول إليه.

تقبض اليد على التراب بعنف للحظات ثم تتراخى مرة ثانية.

***

فتحت (داليا) عينيها وهي ما زلت نائمة في فراشها، وسألت نفسها.. هل ما تراه الآن هي (دعاء) تجلس على الفراش المقابل لها؟ أغلقت عينيها وفتحتها مرة أخرى لتتضح الصورة أكثر قليلاً، نعم هي تجلس على الفراش تُمسك برواية (نصف ميت)، تقرؤها بتركيز شديد..

- "انتي صحيتي امتى يا (دعاء)؟"

قالتها (داليا) وتأثير النوم ما زال في صوتها فرفعت (دعاء) وجهها من على الورق لتنظر لشقيقتها، عيناها محمرتان وسواد تكون تحتهما!!

- "أنا ما نمتش.. بقرأ دلوقت في صفحة 188".

نهضت (داليا) واعتدلت على فراشها قليلاً وهي تقول:

- "يا بنتي أنا سايباكي بعد ما صلينا الفجر ونمت، وكنتي انتي بتقولي إنك مش هاتبدأي فيها إلا بكرة، علشان خفتي من أول كام كلمة من الفصل الأول".

سكتت (دعاء) وكأنها تستوعب كلمات شقيقتها أولاً قبل أن تجيب:

- "بعد ما نمتي قلت أقرأ فيها شوية.. القصة دي فيه كلمة عايز أوصفها بيها".

- "كلمة إيه؟"

- "جنون"..

ابتسمت (داليا) وهي تفرك في عينيها وقالت:

- "إيه رأيك في أحداثها؟"

- "(دينا) و(حازم) بيحبوا بعض ويتجوزوا بعد مشاكل، (حازم) بيألف قصص لكن دور النشر بيرفضوه، لغاية ما يبدأ يألف رواية

طويلة اسمها (نصف ميت)، وما يخليش مراته تقرأ القصة إلا بعد ما تتنشر، (حازم) عنده مرض الصرع، وبتجيله نوبات صرع كتير في الفترة اللي بيألف فيها القصة، الولد بيقدر يحرك الحاجات عن بُعد وهو في نوبات الصرع، ويقدر يكسر أي حاجة.. دماغه فيها نشاط كهربي زيادة ملوش تفسير، ومحدش يعرف بالموضوع ده إلا مراته، لغاية ما يقعد مع مراته في يوم ويقولها لو مات تقرأ رواية (نصف ميت) كويس، وتحاسب من كل حاجة فيها، وتركز في كل حاجة بتحصل حواليها، دار من دور النشر توافق على نشر القصة، وفي يوم الصبح (دينا) تلاقيه ميت، يندفن بسرعة من أهله بعديها تكتشف إنه قبل موته ورث مليون و700 ألف جنيه من خاله اللي كان عايش في الكويت قبل ما يموت بيومين بس".

كانت (دعاء) تقول الكلمات السابقة بانبهار؛ فقالت (داليا):

- "ما قلتيش رأيك إيه في أحداثها؟"

- "(حاتم) ده طلع مصيبة، بس ليه هو مهتم بالتفاصيل كده جوه القصة؟"

وقفت (داليا) على قدميها بعد مغادرتها الفراش وقالت وهي تعقص شعرها:

- "أنا بخلِّيكي تقري الرواية دي علشان تفهِّميني اللي بيحصل".

لم تفهم (دعاء) ما المقصود من العبارة التي قالتها شقيقتها، ولكنها راقبتها وهي تتجه إلى باب الغرفة لتفتحه بهدوء..

توقفت فجأة وهي تمسك مقبض الباب!! فجأة سمعت (دعاء) صوت بكاء شديد يخرج من شقيقتها، قفزت من على الفراش وهي تضمها لصدرها، و(داليا) تبكي بحرقة وكأنها انهارت فجأة ولم تحتمل التظاهر بالقوة بعد الآن..

من وسط دموعها وصوتها المليء بالشهقات سمعتها تقول:

- "(حاتم) كان عنده صرع، وكان عنده كهربا زيادة في المخ أزيد من الحد الطبيعي للي عندهم الصرع، الحاجات حواليه كانت بتتحرك وهو في نوبة الصرع.. (حاتم) دور النشر كانت بترفضه الأول يا (دعاء).. (حاتم) كاتب تفاصيل من حياته الحقيقية"...

اتسعت عين (دعاء) وهي تراجع تفاصيل الرواية في عقلها برعب.

***

obeikan.com

الفصل الثاني عشر

قبل أن أعود لمنزلي كان يجب عليّ أن أذهب للسوبر ماركت القريب من المنزل كي أبتاع بعض الطعام لي، ولأنني لم أذق شيئًا منذ وجبة غدائي أمس.

مع كل هذا الحر في أغسطس أضطر لتناول الكثير من العصائر والمشروبات الغازية باستمرار، لذلك اشتريت بعض علب العصير وزجاجة مياه غازية ولانشون وجبن رومي وزيتون للإفطار، ودجاجة مجمدة للغداء؛ فأنا أعشق الدجاج جدًّا.

أخذت كل هذا واتجهت لعمارتنا، ودخلت المصعد وأنا أضغط على زر الطابق الخامس.

دخلت الشقة ووضعت الأشياء التي أحملها على أقرب مقعد لي، ثم جلست على المقعد المفضل لي في الصالة.

أنا (خالد رضا)، أحلم بأن أغير مستقبل علم النفس، حلم يبدو أنه طفولي ولكنه كان حلمي الوحيد منذ الطفولة، ومنذ أن كنت أقرأ أي كتاب عن علم النفس تقع يدي عليه، اشتريت عشرات الكتب عن علم النفس من على الأرصفة، ولم أكن قد تعديت الثالثة عشرة من عمري..

اشتركت في أكثر من مكتبة كي أقرأ ما يحلو لي ويتعلق بعلم النفس الجنائي والتطبيقي والصناعي والبيولوجي والعسكري والتحليل النفسي، وعشرات التخصصات التي وقعت تحت يدي في سن صغيرة، أتذكر أنني وقعت ذات مرة على مجلد نادر داخل مكتبة أحد مراكز الشباب المتواضعة يتكلم عن تاريخ علم الفسيونومي الفرنسي وتحليل دقيق لتطوره عبر التاريخ.

اجتزت المرحلة الثانوية، واتجهت إلى كلية الآداب لألتحق هناك بقسم علم النفس، وأعيش في جنة العلم التي حلمت بها، لا أعتقد أنني تركت كتابًا واحدًا في مكتبة جامعة عين شمس يتكلم من قريب أو بعيد عن علم النفس لم أطلع عليه وأقرأ داخله جيدًا.. طلبت من أساتذتي الاطلاع على الأبحاث القديمة لطلبة الماجيستير ورسائل الدكتوراه، في البداية تجاهلني البعض وابتسم البعض لي مشجعًا، ولكنهم صعقوا عندما لاحظوا أنني في السنة الأولى قرأت كل كتب السنين القادمة في الكلية وأنني أناقشهم في بعض أفكارها، عندها سمح لي البعض بالاطلاع على تلك الأبحاث.. تشبعت بأفكار علم النفس، وشعرت بأنني كلما غصت أكثر داخله كلما شعرت أكثر بالسعادة..

لم يكن النجاح في كل عام صعبًا عليَّ، وخاصة أنه من خلال طريقتي في الكتابة أصبح أساتذة القسم يعرفون ورقة إجابتي ويعلقون عليها بعد إعلان النتيجة..

عند السنة الثالثة اكتسبت حب واحترام الأساتذة وأحببتهم أنا أيضًا، وقد تنبأ الجميع بأنني سأُعين معيدًا في القسم، ولكن بعد انتهاء

الدراسة رفضت تقديم أوراقي، مما جعل الجميع يندهش من تركي لفرصة كبيرة كهذه، ولكني فكرت ألف مرة قبل الرفض، لأنني في كل الحالات سأقوم بتحضير الماجيستير والدكتوراه..

كنت أسعى للحصول على وقت كبير كي أتابع الماجستير والأبحاث الخاصة التي أقوم بعملها منفردًا، معتمدًا على فكرة معامل التجارب النفسية التي أحاول تطويرها من خلال رصد الظواهر أثناء حدوثها وتشريحها وتحليلها، لا أعني أن آتي بمريض وأعزله عن مجتمعه لأراقب تفاعلاته.. بل أراقب المريض بدون أن يدري؛ كي أخرج بكل النتائج التي أريدها ويمكنني الحكم بموضوعية على الحالات الفردية.

مجنون، أليس كذلك؟ لقَّبَني زملائي بالقسم بتلك الصفة بعد أن كانوا يعلمون في كل مرة أنتهي فيها من إحدى تجاربي الغريبة أنني أصبت أو تعرضت لمشكلة، جربت العيش مع البلطجية وفتوات الشوارع المصرية، وعاصرت مشاجراتهم العنيفة وتضررت بسببها.

وفي بحث آخر مارست الشعوذة لمدة أربعة أشهر بدون أن يعلم عني أحد، وادَّعيت صلتي بالجان، وأنني صاحب بركات، وبدأ الناس يتوافدون عليَّ، وكنت أنا أصنف تلك الحالات التي تتوافد؛ لأعرف أن 82% من تلك الحالات لم تكن مصابة إلا بأمراض نفسية أو أوهام أو هلاوس، أما النسبة الباقية فكانت بالفعل بعيدة عن المرض النفسي، وهذا ما جلعني أدرس تلك الحالات بدقة أكثر؛ لأؤمن في النهاية بوجود تلك الخوارق غير المفهومة وأكتفي بذلك في بحثي.. وربما لأن النتيجة التي خرجت بها في بحثي كانت تقوم على مبدأ أن هناك من ينخدعون

بمبدأ الوهم بالفعل، ولكن هناك أيضًا من هم مصابون بأعراض غريبة تخرج عن علم النفس أو الطب البشري.

تلك النتيجة لن تُرضي الجهات العلمية؛ لذا قررت الاحتفاظ بهذا البحث لنفسي وعدم إعلانه الآن.. جربت الكثير من الأبحاث على فئات كثيرة، حتى اتهمني زملائي بالجنون بعد أن اطلعوا على نتائج الأبحاث، وعلى كلٍّ.. توقفت أبحاثي بعدما فقدت الإرادة على تكملتها بعد ما حدث...

هذا بالنسبة لما يتعلق بحياتي العملية والدراسية..

أما فيما يتعلق بحياتي الشخصية.. فقد تُوفي والدي قبل مولدي بثلاثة أشهر، وترك والدتي في كنف أهلها، أو بالتحديد كنف جدي العزيز.. تربيت في تلك الشقة منذ الطفولة، وكان أول من أخذ بيدي في صغري هو جدي، ولأن والدتي كانت تعمل في الشئون القانونية لشركة حكومية، فقد كانت تتغيب صباحًا وتتركني مع جدي.

علاقة غريبة نشأت بيننا نحن الاثنين، كان قليل الكلام كثير الابتسام، وقد كنت دائمًا أغرقه بالأسئلة عن الحياة والكون وعن الأشياء التي أراها، يبتسم لي عندما يسمع سؤالي الغريب أو المحرج غالبًا، ثم يعتدل ويتكلم بنبرته الواثقة وصوته الهادئ القوي الذي يحمل لمحة من الخشونة المريحة للأذن.

يجيبني عن كل ما في رأسي بلا خجل، يشعرني بأنني في مثل عمره، فقد كان يقول لي أكثر من مرة ما رأيك في ذلك القرار أو تلك المشكلة،

وكنت أنا أعتدل في مقعدي مقلدًا جلسته الواثقة وأتكلم بنبرتي الطفولية قائلاً رأيًا مضحكًا، فهز رأسه بمعنى أنه فهم وجهة نظري، وهو يحاول أن يداري ابتسامته عني.

هذا جانب من شخصيته، أما الجانب الأغرب فهو أنه كان شديدًا وعنيفًا لدرجة لا توصف، أرهبه بشدة، وأشعر برعشة تجتاح أطرافي عندما أسمع صوته يناديني.. نعم ليس فيما قلت أي تناقض، لقد كنت أخافه بشدة، وأفكر دائمًا في شكل العقاب الذي يمكن أن أذوقه لو أخطأت.

لن أكون متحاملاً وأقول إنه كان يضربني دائمًا، أو أكون مجاملاً وأقول إنه كان يُقبّلني فرحًا عندما أخطئ، بل أقول إنه كان خليطًا من الحالتين بطريقة جعلتني أفكر سنوات وسنوات في حياته.

كيف أُحبه بتلك الطريقة، وأخاف من مجرد ذكر اسمه بذلك الشكل؟ أشعر بالأمان في وجوده، وأرتجف من الهلع عندما يجلس بجانبي.. يغلبني النوم على قدميه وهو يربت على رأسي، وأخاف لو لمسني كي لا تكون تلك ضربة من ضرباته.. أريد أن أكون منصفًا معه وأقول إنني رأيته يتعامل مع خالاتي وخالي الأكبر بشدة ممزوجة بالحب، ولكنه كان صارمًا أكثر معهم وأقل صرامة معي..

إذا وبخني أحد أفراد عائلتي في صغري أجري إليه وأحتمي به، وهو يلف يده القوية على خاصرتي؛ فأُخرج أنا لساني لهم بكل سماجة وكأنني أتحداهم أن يقترب مني أحدهم أو يرفع صوته.

كنت نموذجًا عجيبًا لطفل تلقَّى تدليلاً، ولم يتلقَ في نفس الوقت، لا أتذكر أنني تعاملت بنوع من الأنانية في صغري، ولكن ليس لأنني ولد مطيع، بل لخوفي من جدي إذا لم يعجبه تصرفي، وفي نفس الوقت لا أتذكر تقريبًا أنه رفض لي مطلبًا ولو كان تافهًا.

أحببت والدتي بالطبع، وربتني هي من الصغر، وكانت المنبع الذي لا ينضب لحنان أغترف منه وقتما أريد، لدرجة أنني في صغري لم أشعر بغياب والدي إلا عندما سمعت كلمة (بابا) يرددها زملائي في المدرسة، وأيضًا لم أفهم ما أهميته طالما الجد موجود والأم موجودة!!

شيء آخر غريب.. فبرغم أنني كنت أقضي جل حياتي مع جدي، إلا أنني لم أعلم الكثير عن حياته السابقة، كان قليل التحدث كما قلت سابقًا وخاصة عن نفسه.. عرفت مرة أنه كان بطلاً في رفع الأثقال في شبابه، ومرة عرفت أنه اخترع شيئًا ما يتعلق بموتور البواخر، فقد كان مهندسًا في شيء يتعلق بالنقل البحري.

عشت حياة لم يؤرقها إلا قليل من المشاكل على مرتب والدتي ومعاش والدي ومعاش جدي الذي كان يُصر أن ينفقه على المنزل، وقد باعت والدتي شقتها بعد وفاة والدي ووضعت نقودها في البنك كي تساعدها الأرباح على تربيتي.

كبرت حتى وصلت لسن العاشرة، وقد فوجئنا بإصابة والدتي بمرض ما لن أذكر اسمه.. لكنه عذبها كثيرًا قبل الموت.. لحظات أكره أن أتذكرها وأنا أجلس وحيدًا في الشقة أنتظر وصول جدي ليطمئنني بعدما منعوني من زيارتها..

كان الموضوع يتعلق بعدوى ما وخطر على حياتي، ظل الحال هكذا لعام كامل، حتى جاء جدي للشقة في مرة ومعه رجال الأسرة ونساؤها.. النساء يُحطن بي ودموع متجمدة في أعينهن تنتظر لحظة الانفجار، الرجال يتمالكون أنفسهم..

جدي يجلس أمامي وأرى يداه ترتعشان!! يا للهول!! منذ متى ويد جدي ترتعش؟! منذ متى وهو يلتقط أنفاسه بصوت عال ويبلع ريقه بتلك الطريقة؟! ابتسمت له.. فقال لي إن والدتي تُوفِّيَت اليوم صباحًا، وأنهم استخرجوا تصريح الدفن ودفنوها.. ظلت ابتسامتي مرسومة على وجهي وقلت ببساطة: "يعني مش هاينفع أشوفها دلوقت خلاص؟"

سمعت عندها نحيب نساء أسرتي وتشنجاتهم، والدموع بدأت في الظهور في أعين الرجال، كررت سؤالي فهز جدي رأسه نافيًا، فقلت: "يبقى هاشوفها بعد ما أموت إن شاء الله، وأكيد هي مرتاحة".

توقفت بعض النساء عن البكاء، ونظر كل واحد إلى رفيقه بدهشة مغلفة بالعطف، ولكن جدي ابتسم قليلاً وهو ينظر في عيني وأنا أنظر في عينيه.. نظراتي كانت تقول له اطمئن فأنا لن أبكي، ونظراته تقول لي إنه يعرف أنني أتمالك نفسي أمام العائلة.. ثم انتظرني جدي لأبكي، ولكنه لم يشاهدني وأنا أبكي منذ تلك الواقعة، والحقيقة أنني حاولت البكاء.. نعم حاولت البكاء.. فلم أفلح، المشكلة أنني أحاول البكاء على أمي التي يُصر عقلي على أنني لم أفقدها بعد.. آخر مرة رأيتها كانت ليلة أن جاء خالي من معمل التحاليل وأيقظها من النوم، حيث كانت تنام بجانبي، وسمعتها تتحدث هامسة معه كي لا توقظني...

قال لها إن العينة التي أخذوها منها موجبة، وإنها مصابة بهذا المرض فعلاً، فقالت له أن يخفض صوته قليلاً كي لا أستيقظ!! بالطبع كنت مستيقظًا أستمع لحديثهما، عندما قال خالي إنها يجب أن تُحتجز في المستشفى من صباح الغد، ردت هي عليه بأن يُجهز لها ملابس كافية ويتركها الآن كي لا أستيقظ من النوم.

خرج خالي من الغرفة وفتحت عيني لها، فسألتني عن سبب استيقاظي، وقد اندهشت عندما قلت لها إنني سمعت الحديث الذي دار.. ابتسمت وقالت: "تفتكر أنا خايفة من الموت؟"

فزعت عندما سمعت كلمة موت واتسعت عيناي، فضمتني لصدرها وقالت لي: "اللي يزعل وهو رايح يقابل ربنا يا حبيبي ربنا يزعل من مقابلته هو كمان".

قلت أنا بصوت مكتوم: "وهو انتي هاتموتي يا ماما؟"

- "لا يا حبيبي.. الموت دي كلمة وحشة، قول إني رايحة أقابل ربنا".

- "أمَّال هاتخُشِّي المستشفى ليه لو عارفة إنك هاتقابلي ربنا؟"

قلت العبارة الأخيرة ووالدتي تشعر بدموعي الساخنة تبلل ملابسها، فقالت لي بهدوء:

- "يمكن ربنا يخليني كويسة ويأجِّل المقابلة شوية علشان أكمل تربيتك وأجوزك وأشيل عيالك يا (خالد)، ويمكن ربنا يحب يقابلني دلوقت زي ما أنا حابة أقابله".

- "وتسيبيني لوحدي يا ماما؟"

- "أسيبك لوحدك إزاي وأنا مطَّمِنة إن ربنا معاك يا حبيبي؟! مين عارف بكره هاتكبر وتتجوز وتخلف عيال زي القرود، وتعلمهم إنهم ما يخافوش من مقابلة ربنا".

محادثة غريبة.. كان من المتوقع مني أن أبكي بحرقة وأتشنج وأصيح وأصرخ، لكني وجدت نفسي هادئًا بسبب هدوء والدتي.. وفعلاً شعرت بأن الموضوع ليس صعبًا لهذه الدرجة مع الابتسامة في وجه والدتي، وصوتها الهادئ الحاني، ويدها التي تتحرك على شعري بحنان.

- "نام يا حبيبي دلوقت وما تخافش".

رفعت رأسي الصغير عن صدرها ونظرت لها بخوف، فقالت:

- "انت مش بتصدَّق كلامي؟"

- "آه".

- "يبقى صدَّقني لما أقولك إني جنبك يا (خالد) في كل وقت ومش هاسيبك".

نمت على صدرها باطمئنان مرة ثانية، وبعد دقائق، وقبل أن أذهب في النوم.. سمعتها تهمس قائلة:

- "ما تخافش يا حبيبي.. لو مُت.. هاستناك عند ربنا عشان نبقى مع بعض".

وكانت هذه هي آخر محادثة دارت بيننا حتى هذه اللحظة، لأستيقظ فلا أجدها بجانبي، وأعرف أنها ذهبت للمستشفى.

هذا هو السر الذي جعلني لا أبكي ولا أفتقدها؛ لأنني أشعر بأنها سعيدة الآن، وبأنها معي في كل لحظة تنتظرني كي آتي لها.

ظل جدي يُنفق عليَّ من معاش والدتي ووالدي ومن معاشه، بجانب الأرباح البنكية التي تركتها والدتي، وانتقلت الوصاية إليه، خصوصًا أن والدي بلا أقارب تقريبًا، دخلت المرحلة الثانوية ثم الجامعة وانشغلت بالدراسة..

مع الوقت كان يجب أن أعلم أن جدي ليس هو العملاق الذي لا يشيخ ولا يُصاب بأمراض ولا يشعر بالألم، لقد كبر جدي حقًّا، ولكن ابتسامته وقوة يده ونشاطه منعوني من تصديق ذلك.

كبر حقًّا، ولكن عقله الراجح وجلسته معي كل يوم صباحًا بعد صلاة الفجر، والتي كان يصر أن يصليه حتى بعد أن وصل للثمانين في المسجد، وأن أرافقه إلى هناك، ثم ننتهي من الصلاة ونعود للمنزل، لنجلس في الشرفة ككل يوم منذ طفولتي، يقول هو الأدعية ويستغفر الله على مسبحته الطويلة بصوت خفيض لا أتبين منه إلا همهمات، ويتناول الشاي بلبن مشروبنا المفضل وأتناوله أنا معه وننظر للشروق ونتكلم معًا عن الحياة والناس.

لم أشعر بسنه حتى توقفت تلك الجلسات من جانبي، بالطبع بعد تخرجي وتحضيري لرسالة الماجستير والانشغال بأبحاثي الغريبة صرت

أنام ساعات النهار وأسهر ليلاً حتى قبل الفجر، ليغلبني التعب وأنام قبل أن يستيقظ هو... فوجئت بعد حصولي على الماجستير بأنه أصيب بالسرطان!!!

لم أكن أعرف شيئًا عن السرطان سوى بعض المعلومات البسيطة، لذلك ظللت متخوفًا ونحن نجري على الأطباء ونقوم بالتحاليل وقد علمنا أنه يجب أن يُجري تلك العملية لاستئصال الورم، الورم الذي أصبح خبيثًا ويجب علينا التسريع بالعملية.

كان يُطلق النكات عليّ ليُسري عني خوفي الواضح على وجهي، ويقوم بالسخرية من الأطباء الذي يعالجونه ويضحك بصوته القوي.. لكن ذلك لم يخدعني، أنا أقرب الأشخاص إليه وأعرف جيدًا أنه ليس من تلك النوعية التي تواجه المرض بالسخرية..

كانت سخريته ونكاته وضحكاته ليبث داخلي الاطمئنان، لقد أراد أن تظل صورته في عيني كما هي عن الرجل الذي لا يخشى الألم.. الألم يمزقه ولكنه يأبى أن يصرح به في وجودي.

تمت العملية وارتاح جدي كما كان يقول لنا جميعًا ونحن نقف حوله بعد خروجه من المستشفى، خالاتي يتناوبن خدمته يومًا بعد يوم حتى استرد عافيته بعد شهر، وأمر بأن لا تأتي إحداهن مرة ثانية للمنزل وتترك بيت زوجها.

فرحت وأنا أرى العملاق يعود من مرقده مرة ثانية ليقف شامخًا أمامي.

داومت معه على الذهاب لجلسة العلاج الكيميائي وعلى أخذ الدواء اليومي حتى لا تنشط الخلايا السرطانية في جسده ويعود السرطان، بعد المداومة على إيصاله للمستشفى بضع مرات رفض بعد ذلك أن أذهب معه مؤكدًا عليّ أن أعود للتحضير لرسالة الدكتوراه مرة ثانية، بعد مناوشات لم أكن لأكسر له كلمة بعدما أكد خالي أنه سيصطحبه في سيارته لمواعيد العلاج الكيميائي، وأكدت خالاتي على أنه سيداوم على الأدوية.

عدت أنا بقوة لرسالة الدكتوراه ولكن زادت أبحاثي وزاد جنوني هذه المرة وأصبحت أتغيب عن المنزل بالأيام وأعود منهكًا لأنام، ولأول مرة منذ أن وُلدت لا أشاهد جدي إلا كل فترة، مع الاطمئنان عليه من خالاتي..

قررت السفر للمنيا لمدة عشرة أيام لأغطي مجموعة حالات في المستشفى الجامعي، ستكون نتائج تغطيتهم مفيدة لي في الرسالة، وفي اليوم العاشر تلقيت الهاتف الذي يقول لي بفزع "جدك بيموت".

تركت ملابسي في غرفتي بالفندق وحتى أوراق بحثي وحاسبت الفندق ورجعت القاهرة مستقلاً القطار، عندما عدت لمنزلي فوجئت بالكارثة، أدخل الشقة فأجد الجميع يجلسون بالصالة حزيني الأوجه، أقارب لم أرهم منذ أعوام وأقارب لم أعرف وجوههم والكثير من الأطفال.

نظرت في أعينهم جيدًا وأنا أتمالك أعصابي وأغلقت باب الشقة واتجهت لباب غرفة جدي وفتحتها.. فراش جدي في آخر الغرفة

الواسعة وبجانبه الدولاب العتيق القديم الضخم الذي يحتفظ به جدي بجانب الفراش كنوع من الذكرى لزوجته الراحلة، خالاتي يجلسن بجانب الفراش على المقاعد الخشبية وخالي يقف أمامه ينظر إليه..

اقتربت من الفراش وأنا أنظر لهم قبل أن أقف أمام جدي النائم وجسده يرتعش، لا ليس هذا جدي الحبيب، نحل جسده وظهرت عظامه وضاقت عيناه؟!!

نظرت بحدة لإحدى خالاتي فتكلمت بين الدموع أنه توقف عن أخذ الدواء منذ أسابيع، وأنه قال لهم ذلك منذ أيام لأنه كان يكره الدواء بسبب شعوره بالغثيان عند تناوله.. اتسعت عيناي في غضب، أكملت قائلة بأسى أنه منذ أن سافرت أنا وهو يكره تذوق الطعام ويشرب الماء بصعوبة ويشتكي من ألم بمعدته، وعندما غصبوه أكثر من مرة على تناول الطعام تقيأ ما في معدته بسرعة..

كل هذا وهو يردد في كل ثانية لهم "محدش يقول لخالد".. تسارعت دقات قلبي وأنا أتخيل ما حدث، قال خالي بدون أن يلتفت لي إن جدي أوهمه أنه سيذهب إلى جلسات العلاج الكيميائي معي واعتقد خالي أنني أذهب به للجلسات في موعدها، ولكنه فوجئ به يخبره أمس أن ذلك لم يحدث.

قلت بصوت مبحوح:

- "حد جاب دكتور".

ردت إحدى خالاتي بأن الطبيب قد أتى منذ ساعات وهو يقول إن جسده صار مليئًا بالأورام السرطانية ونقلناه للمستشفى، وقد انفرد ثلاثة من الأطباء بخالي وقالوا له إن المريض يموت الآن ومن الأحسن نقله للمنزل حتى لا يواجهوا مشاكل في استخراج الجثة من مشرحة المستشفى.

فقدت القدرة على الوقوف، أريد أن أجلس.. تحسست بيدي أقرب مقعد لي فقربه أحدهم مني وجلست عليه أنظر لجدي.. ها أنا أنظر الآن لجدي الراقد يرتعش.. قدمه تتحرك قليلاً وصوت أنفاسه يعلو وكأنه يتنفس بصعوبة وصوت حشرجة يتعالى من حنجرته.

نهضت ووقفت أمام فراشه وطلبت من الجميع مغادرة الغرفة للحظات، لم يسمعني الجميع في البداية لكني كررت طلبي بنبرة أعلى، فأمرهم خالي بأن يغادر الجميع الغرفة ثم تبعهم للخارج.

أغلقت باب الغرفة وعدت لأجلس على الفراش وأنا أتمالك نفسي وأتكلم مع جدي مغمض العينين قائلاً:

- "مش عارف انت سامعني دلوقت ولا لا، أنا (خالد) يا جدو، حفيدك اللي كل اللي حواليك بيقولوا عليه ابنك، يااااه، بقالي كتير ما اتكلمتش معاك زي زمان، كوباية الشاي بلبن والبقسماط اللي كنت بحب أكله وأعمل صوت ببقي وانت تضحك عليّ وتقولي انت فاكر نفسك فار... أنا هاكلمك دلوقت وعايز أسألك على حاجة، انت ليه ما أخدتش الدوا يا جدو؟ ليه ما روحتش جلسات الكيمياوي؟ أقولك أنا ليه.. انت أكيد زعلت مني الشهور اللي فاتت دي، زعلت مني علشان

مش حاسس بيك.. مبقتش أقعد معاك زي زمان ولا باتكلم معاك ولا بسأل كل يوم عن الدوا والعلاج.. خالتو بتقول إنك كنت بتتعب من الدوا علشان كده بطلته.. بطلته ليه يا جدو؟ بطلته علشان بتتعتب منه بس والا علشان حاسس إنك مش فارق معايا؟ لما بطلته السرطان انتشر في جسمك يا جدو، أكيد انت ما كنتش تعرف، كنت فاكر الموضوع بسيط.."

قلت حركة جدي ورعشاته بينما وجهي يحافظ على جموده.

- " أنا اللي عملت فيك كده.. سيبتك وما اهتمش بيك، أيوه أنا ما اهتمتش بيك ونسيتك وكنت أنا الوحيد اللي المفروض أسأل على الدوا ومواعيده وأعرف حاسس بإيه كل يوم. أنا دلوقت واقف قدامك وانت بتموت ومش عارف أعمل إيه دلوقت؟ يا ترى لو انت سامعني يا جدو هاتسامحني؟! أنا آسف".

حركة جدي قلت تمامًا ووجدته ينقلب على جنبه الأيمن فساعدته ببطء، انتظم تنفسه وخفت حركته فقبلته على جبيته وابتسمت وأنا أعود لأجلس تلك المرة على مقعدي..

تحدثت مع جدي، تكلمت معه، قلت له النكات، من وقت لآخر يفتح أحدهم الغرفة لينظر لنا فتقابله نظراتي القوية تأمره بإغلاق الباب، فينظر لجدي وينظر لي ويطمئن أنه مازال على قيد الحياة ويغلق الباب بعدها، ظللت ساعات أجلس في الغرفة ومن وقت لآخر يتقلب جدي بصعوبة فأساعده على التقلب حتى انتصف الليل وبدأ الجميع يغادر الشقة ما عدا خالاتي وخالي، ونام الجميع في الخارج وظللت أنا

ساهرًا حتى وجدت جسده وهو نائم على ظهره ينتفض على الفراش، وقفت على قدميّ بسرعة محاولاً تهدئته، لكنه فتح عينيه ونظر لي والتقت عينه بعيني.. وشعرت بقلبي ينقبض، نظرته لي لم ينظرها لأحد في حياته، نظرة يستنجد بي بها وأنا أشعر بقلبي ينقبض أكثر.. يدي على جسده تحاول تهدئته وهو ينظر لعيني، وجسده يتحرك حركة بسيطة لا إرادية منه، ويرتعش، ويده ترتفع وتنخفض وأنا أحاول أن أمسكها.

- "ما تخافش يا جدو أنا هنا".

أقولها بصوت متهدج فيزداد جسده في الارتعاش، وتقع عيني على قدمه فأجد أنها تتصلب فجأة وتتوقف عن الحركة، فأنظر لعينيه وأنا ألقنه الشهادتين بصوت عالٍ، أرددها بسرعة وهو يجذب يده من يدي فأتركها، ولكنه أمسك رسغي بعدها وقبض عليه، ثم هدأت نظرة عينيه فجأة وهدأ جسده ورأسه يميل يمينًا على الوسادة، وبعض قطرات من الدماء تتساقط من جانب فمه.

ما هذا؟ هل مات؟ أين هو الآن؟ أين أنت يا جدي؟!

ماذا شعرت وأنت في سكرات الموت؟

ماذا شاهدت؟ لماذا نظرت لي هكذا؟ هل تألمت أمي مثلك وهي تموت؟ لقد كنت أنا السبب المباشر في موتك.. أنا أعرف أنه قدرك ولكن الأمور تجري بأسباب، وأنا كنت السبب، أنا قاتلك يا جدي، أنا قاتلك يا من ربيتني.. نهايتك كانت على يدي أنا.

غطيت وجهه بهدوء والدمع يأبى الخروج من عيني، وفتحت باب الغرفة ليقابلني من استيقظ من النوم من صوتي وأنا أردد الشهادتين،

يتساءلون فقلت لهم بهدوء إن جدي مات، ومن الأفضل ألا أسمع أي أصوات صراخ وإلا استخدمت يدي لأُسكت من يصرخ.

لم تصدقني خالتي في البداية، ولكن عيني كانت صادقة وهي تنظر لهم بحدة، وخالي يقتحم الغرفة، في حين قلت أنا من يريد أن يُلقي نظرة عليه يدخل منفردًا، أما من يريد الصراخ فسأطرده بهدوء قبل أن يُفكر في الصراخ..

حاولت إحدى بنات خالي المتواجدات الصراخ ولكنها اصطدمت بعينيّ تنظر لها بغضب وأنا أقترب منها، فخافت أن أستخدم يدي بالفعل، فكتمت صرختها بصعوبة.

دخلت غرفتي وأنا أجلس على فراشي أفكر، مات والدي ووالدتي وجدي، آخر من يربطني بأسرتي الحقيقية لحق بعائلتي، والدتي أشعر أنها بجانبي لذلك لست حزينًا بهذا القدر عليها، أما والدي فأتمنى أن أراه لمرة واحدة فقط، أريد أن أحتضنه وأقبله وأنام على صدره.. أما جدي فهو من أتمنى أن أتحدث معه لثانية واحدة فقط.

أريد أن أتكلم معه لثانية، أريده أن يسامحني على ما فعلته بحقه، أريد أن أبكي أمامه وأطلب الصفح منه.

حاولت البكاء وأنا في هذا الوضع فلم أستطع.. أعتقد أن حياتي ستنتهي بموت جدي، وعليّ انتظار موتي أنا الآخر لألحق بأسرتي للعالم الآخر.. وأن أمر بنفس المراحل التي مروا بها.

***

الفصل الثالث عشر

الساعة الواحدة ظهرًا

صرخة الأم تخترق الحارة الجانبية الهادئة لتعلن عن وفاة ابنها الأكبر ذي الستة عشر عامًا.. الرجال في الدكاكين يهرولون للمنزل الذي خرج منه الصراخ، هذا صبي الميكانيكي الذي أرسله سيده ليستطلع الأمر، وهذا الشاب الذي يعمل في محل البقالة الصغير على أول الحارة، وهذا وهذا وهذه وهذه، والكثيرون يركضون إلى ذلك المنزل المُكوّن من ثلاثة طوابق، ويصعدون إلى الطابق الأخير وهم يسمعون باقي الصرخات تخرج منه..

لا حول ولا قوة إلا بالله

لقد تُوفي (علي) ابن (سيد محروس) السائق لعربة إسعاف تلك المستشفى التي لا يعرفون اسمها، تقول والدته إنه لم يستطع الاستيقاظ باكرًا وطلب من والدته أن تتركه لينام، وبالفعل حاولت إيقاظه الآن ولكنها اكتشفت أنه فارق الحياة، حاولت النساء تهدئة الأم، والرجال يتأكدون من الجثة، والأشقاء يحاولون الدخول للغرفة والرجال يهدئون من روعهم، ظل الحال بهذا الارتباك حتى قال أحد الأشقاء:

- "حد يكلم بابا بسرعة".

قالها الشقيق الصغير فهرع الجميع يستفسر عن رقم الهاتف المحمول للأب، من كان يتخيل أن هذا الأب قد شارك الليلة السابقة في دفن ثلاثة جثث لفاقدي الأهلية، من كان يتخيل أنه بيده أدخل الجثث للمقبرة وقبض ثمنهم.. ترى كيف سيتقبل خبر موت أحد أولاده؟

***

وقفت (داليا) و(دعاء) في المطبخ وتلك الأخيرة تقول بابتسامة صافية:

- "ما تخافيش يا بت، أكيد (حاتم) كويس بس انتي اللي خايفة على الفاضي".

توقفت (داليا) عن متابعة الطبخ ونظرت لوجه شقيقتها الذي طغى اللون الأحمر عليه، وزادت الهالات السوداء تحت عينيها، وهي تجاهد لتفتحهما كي لا تنام وتترك شقيقتها لحيرتها.

- "بطلتي قراية ليه يا (دعاء) في الرواية؟ "

- "قلت أرتاح شوية وأعمل معاكي الغدا علشان بابا وماما لما يجيوا، أكيد مش هاسيبك لوحدك".

قالت (دعاء) العبارة السابقة، ثم تبعتها قائلة بعد ثوانٍ وكأنها تذكرت شيئًا ما:

- "هو انتي ليه فضلتي مصممة أقرأ الرواية بعد ما الصور اللي صورتهالك طلع فيها لون اسود؟"

- "لما تكملي قراية هاتعرفي كل حاجة؟"

فجأة سمعت الفتاتان صوت طرقات عالية على باب الشقة، فانتفضت (داليا) وهي تشهق وعيناها تتسع، مما جعل (دعاء) تنظر لها مندهشة، وكادت أن تقول لها شيئًا لولا أن (داليا) أمرتها بأن تفتح باب الشقة..

حاولت (دعاء) أن تفتح فمها للكلام، ولكن صوت الطرقات عاد مرة ثانية.. كانت ثلاث طرقات يفصل بين الطرقة والأخرى ثانية واحدة، فتبدو بطيئة.

ذهبت (دعاء) لتفتح الباب، اقتربت منه فعاد صوت الطرقات قبل أن تفتحه بثوانٍ، انتظرت حتى انتهى الطارق من الطرق وفتحت جزءًا صغيرًا من الباب معتمدة على وجود سلسلة الأمان التي تتصل من الباب للحائط، ولا تسمح له بأن ينفتح للنهاية قبل أن تتأكد من الطارق أولاً.. لكنها فوجئت بعدم وجود أحد!!!

دارت بعينيها جيدًا، لا يوجد أي شخص؟! نزعت السلسلة وفتحت الباب بالكامل، ونظرت جيدًا وهي تقول في نفسها من هذا الذي يستطيع أن يطرق الباب وفي خلال جزء من الثانية يختفي من أمامه؟!

أغلقت الباب وعادت مرة أخرى للمطبخ شاردة، ولكنها قبل أن تتخطى باب المطبخ سمعت (داليا) التي تقف منشغلة أمام الموقد تقول لها:

- "لما فتحتي الباب ملقتيش حد، صح؟"

فتحت (دعاء) فمها مندهشة، فقالت (داليا) وهي مازالت تُعطي ظهرها لها:

- "الباب هايخبط دلوقت تاني، اوعي تفتحيه لأنك مش هاتلاقي حد وراه".

هنا دوى صوت الطرقات على الباب فتصلبت (دعاء)، في حين أدارت (داليا) وجهها لها وهي ترتعش ودموع تتكون في عيناها.. ثم سقطت على الأرض فاقدة الوعي.

***

– "لو مش مصدقني شوف بنفسك".

قالتها (دينا) لشقيقها الذي يقف بالقرب من الباب، بلع ريقه وقال:

– "ازاي عرفتي إن محدش ورا الباب قبل ما أفتحه؟"

وضعت يدها بين كفيها و(أحمد) يقف متجمدًا عند مكانه بالقرب من الباب، لم تمر فترة كبيرة إلا وقالت (دينا) وهي مازالت تضع رأسها بين كفيها:

– "دلوقت الباب هايخبط لآخر مرة".

عندمنتصف العبارة عادت الدقات القوية على الباب، فجرى (أحمد) ليفتحه مرة ثالثة لكنه لم يجد من يطرقه!!! عندما نظر لشقيقته الجالسة وجدها تتناول من على المنضدة الجانبية رزمة الورق التي أصبحت لا تفارقها وهي تقول:

– "(حازم) عايز يكلمني".

اتسعت حدقتا عين (أحمد) وهو يتأمل شقيقته قائلاً:

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

المقبرة.. الظلام الرهيب والجو المقبض، الجثث المتناثرة.. جميع الجثث تحولت لعظام متناثر أو عظمة وحيدة أو أشياء غريبة لا تعرف ما هي، الجثتان الوحيدتان اللتان قد كُفنتا بالكفن الأبيض إحداهما للشاب مفصول الجسد ذي اليد المشوهة والوجه المحروق المدمر، والذي كان يُمسك بيده اليمنى علبة الخاتم قبل أن ينتزعها منه (هادي)، أما الآخر ذو اليد اليمنى والوجه المحروق والعين اليسرى التالفة.. هذا هو الذي كان على قيد الحياة قبل أن يدخلوه القبر.. إنه الآن يتحرك بصعوبة زاحفًا على تراب القبر وهو يُصدر من حنجرته صوتًا مكتومًا، يجاهد لينال الهواء وذاكرته لا تُعيد إليه التفاصيل الكاملة.

***

ظلام يحيط به فلا يرى بعينه الوحيدة، رائحة ثقيلة لا يتحملها جهازه التنفسي، لا يشعر بيده اليسرى ولكنه في نفس الوقت بدأ يشعر بضغط على كتفه الأيسر في موضع القطع، يده تتحسس التربة بلا فهم، وهو يجاهد ليتذكر ماذا حدث له، زحف قليلاً إلى جانبه، ولكنه استغرق دقيقتين ليزحف بضعة سنتيمترات، اصطدمت يده بملمس قماشي فأمسكه بعنف محاولاً تمييزه، وكأنه وقع على كنز سيُفسر له أين هو الآن وما المكان الذي يزحف داخله.

تحسس بيده الوحيدة الشيء القماشي بروية حتى وصل إلى جزء ليس قماشيًا!! ملمس طري جعل يده تنتفض لأول وهلة، عادت يده لاستكشاف نفس المنطقة فشعر أن هناك شيئًا لزجًا يلتصق بيده من ذلك الجزء الطري، فجأة وصلت المعلومة لرأسه وكأنها صاعقة كهربية سرت في جسده.

إنه يتلمس وجه إنسان مليء بالدماء، ظلام وتراب من حوله وملمس قماشي داخله رجل.. إنه داخل القبر الآن، لم يتحمل الفكرة وفقد وعيه في الحال.

***

الفصل الرابع عشر

لقد طمعت في الغداء بدلاً من الإفطار كما كنت أنوي، قمت بإعداد الدجاجة المجمدة التي اشتريتها وحشوتها بالبصل والطماطم والفلفل وبعض التوابل وأدخلتها الفرن، وقمت بسلق المكرونة، وأنا بين الحين والآخر أتوجه لغرفة نومي كي أبدل ملابسي وأعود سريعًا لمتابعة عمل الصلصة وهي تنضج على النار.

كنت أطهو الطعام بينما أفكر في موضوع المصحة التي سأذهب إليها اليوم كما قال لي دكتور (مصطفى)، فكرت فيما سأفعله عند الرجوع من المصحة وفي شكل بحثي هذه المرة، فالقيام ببحث على مرضى في مصحة ليس كالقيام به على مرضى في ظروف طبيعية، أي إن البحث سيتأثر بظروف الضغط الذي يتعرض له المريض من خلال جو المستشفى.

لا يوجد حل إلا أن أحاول مراعاة شكل الأسئلة التي سألقيها على المرضى وطريقة التعامل التي ستُحدد صدقهم من كذبهم معي، ظللت أفكر في تلك الأمور وأنا أقوم بمتابعة الطعام من وقت لآخر، وأجلس في الصالة أمسك ببعض الأوراق أخط عليها بعض الأسئلة كي لا أنسى، وفي نفس الوقت أُذكر نفسي بطرق المعاملة التي سأستخدمها مع المرضى، عن طريق قصاصات ورق عليها كلمات معينة أتركها في أماكن معينة، ترشدني لطرق التعامل ومتى أبدلها أو أتوقف عن العمل بها مع المريض إذا اتخذ نوعًا من الحيل الدفاعية.

نضج الطعام فنقلته للمائدة، وحاولت أن أفتح التلفاز كثيرًا ولكنه لم يستجب، يبدو أن الكهرباء لا تصل من الأساس لدوائره الداخلية، لا يهم، أخرجت من مكتبتي كتابًا لدكتور (مصطفى زيادة) رحمه الله، ولكني تذكرت أنني قد قرأته منذ أيام، فأخرجت كتابًا آخر قديمًا لدكتور (فرج عبد القادر طه) الذي كنت أشتري كتبه منذ طفولتي..

كان كتابًا عن مبادئ علم النفس، فتحته لأنشط معلوماتي بلغة الكتاب السهلة الممتعة، وضعته بجانبي لأقرأ قليلاً من الصفحة ثم أمضغ بعض الطعام، كنت أستخدم تلك الطريقة منذ صغري، أتناول الطعام بدلاً من مشاهدة التلفاز.

انتهيت من الطعام فرفعته من على المائدة ودخلت الحمام لأغسل يديّ، أغلقت الباب على نفسي ووقفت على حوض الغسيل ومددت يدي لأفتح الصنبور، ولكن مرآة الحمام جذبتني قليلاً.

قربت وجهي منها باستغراب حتى توقفت أمامها تمامًا.. أين انعكاس صورتي في المرآة؟!!

***

شهق شهقة كبيرة وهو يحاول أن يحرك يده من على الجثة التي وضع يده عليها يتحسسها، إذن هو داخل قبر، يا للهول يا للهول، هل مات وينتظر الحساب أم أن.. أم أن ماذا؟

أبعد يده عن الجثة وأوصاله ترتجف مما فهم.. حاول الارتكاز بيده على الأرض لينهض ولكنه فقد الوعي فجأة.

***

لماذا لا أرى انعكاسي في المرآة؟! توقفت لدقيقة أنظر للمرآة بنوع من التركيز محاولاً تأمل السطح المصقول واكتشاف إن كانت به مشاكل في التنظيف! لا جدوى من ذلك، فانعكاس باب الحمام يظهر في المرآة ولكن انعكاسي هو الذي لا يظهر.

فتحت الصنبور بشرود وأنا أغسل يديّ بالماء والصابون.. انتهيت وخرجت إلى الصالة وأنا أفكر في المرآة، لماذا لا يرى شخص ما انعكاسه في المرآة، لقد مر عليّ قبل ذلك نوع من هلاوس الفصام واضطراب الشيخوخة جعل المريض يرى انعكاسات صور لأشخاص آخرين عندما ينظر للمرآة.

وفي حالة أخرى وجد المريض صورة طفل صغير ينظر إليه من الجانب الآخر للمرآة.

هل أصبت بمرض نفسي؟! هل هو إجهاد؟ ربما لأنني أسهر الليل في القراءة والبحث وأنام في بعض ساعات النهار فأصبت بتلك الهلاوس، بالطبع لن أصرخ وأقول إنني مجنون وأنني مصاب بمس من الجان أو العفاريت، لقد قابلت حالات من الجنون التي يرى المريض فيها أشخاصًا يتحدثون معه كل ليلة، فلن أفزع من هلاوس بصرية، ولكن يجب عليّ معرفة سرها.

على كل حان الوقت لأنام قليلاً حتى أكون في كامل وعيي عندما أذهب للمصحة.

هل أنظر لمرآة غرفة نومي قبل أن أنام؟ لا لن أفعل، سأحاول تمالك أعصابي لأنام قليلاً.. دخلت لفراشي وأنا أردد بعض أدعية النوم، قبل أن أنام شعرت ببعض الألم في عيني.. أعتقد أن عيني تأثرت هي الأخرى بالإجهاد.

***

(دعاء) بدأت تفقد أعصابها فعلاً، عدم النوم، شقيقتها التي فقدت وعيها أكثر من مرة، الرواية الغريبة.. كل ذلك يدعوها لأن تفقد أعصابها ولذلك فقد بدأت بنقل شقيقتها من المطبخ وهي تُنادي على شقيقها الأصغر الذي أصابه الرعب وهو يشاهد شقيقته (دعاء) تُحاول أن ترفع (داليا) من على الأرض لتسند جسدها وتجرها لغرفة النوم.

صرخت (دعاء) في شقيقها بأن يحضر لها زجاجة العطر من الغرفة بسرعة.. جرى الصغير للغرفة وهي تحاول أن تجر شقيقتها بصعوبة، تذكرت أن زجاجة العطر موجودة في غرفتها، وهي ذاهبة بداليا إليها الآن.. لقد فقدت عقلها.

نادت على الصغير بأن يظل بداخل الغرفة، وبعد جهد استطاعت نقلها إلى هناك ووضعتها في الفراش، وجلست وهي تلهث على الفراش الآخر، ثم تذكرت شقيقتها فهرعت تأخذ زجاجة العطر من الصبي الصغير وتحاول إفاقة (داليا) برائحتها، نجحت بعد ثوانٍ في تنبيه (داليا) مع بضع ضربات خفيفة باليد على خديها كي تفيق.

جلست بجانبها وهي تشعر بالإجهاد يتملكها، ولكنها تحاملت على نفسها وطلبت منها تفسيرًا لما حدث، فتذكرت (داليا) الأحداث وكاد وجهها ينقلب مرة أخرى لولا صرخة من (دعاء) أفزعتها، لقد بدأت (دعاء) تخرج عن شعورها بالفعل وهي تطلب تفسيرًا لما يحدث حولها..

- "انتي قولتي إنك وقفتي لغاية فين في الرواية؟"

قالتها (داليا) بنوع من الإرهاق، فردت (دعاء) نافدة الصبر:

- "لغاية ما مات الكاتب وأهله دفنوه".

- "كملي بعديها هاتفهمي".

صاحت (دعاء) بغضب:

- "أنا اتخنقت، هاتقولي ولا لأ؟"

قالت (داليا) بإصرار:

- "اقري وانتي هاتشوفي بنفسك".

كان الصبي ينظر لهما برعب، فنظرت له (دعاء) وأمرته بأن يلعب في الخارج، فجرى وتركهما بالغرفة، ثم قامت (دعاء) من على الفراش وأخذت الرواية من على الكومود الخاص بها، وجلست على فراشها وفتحتها لتُكمل قراءة، و(داليا) تنظر لها وتقول:

- "قبل ما تقرأي أي كلام لازم أقولك أنا شوفت إيه امبارح بليل خلاني أصرخ".

obeikan.com

- "؟!!!!!!!!!!!"

- " العروسة اللي لابسه فستان فرح كانت هدية من (حاتم) بعد ما خلصنا امتحانات السنة دي، العروسة دي شوفت دم نازل من عينيها على الأرض، والدم بيرسم شكل قلب جواه سهمين عكس بعض، الرسمة دي كان دايمًا بيرسمها (حاتم) في الكشاكيل، وكنت أنا بأقلده وبارسمها في كل مكان".

***

على الضوء القليل الذي يأتي من النافذة رأت دميتها التي أهداها لها (حاتم) والتي اتخذت شكل عروس صغيرة ترتدي فستان زفاف، العروس ينزل سائل من عينيها يشبه الدماء!!

ينزل ليغطي فستانها الأبيض، ثم يكمل نزوله بغزارة حتى تنزل القطرات للأرض، فتحت عينيها بفزع وهي تشهق، والقطرات تتجمع على الأرض لتكوِّن رسمة مهزوزة المعالم لقلب يخترقه سهمان متقاطعان.. يا للهول!! إنها تلك الرسمة، إنها هي.

***

منزل (سيد محروس).. يقف في شقته بعدما استدعوه وفوجئ بوفاة ولده، وبجانبه وقف أحد أقربائه، وهناك زوج شقيقته ولكنه في الحمام يملأ طشتًا كبيرًا بالماء ويتأكد من خلط الماء البارد بالساخن ليصبح الماء فاترًا كي لا يؤذي الجثة.

نعم، فهذا هو غُسل جثة (علي) ابن (سيد).. قرر الجميع أن إكرام جثة الصغير دفنها، وبالتالي كان يجب أن يبدأ غُسل الجثة، وفي أثناء

ذلك يذهب البعض لاستخراج شهادة الوفاة والأوراق اللازمة، والتي ليست هامة لدفن الجثة، فهو سيُدفن بمدافن الأسرة بالقناطر.

بعد فترة حزن وبكاء من الأب بعدما عاد ملهوفًا على ولده؛ استجمع شجاعته وقرر أن يقف في أثناء غُسل جثته.

لذلك وضعوا منضدة الطعام القديمة وسط الصالة، ورُفعت السجاجيد ونُقل الأثاث ووُضعت جثة الفتى الشاخصة المتصلبة قليلاً على المنضدة، وتطوع أحد أقاربهم بأن يغسل الجثة بنفسه لأنه يعرف قواعدها الشرعية، بكل رفق خلع ملابس الصبي وهو يقول الأدعية، و(سيد) يساعده بنوع من الانقياد وكأنه لم يُفق من الصدمة بعد، ثم يغطي عورته بقطعة قماش تُداري ما تحتها.

جاء الماء وتأكد المُغسل من ملمسه قبل أن يأخذ منه بكوب نحاسي ويبدأ في صبه على جسد الفتى، ووالده يقف ناظرًا إليه بنوع من الشرود، ومن وقت لآخر يُساعد المُغسل بأن يرفع يد ابنه أو يُسند جسده أو يناول المغسل الكافور الذي أحضره الرجل معه ووضعه على هذا المقعد البعيد..

فجأة تدوي صرخة لفتاة من الخارج، فيسمع الجميع الرجال يصيحون فيها بأن تصمت، وتظل الصرخات تنفلت من وقت لآخر لدرجة أنهم سمعوا صوت صفعة قوية أسكتت إحداهن، ولم يُسمع لهن صرخة لمدة طويلة.

(سيد) ينظر لولده بشرود وأفكار متخبطة تأتي لعقله لا يجمعها خيط تفكير منطقي، ذكرى قديمة لإمام المسجد في خطبة الجمعة يقول بأن الميت يشعر بكل من حوله ويشعر بمن يلمس جسده بل ويتوجع ألمًا إذا آذاه أحدهم، لذلك المُغسل يُعامل جثة ولده برفق.

يتخيل (سيد) كل الأحداث القادمة لأنه يعرفها ويشعر أنها يجب أن تحدث، الكفن الأبيض الذي سيُلف به، الصلاة التي ستُصلى عليه في المسجد، نقل النعش إلى القبر ثم..... توقف عقله هنا مرة أخرى وكأنه لا يعلم بحق ماذا سيحدث بعد الوصول للقبر.

بدأ المغسل يتلو دعاءً بصوته الرخيم وهو يستعد ويطلب من زوج شقيقة (سيد) أن يملأ الطشت للمرة الأخيرة، ليتوضأ الفتى قبل أن يُكفن.

***

obeikan.com

الفصل الخامس عشر

الساعة الرابعة عصرًا

استيقظت من نومي مفزوعًا وأنا أنظر للمنبه، لم يرن برغم أنني ضبطته على الرابعة، جيد أنني استيقظت من تلقاء نفسي، هناك حلم ما حلمت به في أثناء النوم ولكن تفاصيله غريبة.. هناك مقبرة مظلمة وجثث وأشياء بلا معنى!!! تحاملت على عقلي وأنا أتذكر بعض التفاصيل عن جثة تتحرك في مقبرة وتستغيث، واسم مكان يتردد في ذهني.. أشعر أني سمعت ذلك الاسم قديمًا أو مررت عليه وأنا أستقل إحدى المواصلات، تذكرت أنه اسم منطقة مقابر معروفة، لماذا يتردد في ذهني مع هذا الحلم كأنني أشعر أنني أريد الذهاب لهناك، ابتسمت رغمًا عني عندما نسج خيالي قصة مضحكة تصلح للأفلام الهابطة، تخيلت أن رجلاً دخل المقبرة وهو حي ويحاول أن يستغيث بي عن طريق الاتصال العقلي، ارتفعت ضحكتي فجأة وأنا أقول في نفسي أنه يحاول إرسال رسالة من داخل القبر لي، لماذا لا يستخدم أحد عروض الهاتف المحمول، خاصة أن الرسائل مجانًا من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حتى الثامنة صباحًا، وسعر الدقيقة لأي محمول عشرون قرشًا فقط.

أكملت ضحكاتي وأنا أنهض بتثاقل من على الفراش، حان الوقت لارتداء ملابسي والذهاب إلى المصحة النفسية.

انتهيت من ملابسي سريعًا وغادرت المنزل وأنا أستقل تاكسيًا قديمًا جدًّا أشرت له، قلت له أن يذهب لفيصل وبالتحديد شارع العشرين، ابتسم لي السائق العجوز وانطلق بدون كلمة، نظرت للطريق في الخارج وأنا أفكر في شكل هذا المرض الذي أنا ذاهب لفحصه، لأن المريض من المحتمل أن يرفض الحديث باعتباره جثة وأيضًا يرفض الطعام فيضطر الممرض إلى إطعامه، ولكن هل تم تجربة الجلسات الكهربية على تلك الحالات؟!!

جاء لي خاطر مضحك عن الأفلام الساذجة التي تُصور الجلسات الكهربية للمرضى النفسيين كنوع من التعذيب أو على أساس أن الطبيب النفسي يعمل كهربائيًا بعد الظهر، ويُسرّي وقت فراغه بكهربة المرضى عن طريق جهاز مرعب الشكل، والمريض يتأوه ويصرخ.

لقد حضرت أكثر من جلسة علاج بالصدمات الكهربية وأعرف مدى دقة ذلك العلاج الذي يُستخدم في علاج بعض حالات الفصام والهذيان وجنون العظمة والوسواس القهري، وبعض حالات الصرع النادرة جدًّا، والتي يضطر فيها الطبيب لضبط كهربة المخ عن طريق الجلسات الكهربية التي تحتاج لأشعة على المخ وقياسات عديدة.

وأخذ موافقة من أهل المريض أو من المريض نفسه إذا كان على درجة من الوعي، وبعدها يقوم طبيب التخدير بتخدير المريض كليًا فلا يشعر بأي ألم أثناء الجلسة كما يتصور البعض.

تلك الجلسات التي يقوم فيها فريق عمل برعاية المريض قبل وبعد الجلسة، وحتى الأذن بالعلاج بالجلسات يتم تحت إشراف طبيب

استشاري يُراجع حالة المريض والأدوية التي لم تُؤتِ ثمارها معه، وهو من يحدد عدد الجلسات ومواعيدها.

أعتقد أنني يجب أن آخذ في الاعتبار السؤال عن تعرض الحالات التي سأزورها للعلاج بالصدمات الكهربية أم لا.

فجأة دوى صوت سائق التاكسي يقول:

- " مال ايدك يا باشا؟ "

نظرت له باستغراب فأشار إلى يدي بدهشة، نظرت فلم أجد شيئًا!!!

طلبت منه التوضيح أكثر، فأشار بيده مرة أخرى! ثم نظر لي متسائلاً بعينيه عن غبائي وعدم ملاحظتي..

لم أملك إلا أن أشكره على اهتمامه كي يهدأ، برغم أنني لا أفهم إلام يشير بالضبط؟!

***

يتناول الوالد اللقيمات ببطء، وهو بين الحين والآخر ينظر لغرفة نوم ابنتيه، ثم ينظر للأم فتنظر هي الأخرى له بحسرة:

- "أنا قلبي مش مرتاح على البنتين".

قالها الأب وهو يتوقف عن تناول الطعام، فتقول الأم وهي تمسح بعض الطعام الذي سقط على ملابس الصغير:

- "أنا لما دخلت من ساعة لقيت (داليا) نايمة و(دعاء) قاعدة تقرأ، وقالتلي إن (داليا) تعبانة شوية وهاتكمل نوم، وإنها مش هاتقدر تقوم تاكل استغربت".

ثم أشارت للصغير وقالت:

- "و(حمادة) بيقول إن (داليا) أغمى عليها في المطبخ النهاردة الصبح".

- "ما هو علشان كده قلتلك نجيب دكتور لـ (داليا)".

- "اصبر بس الموضوع مش هايحتاج لدكتور".

لن يتخيل الأبوان ما يحدث الآن داخل غرفة نوم الفتاتين.

(داليا) تنام على ظهرها مغمضة العينين، و(دعاء) تنظر للرواية بعينين زائغتين، وهي تضعها على الفراش أمامها مفتوحة على إحدى الصفحات.

استيقظت (داليا) ونظرت لشقيقتها، وقالت بصوت حزين متقطع العبارات:

- "فهمتي خلاص؟".

انتفضت (داليا) من الصوت ونظرت لشقيقتها تلومها على تلك المفاجأة.. هدأت وقالت بعدها بصوت جاهدت كي يخرج سليمًا بسبب النوم الذي يُغالبها:

- "(حاتم) كتب ليه الكلام ده؟"

أغمضت (داليا) عينيها، وتساقطت دمعة سالت فجأة على خدها ثم اختفت، فقالت (دعاء) بعدم تصديق:

- "لما يموت الكاتب أرملته هاتشوف في ليلة دفنه إن العروسة اللي لابسة فستان فرح اللي اشتراها ليها في عيد ميلادها أيام الجامعة غرقانة دم، والدم اللي نازل ده بيكوّن بركة كبيرة بتكتب كلمة حبيبي، نفس الكلمة اللي كان بيكتبها ليها في في كل مكان لما يتخاصموا، ونفس خط ايده".

أخذت أنفاسها وأكملت:

- "الأرملة هاتفتكر قصة (نصف ميت)، القصة اللي كان دايمًا يتكلم عليها قبل ما يموت.. تلاقي إن جوزها ساب ليها وسط القصة تحذيرات من حاجات بتحصل في وقت معين، هاتلاقي البطلة اللي في الرواية عندها عروسة شبه اللي عندها، وبيحصل فيها نفس اللي حصل عندها.. ده معناه إن الكاتب بيعلن ليها عن وجوده معاها.. ومعناه إن فيه حاجة عايز يقولها ليها لكنه مش عارف يكلمها.. الكاتب ماكنش عنده صرع بس، الكاتب كان بيقدر يحرك الحاجات عن بعد ويكسرها بسهولة من خلال كهربة مش طبيعية في مخه.. بعديها هاتشوف رقم جوزها بيتصل بيها على موبايلها فتفح الموبايل ماتلاقيش حد، لكن المراية اللي قدامها هاتشوف فيها صورة واحد بتتكون من الدخان!! في الرواية الصورة اللي ظهرت ليها دي صورة (النصف ميت)، وده شخص مهم لازم تحفظ شكله كويس لو ظهر ليها تاني في

أي مكان، تاني يوم الأرملة هاتجيب أخوها صاحب جوزها علشان تحكيله عن الحاجات اللي بتحصلها، وأخوها معاها الباب هايدق عليها تلات دقات ورا بعض ببطء ويسكت شوية ويدق تلات دقات برضه ويسكت شوية ويدق تلات دقات برضه، الرواية اللي مع الأرملة بتفسر صوت الدقات وتسميها (الرمز)، وإنها هاتسمع الرمز ده تاني.."

فتحت (داليا) عينيها مرة أخرى وقالت:

- "تفتكري كل اللي حصل ده صدف؟!"

كانت (دعاء) تنتظر ذلك السؤال وتخاف منه فقالت بسرعة مستنكرة:

- "فال الله ولا فالك يا شيخة.. انتي تقصدي إن (حاتم) حصل ليه حاجة وحشة؟"

ابتسمت لها (داليا) بإرهاق، ونهضت بتثاقل واقتربت من فراشها، ثم أخذت منها الرواية برفق وهي تقول:

- "نامي يا حبيبتي دلوقت".

حاولت (دعاء) المقاومة ولكن شقيقتها ربتت على شعرها بحنان وهي تعدل لها وضع المخدات، فأغمضت (دعاء) عينيها وأراحت رأسها على الوسادة وهي تغيب في النوم.

أما (داليا) فوضعت الرواية على الكومود وأطفأت ضوء الغرفة وعادت لفراشها تُفكر في آخر أيامها مع حبيبها، عندما انتهت

الامتحانات وصار عليها أن تُسافر للإسكندرية في خلال يومين على الأكثر.

المفاجأة أن (حاتم) لأول مرة منذ عرفها أعد لها برنامجًا ليومين قاما فيه بزيارة الحدائق ودخول السينما مرتين، وتناولا في اليومين الإفطار والغداء والعشاء في مطاعم كبيرة، حتى عندما تمنت أن تزور الحسين قاما بالتجوال فيه ودخول المسجد والصلاة فيه، ثم تناولا الطعام عند مطعم شهير فوجئت هي باسمه الغريب، (بحة)..

ثمانٍ وأربعون ساعة قضتها في سعادة وفعلت كل ما تمنته، وجلست في كل مكان سمعت عنه أو لم تسمع عنه، وفي النهاية قبل أن تغادر القاهرة جلست على المقهى الذي يحتفظ بمئات الذكريات لهما.

- "كان نفسي نكون متجوزين يا (داليا) دلوقت".

احمرت وجنتاها من الخجل وقالت بصوت خافض:

- "وأنا كمان".

فجأة تذكرت شيئًا، فعاد وجهها للجدية وقالت:

- "أنا ما رضتش أكلمك طول اليومين اللي فاتو على الرواية زي ما طلبت مني".

- "آه".

- " دلوقت أنا أقدر أتكلم، انت عارف رأيي يا (حاتم) في الرواية دي، من ساعة ما قريتها وأنا قولتلك عليها إنها عبقرية ورعبتني جدًّا، لدرجة إني قعدت ليالي ما نمتش من الخوف من المقابر وأشكالها ووصفك ليها".

- "أنا عارف انتي عايزه تقولي إيه".

- "لا مش عارف، انت ليه خليت الذكريات المشتركة اللي في الرواية بين البطل والبطلة تبقى ذكرياتنا وأحلامهم أحلامنا؟ دا حتى دبلة الخطوبة اللي كنا بنحلم بشكلها إنها تكون مكتوب عليها حروف اسمنا من بره الدبلة بشكل بارز.. خليت البطل والبطلة يلبسوها".

- "يا حبيبتي ما أنا قلتلك إني حطيت فيها كل مشاعري وأفكاري وكل..."

قاطعته (داليا) قائلة بنبرة حادة:

- "ليه مش عايز تجاوبني وتقولي إن البطل بتاع الرواية يبقى عنده نفس المرض زيك ونفس الرواية اللي بيألفها.. لكن الحاجة اللي معرفهاش عنك.. انت بتحرك الحاجات اللي حواليك بإرادتك؟"

- "ده موضوع كبير مش زي ما انتي متخيلة".

- "وكمان العروسة اللي اشتريتهالي امبارح ومارداتش أتكلم معاك فيها، عروسة لعبة لابسة فستان فرح، زي العروسة اللعبة اللي لابسة فستان فرح في الرواية".

كادت أن تُكمل كلماتها لولا أن قاطعها هو قائلاً:

- "الرواية دي هي أنا يا (داليا)، انتي قولتيلي اثبت نفسك وأنا أهو كتبت رواية حطيت فيها مشاعري ومخاوفي وذكرياتي، الرواية دي لو فشلت يبقى أنا فشلت ولو نجحت يبقى أنا نجحت، لأن الرواية دي هي أنا.. لو بتحبيني صحيح حبي الرواية دي واقريها كويس".

- "إيه ده؟ انت بتقول نفس كلام البطل في روايتك؟"

- "بلاش الكلام ده يا (داليا) واسمعيني.. أنا من بكره هارجع أكمل مشواري مع الناشرين يمكن ألاقي اللي يقبل ينشر لي، وفي نفس الوقت عايز أطمنك وأقولك الرواية دي خيالي أنا".

برغم تلك العبارة لكن (داليا) شعرت بالخوف ينمو داخلها.

***

توقف التاكسي أمام أحد محلات البقالة وهو يسأل عن شارع حسن حماد، ولكن البقال كان مشغولاً مع فتاة صغيرة، فقلت أنا له:

- "هو انت ما تعرفش فين شارع حسن حماد؟"

- "لا والله يا بني أنا أول مرة أعرف إن فيه شارع اسمه حسن حماد جوه شارع العشرين، مع إني من الطالبية أصلاً".

- "طب نتمشى شوية يا حاج جوه شوية يمكن نلاقي حد يعرفه".

- "نتوكل على الله.. بس يمكن الحكومة غيرت اسم شارع من الشوارع زي عادتها وسمته حسن حماد ده".

سار سائق التاكسي بي قليلاً، وفجأة أشرت له عند شارع عُلقت أمامه لافته زرقاء لامعة كُتب عليها شارع حسن حماد، فابتسم لي سائق التاكسي العجوز وتوقف وهو يضغط على الفرملة، فاندفعت للأمام قليلاً وانفتح تابلوة السيارة لتقع على قدمي صورة صغيرة داخل برواز من الذي يُعلق.. صورة لفتاة حسناء تبتسم.

- "دي بنتي".

قلت أنا بابتسامة:

- "ربنا يخليهالك يا حاج".

أخرجت حافظة نقودي وأخرجت ثلاثين جنيهًا منها وأعطيتها له، ولكني شعرت أني أعرفه، رأيته قبل ذلك ولكن متى لا أتذكر، قبل أن أغادر التاكسي قلت له:

- "احنا اتقابلنا قبل كده يا حاج؟"

ابتسم الرجل الطيب وقال:

- "أنا كمان باشبه عليك يا بني، ممكن أكون وصلتك قبل كده لمكان، المهم سامحني يا بني إني خليتك توصل متأخر".

فتحت باب التاكسي وأنا أودعه بأدب ،سار بعدها بعيدًا ودخلت أنا الشارع أبحث بعيني عن المصحة، وقد نسيت أنني لم آخذ رقمها، ها هي ذا، عبارة عن عمارة كبيرة عُلقت عليها لافتة كبيرة عليها اسم

المصحة وكلمات عن وعد المريض بالاسترخاء والراحة النفسية التي سيلاقيها داخلها.

دخلت المصحة التي تتكون من سبعة طوابق، الاستقبال عبارة عن بهو كبير أنيق يجلس به ممرضان يرتدي أحدهما ملابس عادية، قميصًا وسروالاً، أما الثاني فقد ارتدى ملابس المستشفى التي تتكون من قميص وسروال من نفس اللون الداكن، وهناك بادج معلق على جيبه كُتب عليه الاسم الذي لم أستطع قراءته لصغره.

تمشيت خطوات بسيطة داخل البهو ذو الإضاءة الخافتة المريحة للعين، ووسط بعض أواني الزرع الذي أعتقد أنه للزينة، توقفت أمام الكاونتر الذي يجلس خلفه الرجلان، تنحنحت وأنا أسأل عن مدير المستشفى، فقال لي أحدهما، وقد كان أسمر قليلاً حزين الوجه متسع العينين لا يبتسم:

- "فيه مع حضرتك مريض؟"

- "لا.. أنا جاي أقابله لأمر شخصي".

نظر الممرض لزميله الآخر بشوش الوجه، الذي ابتسم لي وقال:

- "والله ده مشي من ساعتين، لكن هو قال إنه هايرجع على الساعة 8 بليل، حضرتك تقدر تستناه هنا لو تحب لغاية ما ييجي".

قال لي ذلك وهو يُشير إلى المقاعد الجلدية في آخر البهو، فشكرته واتجهت لهناك وجلست.. استمرت جلستي لدقائق قبل أن أجد رجلاً

يجلس بجانبي، إنه ممرض يرتدي نفس ملابس طقم الممرضين هنا، لكن من تلك المسافة القريبة قرأت الاسم الذي نُحت بحروف إنجليزية صغيرة على البادج المعلق على جيبه.

(ثابت عيد)، هذا هو ما استطعت قراءته من الاسم الثلاثي المكتوب على البادج.

شعرت أن (ثابت) هذا ينظر لي بين الحين والآخر، فبادلته أنا أيضًا النظرات الخاطفة لأتفرس ملامحه، وسيم برغم سنه الذي أعتقد أنه وصل للأربعين أو في أواخر الثلاثينات.

كان ضخم الجثة حتى وهو جالس، ذو وجه أبيض ممتلئ قليلاً، وشعر ناعم برغم مقدمه رأسه الخالية من الشعر.. هذا الرجل كان وسيمًا جدًّا في شبابه على ما يبدو لي من عينيه المتوسطة وأنفه المستقيم وشفتيه المتناسقتين.

- "محسوبك (ثابت) يا باشا، أؤمرني".

قالها لي فاندهشت من عرض المساعدة الغريب هذا وهو لا يعرفني، فقال هو كأنه يرد على استفساري الذي مازلت أفكر فيه.

- "أنا شوفتك يا باشا من شوية وقفت تسأل هناك عن حاجة وبعديها قالولك تيجي تستنى هنا، أؤمرني يا باشا وأنا أخلصلك أي حاجة".

بحكم زيارتي لأكثر من مصحة تعلمت أن هناك بعض المرضين يستطيعون بالفعل صنع المعجزات من خلال معرفتهم بكل كبيرة وصغيرة في تلك المصحات، فقلت له بحذر:

- "عايز أقابل مدير المستشفى".

أخرج من جيب قميصه علبة سجائر وعرض عليّ واحدة فرفضتها شاكرًا، فأخذ هو واحدة وأشعلها وقال بذكاء:

- "الباشا شكله جاي علشان حاجة معينة، أكيد مش جاي تسأل على مريض أو تستفسر عن نظام المستشفى، صح".

- "صح".

- "طب ما تقولي يا باشا انت عايز إيه وأنا ممكن أوفر عليك المشوار لمدير المستشفى".

- "مش هاينفع يا (ثابت) علشان أنا محتاج المدير يمضي لي على ورقة معينة.. حاجة كده زي تصريح".

فتح فمه مبتسمًا وقال:

- "بعد إذنك يا باشا ما تقولي تصريح إيه وأنا أفيدك، ده المدير ده في حكم ابني الصغير، وانت سيد العارفين إننا بنبقى عارفين كل حاجة عن المستشفى أحسن من مديرها بنفسه".

شعرت أن اللعبة ممتعة، وقررت أن أكملها مع هذا الممرض، فقلت:

- "أنا جاي هنا أعمل بحث عن حالات مرضية معينة موجودة في المصحة دي، أنا بأحضر دكتوراه في علم النفس وهايفدني البحث ده قوي في اللي أنا بأعمله".

- "يبقى ده التصريح اللي انت عايزه من الدكتور علشان تقدر تعمل البحث بتاعك، صح؟"

رددت عليه مبتسمًا:

- "صح يا (ثابت)".

أخذ (ثابت) نفسًا طويلاً من السيجارة وقال لي بنبرة خافتة:

- "مش هايديك التصريح"

- "ليه؟!!"

- "خدها مني كلمة يا دكتور، أنا أعرف المدير أكتر منك وعارف إنه مش هايديك التصريح علشان تشوف المرضى وتعمل عليهم بحث، من سنة باين جه طلاب في خدمة اجتماعية وطلبوا تصريح برضه زيك وهو رفض على طول، وقعد يقول إن دي هيافة لما شوية عيال بيدرسوا عايزين يقفوا قدام المرضى ويلعبوا في عقولهم".

توقعت أنا شيئًا مشابهًا ولكني كنت أعتمد على لباقتي معه لأقنعه بأهمية هذا البحث، إذن ضاعت آمالي في البحث.. إلا إذا:

- "انت محتاج البحث ده قوي يا دكتور؟"

قال (ثابت) العبارة السابقة وهو يفكر بعمق، فقلت أنا وقد فهمت مقصده:

- "أكيد محتاجه يا (ثابت).. تقدر تساعدني؟"

- "طبعًا يا دكتور، بس انت ما فهمتنيش، حالات إيه دي اللي بتتكلم عليها؟"

نظرت باتجاه المرضين الجالسين خلف الكاونتر، فوجدتهما منشغلين تمامًا في الحديث:

- "عندكم يا (ثابت) فيه مرضى عندهم حالة غريبة.. فاكرين نفسهم جثث، أو بمعنى تاني هما فاكرين إنهم ماتوا وإنهم جثث دلوقت، وفيهم اللي لا بياكل ولا يشرب لوحده، وفيهم اللي بيتكلم، تعرف حد منهم؟"

نظر لعيني وهو يهرش أعلى رأسه:

- "لكن انت عرفت منين يا دكتور إن فيه حالات بالمواصفات دي هنا؟!"

- "أنا مش قلتلك أني باحضر دكتوراه في علم النفس؟ الأستاذة بتوعي في الجامعة هما اللي دلوني على هنا يا (ثابت).. بس شكلك بيقول إنك تعرف الحالات دي".

أخذ (ثابت) آخر نفس في السيجارة ثم أطفأها في كعب حذائه، وابتسم لي:

- "كلك نظر يا دكتور".

- "ماتخافش يا (ثابت)، أنا حبيتك من أول ما شوفتك وهاريحك على الآخر، بس طمني انت الأول".

- "بص يا دكتور، انت تخرج من المستشفى دلوقت وتقول للي قاعدين هناك دول إنك هاتيجي للمدير بكره، وتجيلي الساعة 11 ونص الليلة، اوعى تيجي قبل كده علشان دي الوردية بتاعتي، هاتلاقيني قاعد هناك على الكرسي ده، ولما تيجي أنا هاظبطك على الآخر، بس ماتنسناش احنا بقى".

ابتسمت أنا أيضًا له وأنا أنهض لأستعد لمغادرة المصحة.

***

– "هاهاهاهاها مبروك يا (فضل)".

– "الله يبارك فيك يا (مصطفى)، عقبال بنتك".

– "ما قلتلك نجوز العيال لبعضهم، انت اللي تخنت دماغك".

– "القلب وما يريد يا شقيق".

شرب (عبد الحي) آخر جرعة من كوب الشربات وهو ينظر لابنته وهي تجلس بجانب عريسها، والأغاني تختلط بأصوات الشباب الذي يُهلل للعريس والفرحة تملأ المكان، أغمض عينيه بسرعة والألم يتزايد في صدره وشعوره بالغثيان يُعاوده، خاصة بعدما شرب من الشربات الذي يُقدم في الفرح، ابتسم وفتح عينيه مقاومًا الشعور بالغثيان كي لا تُلاحظ ابنته الوحيدة ألمه.. ما أجمل عين ابنته، تأملهما والأفكار السوداء تُعاوده عن لحظات موته التي اقتربت، ربما كانت تلك هي آخر مرة يرى فيها عين ابنته، وربما ظل بضعة أيام ليتمكن من توديعها جيدًا، ولكن الآن يجب أن تستمر فرحتها ولا يعرف باقتراب موته أحد.

نهض فجأة وهو يُصفق بيديه محاولاً الاندماج مع الشباب وهو يُغني مع الجميع.

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

الفصل السادس عشر

الساعة الثامنة ليلاً

مقاعد الفراشة الحمراء يجلس عليها الرجال أمام المنزل ينتظرون خروج الجثة، والبعض يتساءل عن سبب عدم دفنها منذ ساعات، ولكن كنوع من الأدب يجب عليهم السكوت والانتظار، خاصة وأنهم متأكدون أن (علي) سيُدفن الليلة.

أما داخل المنزل ستجد أن الشقق في الطوابق الثلاثة مفتوحة الأبواب، وداخل كل شقة ينتظر المعزين لأن جيران (سيد) تطوعوا باستضافتهم، فشقة (سيد) لن تسع بالتأكيد كل هذا العدد، وخاصة النساء كي لا يختلطن بالرجال، ولكن برغم كل تلك الشقق المفتوحة الأبواب ستجد بين الحين والآخر بعض الرجال يقفون على السلم لتدخين سيجارة.

في شقة (سيد) في الطابق الثالث يجلس بالداخل بعض الرجال فقط بجانب (سيد)، وقد اتفق الجميع على عدم وجود النساء في نفس الشقة التي تحتوي على جثة (علي)، كي لا تتأثر إحداهن وتُطلق الصرخات والعويل.. في الصالة يجلس (سيد) صامتًا وأحد الرجال يتحدث مع من بجانبه بصوت عالٍ.

- "صلاة العشاء هانزل نصليها كمان شوية، ولازم نصلي على الجثة بعد العشاء على طول علشان المصليين اللي في المسجد يصلوا معانا، لو فاتت صلاة العشاء علينا تبقى خسارة كبيرة".

- "ماهو احنا مستنيين باقي قرايب (سيد) من البلد علشان نلحق ندفنه".

- "كده مش هانلحق واحنا قدمنا مشوار طويل للقرافة في القناطر، وهانتعب قوي بليل واحنا بندفن".

دخل الشقة فجأة رجل يرتدي بذلة سوداء وربطة عنق، وهو يقول بلهفة إن الرجال وصلوا من البلد وهم وراءه على السلم الآن، العبارة جعلت من بالشقة ينهض استعدادًا لمصافحة الرجال، ومن ثم نقل الجثة للمسجد للصلاة عليها.

***

تتلفت (داليا) حولها جيدًا وهي تنظر بحذر، ثم تفتح هاتفها المحمول وتبحث بين الأرقام، وهي تقول في نفسها أن تلك هي المرة الألف التي تتصل بهاتف (حاتم) وتجده مغلقًا.

لم يبقَ أمامها إلا صديق (حاتم) الحميم (علاء) الذي أخذت رقمه منذ أيام دخول (حاتم) للمستشفى، هي تعتقد أنها مازالت تحتفظ برقمه حتى الآن، ظلت تبحث بين الأرقام في هاتفها المحمول حتى وجدته، فضغطت زر الاتصال وانتظرت حتى سمعت الجرس المنتظم:

- "ألو.. (علاء) معايا؟"

- "أيوه يا أفندم مين معايا؟"

- "أنا (داليا) يا (علاء) زميلتك في الكلية".

- "يااااه أخبارك إيه يا (داليا)؟ عاملة إيه؟ أكيد بتتصلي بيا علشان تشكريني".

- "أشكرك على إيه؟"

- "على الدبلة بتاعتك، ألف مبروك يا..."

قاطعته (داليا) وهي تقول بسرعة:

- "ممكن تفهمني فيه إيه؟"

- "الله!!! مش (حاتم) عندك من أول امبارح؟"

- "عندي فين؟ احكيلي بالتفاصيل لو سمحت".

- "(حاتم) كلمني في التليفون يوم الأربعاء اللي فات، وقال لي إنه عايز يعمل دبلتين مخصوص بشكل معين علشان أسماءكم تبقى بارزة عليها من بره، وأنا قلتله سيبلي الموضوع وكلمت قريبي اللي عنده محل دهب، والراجل في خلال تلات أيام بالظبط كان مخلص الدبلتين، وجه (حاتم) من القاهرة وهو فرحان وبيقول إن ربنا كرمه قوي وفيه ناشر قِبل ينشر أول رواية ليه، وإنه أخد مقدم من الناشر ده، ودفع فلوس الدبل وأخدهم، وقال إنه نازل القاهرة تاني علشان يتابع حاجات

قانونية مع الناشر، وهايسافر بعديها على إسكندرية علشان يخطبك.. هو ما جاش لغاية دلوقت؟"

دبلة منقوش عليها اسماهما!!! إن (حاتم) يصر على تنفيذ ما في قصة (نصف ميت)!!!

***

يرفع الناس أصواتهم بالدعاء وهم يقفون قريبًا من القبر..

(هادي) يقوم بتسوية الأسمنت بعد أن أدخل هو والرجال جثة تلك الزوجة الصعيدية الشابة، وفتى صغير لم يتعدَ الثامنة يقف ممسكًا بيد والده ينظر للقبر الذي يحوي جثة والدته غير مصدق، والكشافات البيضاء تتوجه ناحية (هادي) وهي ترسم له الظلال الضخمة على الأرض، والعرق يتجمع على جبينه وهو يُزيح بعض التراب عنه ويقف أمام القبر يقول بعض الأدعية، ويرفع يديه أمام عينيه..

هناك شعور ينتابك في بعض الأوقات بأن عليك أن تنظر باتجاه معين فجأة، انتابه هذا الشعور فنظر على يساره بعيدًا عن تجمع الرجال، وهو مازال يرفع يديه ويقول الأدعية..

وسط الظلام (علي) يقف هناك، ينظر إليه..

استمر فم (هادي) في ترديد الدعاء بطريقة آلية وهو مازال ينظر بعينيه لـ (علي) الذي نظر له بثبات، لا، تلك النظرة ليست طبيعية، إن (علي) ينظر إليه بنوع من الاتهام هذه المرة، نعم نوع من الاتهام، وإلا لماذا رفع يده وأشار بها ناحية قبر السيدة التي انتهى (هادي) من دفنها

للتو؟!!! (علي) يُنبه (هادي) أنه يعرف أنه سيتصل بـ (طاهر) الليلة مرة أخرى.

***

نار، نار تشب في ذراعه اليسرى، أو بالتحديد مكان قطع ذراعه الأيسر، لقد عاد له الألم مرة ثانية ليستيقظ من الغيبوبة وهو يُحرك يده بحركة عشوائية خائفة.. هناك بعض الإدراك عاد له مرة ثانية وهو يرفع يده ويتحسس وجهه ويرتجف مما يشعر به.

لقد تغيرت ملامح وجهه تمامًا من تلك الزوائد التي تكونت فيه، وهو بالطبع لا يعرف أنها تكوّنت من الحروق التي تعرض لها، وحتى عينه التالفة التي شعر بألمها وتوقع أنها مصابة، لم يتوقع أنها تلفت للأبد من إحدى الشظايا التي اخترقتها.

صور مشوشة تعود لذاكرته عنه وهو يجلس في مقعد بحافلة تتجه إلى مكان ما، بجانبه شاب يبتسم وهو ينظر لعلبة حمراء ثم يختفي المشهد بسرعة لتتداخل بعد ذلك مشاهد كثيرة لأصوات صراخ وانفجار ونار وأصوات، ثم ظلام تام.

يجب أن يصرخ.. أخذ نفسًا من فمه فشعر بألم في صدره، ولكنه تحامل وحاول الصراخ، فخرج صوت غريب من حنجرته.. إن عدم دخول مياه لجوفه مدة كبيرة كان له تأثير على صوته، ولكنه الآن لا يفكر في العطش بل يفكر في الخوف، إنه في المقبرة ينتظر مصيره، أن يموت دون أن يشعر به أحد، مد يده اليمنى السليمة وحاول الزحف بها ولكنه فشل، محاولة أخرى و.. وأظلمت الدنيا في عينيه.

***

شركة (t.m.devon) للنقل

إحدى شركات

مجموعة (طاهر محمد مصطفى)

خُطت العبارة السابقة على لافتة كبيرة عُلقت على سور كبير ضخم بأحد أحياء مصر الجديدة، السور ينتهي ببوابة حديدية ضخمة وقف عليها رجال الأمن، ومن الداخل في الساحة توقفت عربات نقل وحافلات وبعض الأوناش مختلفة الأحجام.

من الداخل ثلاثة مبانٍ، كل مبنى منهم يتكون من طابقين، إلا مبنى واحدًا يتكون من أربعة طوابق، وفي الطابق الرابع تقبع غرفة مكتب مدير الشركة (طاهر مصطفى)، الذي جلس في مكتبه أمام شاشة الحاسب الآلي ينظر له ويتحدث مع شخص يجلس أمام المكتب وهو يضحك ويشير للشاشة.

يأخذ نفسًا من سيجارته ويتكلم مع الرجل الجالس أمامه بخصوص شيء ما، وهو يضحك بين الحين والآخر.

جرس هاتفه المحمول يرن فينظر بلا مبالاة إلى شاشة الهاتف ليعرف من المتصل.

ولكنه يهتم فجأة من تغير ملامح وجهه، ويطلب من الرجل الجالس أمامه أن يغادر المكتب لدقائق، فينهض الرجل بتثاقل وهو يقول له:

- "أنا جايلك كمان شوية".

يغادر المكتب ويُغلق بابه خلفه فيرد (طاهر) على الهاتف ويتحدث بصوت خافض، إنه (هادي) يخبره بأن هناك مفاجأة جديدة تنتظره الليلة عنده، ابتسم (طاهر) وهو يستمع لـ (هادي) الذي طلب منه الحضور كما كل ليلة في نفس الموعد..

أبلغه أنه سيكون عنده الليلة حوالي الساعة الثالثة صباحًا لانشغاله الليلة بعمل ما.

أغلق الهاتف وضغط على زر الديكتافون المجاور له وهو يستدعي الرجل الذي لم يكن سوى صديقه الشخصي ونائبه في مجموعة الشركات، جاء الرجل وهو يبتسم، وقبل أن يجلس على مقعده قال له وهو يغمز بعينيه:

- "شكل الموضوع فيه حريم الليلة".

أطلق (طاهر) ضحكة عالية وهو يومئ برأسه ويقول:

- "عندك حق يا أبو علي، فيه حريم الليلة، وشك حلو عليّ".

***

openkan.com

الفصل السابع عشر

الساعة الحادية عشرة والنصف تمامًا

وصل المشيعون للمقابر متأخرين بعدما انتظروا باقي العائلة بعد الصلاة على الميت، وسيارتهم تتوقف أمام منطقة المقابر، من داخل المقابر جاء ثلاثة رجال من العائلة يهرولون، كانت مهمتهم هي انتظارهم عند المقابر وفتح القبر وتهويته قبل وصولهم بساعات، وتنبيه عامل المقابر على وصول الجثة الليلة. الرجال يسيرون والكشافات الضخمة تُنير لهم الطريق بين المقابر، تلك المقابر بُنيت بنظام مخالف للمقابر الطبيعية، فهي على شكل غرف فوق الأرض وليس تحتها، لأن الأرض في تلك المنطقة طينية، وبمجرد الحفر فيها لمسافة تتعدى أقل من المتر يُقابلك الطين، وتبدأ المياه الجوفية في الصعود.. لذلك قرر الأهالي منذ سنوات بناء مقابرهم على شكل غرف فوق الأرض تُرص الجثث في كل غرفة بجانب بعضها، مع وجود اللحد الذي يصففه التربي من الأحجار حول الميت بعدما يحفر حفرة بسيطة جدًّا، لا تصل حتى لنصف متر، لم يبدأ الناس في بناء المقابر بهذا الشكل إلا بعد أن أخرجوا فتوى من الأزهر عن صلاحية دفن الجثة فوق مستوى سطح الأرض، محاطة باللحد المصنوع من قوالب الطوب، بسبب الأرض الطينية التي ستُغرق التربة لو حُفر بها.

توقف الرجال أمام قبر عائلة (سيد) وأنزلوا الخشبة بهدوء.. باب القبر الصغير المبني على ارتفاع متر عن الأرض - والذي لا يزيد عرضه

عن متر وطوله عن متر أو يزيد قليلاً – كان مفتوحًا، دخل التربي القبر ومعه الكشاف بعد أن قفز داخله بصعوبة، وتبعه إليه أحد الرجال.

فجأة وقف عند باب القبر رجل من أقارب زوجة (سيد) له لحية خفيفة ويرتدي جلبابًا بني اللون، نظر له (سيد) وقد عرف أنه سيُلقي موعظة ما عن الموت، الحقيقة أن (سيد) بدأ يستعيد عقله مرة أخرى ويتخيل ما سيحدث الآن.. بدأ الرجل يتكلم ويعظ الناس و(سيد) يفكر بسرعة وكأنه استعاد ملكة التفكير الآن فقط.

- "يا إخواني، نقف اليوم على قبر أخينا (علي) رحمه الله، نقف لندعو له بالمغفرة.."

- "آمين".

نظر (سيد) إلى جثة ولده الملفوفة في الكفن الأبيض، وهو يقول لنفسه:

(هنا ترقد جثة ولدي).

- "ندعو له بالرحمة والعتق من النار".

- "آمين".

(سيدخل ولدي الآن للقبر، ونضعه في الحفرة التي يسمونها اللحد، سنكشف وجهه ونسنده كي يبدأ الحساب).

- "اللهم خفف عليه ظلمة القبر".

- "آمين".

(سنترك ولدي في الظلام وحيدًا في القبر).

- "لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بقدر".

سقطت الدموع من عين سيد.

- "اللهم ثبته عند الحساب".

- "آمين".

رفع (سيد) عينيه الدامعة إلى القبر.. فرأى التربي يقف داخله ينظر للجثة ويحمل الكشاف!!! توقفت دموع (سيد) عن النزول وهو يتفرس في ملامح التربي.

- "اللهم بدد ظلمة القبر عليه".

- "آمين".

تلك العينان، تلك النظرة.. لقد رأى مثلها أمس، رأى مثلها أمس على وجه (هادي).

- "اللهم ثبته عند السؤال في القبر".

- "آمين".

(هادي) الذي كان ينظر للجثث الثلاثة بنوع من الاشتهاء، هذا التربي ينظر نفس النظرة لولده!!! نظر (سيد) لجثة ولده ثم نظر للتربي الشاب الذي يقف ناظرًا إليها.

- "اللهم أبدله دارًا خيرًا من داره وأهلاً خير من أهله".

- "آمين".

اتسعت عين (سيد) وهو يقول في نفسه:

(هذا الرجل سيسرق جثة ولدي).

(سيتسلل بعدما يغادرون القبر ليبيعها مثلما يفعل (هادي)).

- "اللهم أدخله جنتك واعصمه من نارك".

- "آمين".

(لا لن يحدث هذا، لن يحدث هذا، لن يحدث هذا).

- "ادعوا لأخيكم (علي) بما يعتمل في صدوركم".

رفع الناس أكفهم وهم يدعون بصوت منخفض، إلا (سيد) الذي توقف وهو ينظر للجثة طويلاً، حتى إن أحد أقربائه لاحظ ذلك، فحاول أن يقترب منه ويقلل انفعاله الذي بدأ يظهر على وجهه، انتهى الرجال من الدعاء واقترب رجلان من الجثة ليرفعاها.

- "سيبوا (علي) مكانه".

obeikan.com

قالها (سيد) بحدة يأمر الرجلان بأن يبتعدا عن الجثة، فهم الناس ما يحدث وقد توقع البعض أن ينهار (سيد) الآن، ولكنه لم يعطِ فرصة لهم، وذهب عند الجثة ونزل على ركبتيه بينما الأيدي بدأت تُمسك بملابسه لتمنعه، وهو مازال يقول للجميع بصوت قوي:

"ابعدوا عن (علي)".

رفع جثة ولده قليلاً وهو يحتضنه، والرجال الآن يفصلونه برفق عن ولده، والعبارات تنهال عليه بالصبر والهدوء وقضاء الله، وهو يصيح ويصيح والدموع تنزل من عينيه، حتى فجأة قال وهو يصيح بصوت جهوري:

- "التربي عايز يبيع جثة ابني زي ما بعت أنا الجثث امبارح".

توقف الناس فجأة ثم تعالت الاستفسارات، وبدأت النظرات الغريبة تُوجه للتربي الشاب الذي أنكر بشدة و.. حاول الناس التكلم مع (سيد) الذي يحتضن جثة ولده، ولكنه لا يجيب!!! نادى عليه الجميع ولكنه سكت فجأة ومال رأسه للأمام، فأصبح جالسًا على ركبتيه وهو يحتضن ولده ورأسه على كتفه.. هزه الناس فسقط هو وولده.

تعالت الشهقات.. لقد مات (سيد).

***

القبر مرة أخرى، مد يده اليمنى ليمسك بها أي شيء، ثم أخذ يزحف، تلك المرة استعاد جزءًا كبيرًا من وعيه وشعوره بالألم، واستعاد أيضًا شعوره بالعطش والجوع الشديد، وربما لأن شعوره

الآن اقترب من الشعور الطبيعي، عادت عزيمته تشتعل مرة أخرى ليحاول الخروج من هذا القبر بأي طريقة، تلك المرة زحف كثيرًا حتى اصطدمت يده بحائط، تلمس الحائط جيدًا ثم غير اتجاه زحفه لليمين أكثر.. دقائق يسرقها الزمن وهو يزحف أكثر باتجاه اليمين، يزحف أكثر وأكثر حتى اصطدمت يده بملمس حجري مرة أخرى، فتحسسه هو أيضًا محاولاً تخيل شكله.

درجة سلم، الحمد لله، ولكن كيف يزحف ليصعد هذا السلم؟!! حاول أن يصرخ ولكن صوته خرج متحشرجًا ككل مرة، حتى إن حنجرته آلمته، فقرر ألا يصرخ بهذا الشكل الآن.

ذراعه اليسرى التي لا يشعر بها تُعطيه شعورًا مرعبًا لأنه حاول استخدامها بطريقة لا إرادية حتى يستند عليها، ولكنه تذكر عدم وجودها، ثنى ذراعه الأيمن تحت جسده، ثم ثنى ركبتيه وهو يشعر باحتكاك جسده بالتراب ويشعر بجروح جسده التي لا يراها تلسعه ألمًا، ها هو استطاع أن ينصب جسده على ركبتيه ويده اليمنى تسنده.. قدّم ركبته اليسرى للأمام ثم اليمنى، ثم حرك يده ببطء لترتكز على أولى درجات السلم ليبدأ الصعود الهادئ.

لماذا يشعر فجأة بألم في ذراعه اليسرى الآن و.. أتلك عينيه التي تُحرقه، لا يهم الألم الذي يأتي من كل قطعة في وجهه وجسده، فليس هناك وقت لتحديد اتجاه الألم الآن، درجة ثم الثانية ثم الثالثة ثم، ما هذا؟ صداع قوي يُمسك رأسه بقبضة حديدية وأصوات كثيرة تتكلم، من شدة الألم رفع يده التي يرتكز عليها ليُمسك رأسه، فوقع على السلم لتصطدم رأسه بالدرجات مرة ثانية ويغيب عن الوعي.

***

فتحت (دعاء) عينيها في ظلام الغرفة وهي تشعر بنوع من ارتخاء الجسد بعدما نامت فترة لا تعلم مدتها، ولكنها كانت كافية لتشعر بلذة الاسترخاء، من الواضح أنها مازالت في المساء، فجأة تذكرت شيئًا هامًا.. موضوع (حاتم) والرواية، نهضت من على فراشها بسرعة حتى إنها شعرت بدوار لحظي بسبب انخفاض ضغط الدم البسيط الذي يحدث نتيجة النهوض المفاجئ من وضع النوم.

تحسست طريقها في الظلام باتجاه باب غرفة النوم لتفتحه وتخرج للصالة المظلمة، ولكن ضوء النافذة الذي يدخل فيسقط على الأثاث كان ينير لها الطريق، حانت منها التفاتة للنافذة فلمحت شخصًا يجلس في الشرفة، فتوقعت بالطبع أنها (داليا).

فتحت باب النافذة الزجاجي ورأت (داليا) تجلس على مقعد خشبي، تعطيها ظهرها لتنظر إلى الشارع، تنحنحت فلم تنظر لها، اقتربت منها وهي تضع يدها على كتفها، ولكنها لم تتأثر أيضًا!!! نادتها باسمها فنظرت لها هذه المرة.. أطلقت (دعاء) شهقة وهي تنظر لوجه شقيقتها الذي لوثته الدماء حول عينيها اليسرى!!

قالت (داليا) بهدوء:

- "ماتخافيش، ده مش دمي".

لم تشعر (دعاء) بنفسها إلا وهي تنحني وتضم شقيقتها لصدرها، وكادت أن تبدأ بالبكاء لولا صوت شقيقتها تقول:

- "كملي قراية نصف ميت".

- "إيه اللي حصل لعينك".

- "كملي قراية نصف ميت".

- "فيها إيه الرواية تاني؟"

- "كملي قراية نصف ميت".

نهضت (داليا) وشقيقتها مازالت تحتضنها، وأبعدتها برفق عنها وهي تُربت عليها بحنان، فنظرت (دعاء) في عينها تتأمل بقعة الدماء المرتسمة حول العين على شكل دائرة.

- "دي آخر علامة يا (دعاء)".

- "يعني إيه؟"

- "(حاتم) مات خلاص".

كانت تقولها بنوع من التقرير وملامح وجهها متجمد، فقالت شقيقتها بحدة:

- "بتقولي إيه؟!"

- "اقري وانتي تعرفي إيه اللي حصل".

تركتها (دعاء) وخرجت تتحسس طريقها للصالة بحدة، ثم تدخل غرفة النوم وتفتح الأضواء لتأخذ الرواية الموضوعة على الكومود بغضب وتفتحها على الصفحة التي توقفت عندها وتبدأ القراءة.

***

لم تُصدق نفسها وهي تقرأ الورقة، تركتها جانبًا وأكملت بحثها في مكتب زوجها وهي بين الحين والآخر تنظر إلى صدرها ولبقعة الدماء التي تجمعت عليه، فجأة شعرت بدوار وبأن....

(مقطع من الرواية الأصلية)

***

(مدافن عائلة أبو العنين 1911) تأمل (علي) اللافتة الرخامية المكتوب عليها تلك العبارة بعدم فهم، كان جالسًا أمام الحائط الذي يعشقه ينظر له وسط الظلام.. مع عين اعتادت الظلام أصبح يرى جيدًا وخاصة ليلاً، كان ينظر للحائط ثم ينظر للأرض بخزي وهو يتذكر تفاصيل الليلة السابقة التي دعاه فيها الرجل الطيب كما كان يقول إلى أن يذكر الله، نظر للحائط مرة أخرى ثم أخرج صوتًا من حنجرته كأنه يكلمها، صوتًا مبحوحًا، الغريبة أنه ظل يُخرج هذا الصوت كأنه يُكلم الحائط لدقائق ويشير بيده المتسخة يمينًا ويسارًا، حتى توقف فجأة وعيناه تتسعان وثغره يبتسم، ويسكت قليلاً وهو يتأمل الحائط.

فجأة نهض وهو يبتسم للحائط ودموع تتساقط من عينيه، وكأنه سمع خبرًا سعيدًا، أو كأنه شعر بشيء أراح مشاعره، نظر للحائط نظرة أخيرة ثم غادر حوش الشيخ أبو العنين وهو يبتسم.

***

الفصل الثامن عشر

دخلت المصحة النفسية ولكن هذه المرة بعد الساعة الحادية عشرة والنصف، كما قال لي (ثابت) الممرض الذي يعمل بالمصحة، تخطيت الباب المفتوح قليلاً في نفس الإضاءة الخافتة وأنا أندهش من شيء لا أتذكره، ولكنه أثار دهشتي جدًّا.. (ثابت) يجلس خلف الكاونتر مكان الرجلين السابقين، فاتجهت إليه رأسًا وأنا أصافحه، فقال لي بصوت خافض:

- "في ميعادك يا دكتور".

- "أنا قولت أجيلك الساعة 12 إلا ربع علشان تكون في الأمان".

- "الله ينور عليك يا دكتور".

أريد أن أضحك من ذلك التفخيم الذي يمارسه معي (ثابت) عندما يلقبني بدكتور، برغم أنني نبهته أنني أُحضر الدكتوراه ولم أحصل عليها بعد.. ذلك هو الذي يدرسه أشهر خبراء المبيعات في العالم عندما يُعلّمون رجل المبيعات استخدام الألقاب الشرفية أثناء إتمام الصفقات بطريقة معينة لرفع شأن العميل، ولكن تُستخدم الألقاب بطريقة محترفة كي لا يشعر العميل بأنه يُخدع من قبل رجل المبيعات. قام من خلف الكاونتر وهو يدور حوله حتى أصبح أمامي، وكنت أنا قد أخرجت النقود من جيبي وهو يغادر الكاونتر، فبمجرد أن وقف أمامي مددت يدي أضعهم في يده، وهو يقول لي:

- "ما تخلي يا دكتور، والله أنا مرتاحلك لله في لله مش مسألة فلوس".

- "وأنا كمان مرتاحلك يا (ثابت)".

نظر (ثابت) حوله وهو يقول:

- "قولتلي بقى يا باشا عايز تزور أنهي مريض؟"

- "يا (ثابت) انت عارف كويس أنا أقصد أنهي حالات أنا عايز أشوفها".

سعل وهو يُمسك صدره من قوة السعال، ثم قال لي:

- "بس أنا خايف المرضى يعملوا مشاكل أو.."

- "أنا هاقولهم إني دكتور ماتخافش، ثم نوعية المرضى اللي أنا عايز أشوفها مش هاتعمل أي مشاكل".

- "انت قولتلي إنك عايز تشوف اللي عندهم فوبيا الموت".

توقف عقلي لحظة من الدهشة من لفظة فوبيا الموت، لأنها أولاً ليست الاسم العلمي لوصف الخوف المرضي من الموت، ثانيًا أنا لم أقل تلك الكلمة فكيف عرفها؟ وكأنه شعر بما يدور في عقلي فابتسم وقال:

- "أنا خريج حقوق يا دكتور واشتغلت كتير مع الدكاترة وعارف أمراض كتير قوي، وأقدر أصنفها كمان لو عايز".

obeikan.com

ابتسمت رغمًا عني وقلت له:

- "لا يا (ثابت)، أنا قلتلك الصبح أنا عايز أنهي نوع من المرضى، أنا عايز المرضى اللي فاكرين نفسهم جثث.. معتقدين إنهم أموات أو ماتوا في حوادث".

لماذا يروادني إحساس أن (ثابت) يعرف من البداية عما أتكلم لكنه يلاوعني لسبب ما.

- "تعالى ورايا".

قالها فجأة بدون تفاهم وهو يسير بخطى واسعة باتجاه السلم، فتبعته بسرعة قبل أن أفقده، وأنا أفكر أن تلك المصحة غريبة، لأنني لم أشاهد مصحة بُنيت بذلك الشكل وكأنها مستشفى عادية لاستقبال المرضى، وبلا ساحة صغيرة أو حديقة خلفية!!! صعدنا طابقًا واحدًا فوجدت نفسي في ممر طويل مليء بالغرف على الجانبين، والممر نفسه مضاء بإضاءة خافتة جدًّا، تكاد تتبين طريقك وأنت تسير.

- "فيه عنبر فيه طلبك يا دكتور.. إلا أنا ما اتشرفتش باسم حضرتك".

قالها (ثابت) وهو يسير وأنا وراءه، فرددت:

- "اسمي (خالد)، لكن ما قلتليش إيه حكاية العنبر ده".

- "العنبر ده فيه حالات بتتعالج من زماااااان، وأنا ما اشتغلتش مع المرضى هناك لكن أعرف إن حالاتهم غريبة، وفيه ناس جربت عليهم كل حاجة".

- "طب تعرف الأدوية اللي استخدموها، أو أخدوا جلسات كهربية مثلاً؟"

- "مش عارف، لكن سمعت إن اتجرب عليهم أدوية الاكتئاب، بس الجلسات الكهربية ما أظنش حد جربها عليهم، أو أنا ما أعرفش يمكن اتجربت".

لحظة.. عنبر يحتوي على مرضى من نفس نوع المرض، استخدام عنبر ليجمع عددًا من المرضى أمر صعب، ولا يحدث إلا في المصحات الكبيرة التي تخضع لإشرافات طبية ومتابعة دقيقة، أو بعض المصحات الضخمة جدًّا والتي يُمكنها متابعة تلك العنابر حتى لا يحدث اختلاط بين المرضى وأفكارهم، فيزداد المرض تعقيدًا، كيف لتلك المصحة أن تجمع نفس الحالات في هذا العنبر المنفرد؟!!

- "انت شغال هنا من امتى يا (ثابت)؟"

رد عليّ (ثابت) بدون أن ينظر لي، وهو يجتاز الممر وأنا وراءه:

- "من زمان قوي، من قبل ما المدير الحالي يمسكها".

دخل (ثابت) في ممر على اليمين فتبعته، ثم ممر أيمن أيضًا، ثم أيسر، ثم سرنا في ممر أطول من الممر السابق، وهو يقول:

- "قربنا نوصل خلاص".

نظرت لساعة يدي فوجدتها الحادية عشرة وخمسين دقيقة.

- "12 إلا عشرة يا دكتور".

قالها (ثابت) عندما لاحظ أنني أنظر لساعتي، ولكن كيف لاحظ وهو ينظر أمامه؟

توقف فجأة عند غرفة بلا رقم!! كدت أن أقول شيئًا، ولكن صوتًا بسيطًا سمعناه ثم انقطعت الكهرباء.. فوجئت بالظلام ولم أخف، فليس هناك وقت للخوف، أنا متسلل لتلك المستشفى، ولكن صوت (ثابت) قطع حبل أفكاري:

- "اسمع يا دكتور، أنا نازل أشوف إيه الحكاية، كده الممرضات والعمال والنبطشية هايتجمعوا تحت، عقبال ما أرجع الكهربا تاني لازم تخش دلوقت العنبر، علشان لو رجعت وحد كان هنا في الطرقة ما يشوفكش، وأنا لما هارجع الكهربا هاجيلك العنبر تاني أشوفك عايز حاجة وألا لأ.. ماشي؟"

لم يكن أمامي اختيار، فلا أستطيع التراجع كي لا تعود الكهرباء فجأة ويراني من بالمصحة وتبدأ المشاكل، ولا أستطيع الوقوف هنا حتى لا أُفاجأ أنا بمن يسأل عن سبب وجودي أمام العنابر ليلاً.

- "ماشي، بس حاول ما تتأخرش عليا".

شعرت به يقبض على ملابسي ويجرني للأمام، وصوت باب يُفتح وأنا أشعر أنني أجتازه.

- "ما تخافش".

كانت تلك آخر كلمات (ثابت) قبل أن أسمع باب الغرفة ينغلق من الخارج.

***

ظلام.. لم أخف يومًا من الظلام، عندما مات جدي الحبيب وأوصلته عند القبر ووضعت جثته داخل التراب لم أخف ظلام القبر، ولم أخف عليه من الظلمة، لكن خفت عليه من الوحدة ومن عدم وجودي بجانبه مثلما تمنى، لماذا أخاف من الظلام وفيه أنام وفيه أفكر وفيه أتذكر، بل ربما شعرت براحة في الظلام عندما يكون باختياري، الشيء الوحيد الذي يؤرقني هو وحدتي في الظلام.

عندما أموت فلا يشعر بي أحد، عندما أمرض ولا أستطيع الحركة فلا يسمعني أحد، ولكن هنا في ذلك العنبر لم أكن وحيدًا، عندما دخلت وسمعت الباب يُغلق عليّ تحسست بيدي الطريق وتمشيت للأمام، حتى اصطدمت بشيء أصدر صوتًا معدنيًا عند الاصطدام به، تحسسته، إنه مقعد.. تأكدت منه مرة أخيرة بيدي ثم جلست عليه.

تنحنحت فخرج صوتي عاليًا في الظلام:

- "السلام عليكم؟"

قلت التحية وأنا أنتظر ردًا، كنت أخاطر بأن يصاب المرضى بالفزع ويهللوا لو شعروا بالخطر مني، لكن برغم كل شيء فسلوك هؤلاء بالذات لا يمكنني توقعه، مرت فترة طويلة جدًّا من الممكن أن تكون دقيقة أو دقائق، لكنها لا تزيد عن خمس دقائق، وسمعت صوتًا رفيعًا لشاب يقول:

- "انت مين؟"

طريقة حديث الشاب جعلتني أعرف بسرعة أنه يعاني من إدمان على المخدرات، أو أنه مصاب بمرض ما في المخ يجعل طريقته في الكلام تُشبه طريقة كلام الشخص المتعاطي للمخدرات، ولكن كيف يجلس شخص، سواء أكان مدمنًا أو مصابًا بمرض في المخ، وسط هذا العنبر.

- "أنا عيان جديد".

كانت تلك الطريقة الوحيدة لكسر الحاجز الذي كنت سأصنعه لو قلت لهم إنني طبيب كما أوهمت (ثابت)، أعتقد أنهم سيتقبلوني قليلاً لو اعتقدوا أنني مريض مثلهم.

الصوت الرفيع: "مفيش هنا عيانين ولا تعبانين".

أنا: "أمال فيه إيه هنا؟"

الصوت الرفيع: "فيه هنا ميتين مقتولين، فيه هنا ناس مستنيين يوم القيامة".

يا الله، كلماتهم تُقبض القلب، واقتناعهم الزائد بفكرة كونهم جثث رهيب.

أنا: "يعني أنا ميت زيكم؟"

الصوت الرفيع: "أنا ماقولتش عليك ميت، انت أدرى بنفسك".

أنا: "هو فيه كام واحد في العنبر هنا؟"

الصوت الرفيع: "عنبر إيه؟ دي تربة واحنا ميتين فيها".

ندمت أن الكهرباء مقطوعة ولن يمكنني تدوين ملاحظات هامة عنه وعن إجاباته.

أنا: "انتوا كام واحد".

الصوت الرفيع: "كتير".

أنا: "أمال أنا مش سامع حد غيرك ليه؟"

الصوت الرفيع: "الجثث حواليك يا.."

أنا: "خالد، وانت اسمك إيه؟"

الصوت الرفيع: "رفاعي".

قلت له بطريقة عادية:

- "انت ميت يا رفاعي من امتى؟"

رد عليّ بنفس الطريقة العادية البسيطة:

- "من 6 شهور".

فسألته بحذر:

- "ينفع أعرف انت مت ازاي؟"

سكت (رفاعي) وأنا أفكر: هل أكون قد اقتحمته عندما ألقيت هذا السؤال الذي يبدو أنني تسرعت فيه؟

- "هاحكيلك كل حاجة، انت أول واحد يسمعني".

قالها (رفاعي) ليوقف استرسالي في التفكير ويجعلني أستمع له بكل جوارحي.

وبصوت (رفاعي) الرفيع البطيء العبارات؛ استمعت لما قاله:

***

obeikan.com

الفصل التاسع عشر

حكاية رفاعي

أنا (محمد رفاعي) يدعوني الجميع بـ (رفاعي) اختصارًا لاسمي، ولدت في حي الشرابية في منزل والدي (رفاعي الحوت)، الذي كان فتوة كبير في الشرابية، أو (قبضايا) كما كان يُحب أن يُطلق على نفسه. لم يكن فتوة كما تعتقد، يرتدي الجلباب ويمسك النبوت، لا، بل كان أحد الفتوات الأقوياء بالشرابية في الأربعينات والخمسينات من القرن السابق، حيث إن والدي أنجبني وهو في الستين من عمره عام 1977.

كان والدي عملاق الجثة، يدخل المشاجرات حتى وهو في هذا السن، ويضرب بكفه الضخم يمينًا ويسارًا فيقع من يقف أمامه بمجرد أن يتلقى ضربة واحدة من يده القوية، لم يحمل سلاحًا قط، رغم أن من يدخل المشاجرات يجب أن يحمل سلاحًا يدافع به عن نفسه ضد العصا أو السكين أو السيف الصغير الذي نسميه نحن (سنجة)، لكن والدي كان يدخل تلك المشاجرات بقلب ميت لدرجة أن من يمسكون بتلك الأسلحة يتراجعون للخلف وكثيرًا ما يهربون من أمام قبضته المرعبة، يقولون إنه تعلم القتال في الجيش المصري - أو الجهادية كما يُطلق والدي عليه - عندما التحق به وظل هناك حتى رتبة شاويش، وشارك في معركة العلمين ضد قوات المحور، ويقولون إن والدي تعلم القتال بالأيدي العارية من خلال رفيق له في الجيش، وظهرت ثمرة ما تعلم بعد رجوعه من الحرب وعمله، عندما فتح ذلك

المقهى وأصبح فتوة يحكم الكثير من حارات الشرابية بقوته. كان الشرابية أكثر من فتوة يحمونها بدون مقابل مادي، ووالدي كان أحدهم، لذلك كان هؤلاء الفتوات محبوبين وسط الشرابية، وتُذكر سيرتهم بكل خير في المجالس.

لم أرث عن والدي قوة الجسد ولا القدرة على القتال بيدي العارية مثله، عندما يضرب هذا ويرفع ذاك في الهواء بيد واحدة، ويرمي هذا ويكسر ذراع ذاك.. لم أرث عنه إلا القلب الميت كما يقول الناس عني، قلبًا ميتًا جديرًا بولد (رفاعي الحوت) الوحيد بعد أن رزقه الله بالخلف في سنه الكبيرة هذه، المقهى يدر عليّ مبلغًا جيدًا كل شهر، وأنا لا أقرب النساء في الحرام ولا أشرب الخمور، لأن كل هذا حرام، ربما بعض سجائر الحشيش التي أرى أنها ليست حرامًا لأن عقلي لا يذهب عني، أو لو شعرت بحاجتي لبعض المشاعر البسيطة التي تُخرجني من أي حزن أتناول بعض الحبوب، (ترامادول) هو أحسنها عندي.. تزوجت في سن صغيرة، حيث طلب مني والدي قبل موته منذ عشرين عامًا أن أعفّ نفسي، وفعلت كما أمر وأنجبت ثلاثة أولاد.

تبدأ الحكاية منذ عام تقريبًا، عندما جاء شاب يعتقد أنه بمجرد إمساكه بسيجارة وشرائه زجاجة (بيرة) فقد أصبح مؤهلاً لأن يكون بلطجيًا، في البداية جلس على المقهى عندي كأي زبون عادي، وكثرت جلساته وكان يدفع الحساب بانتظام.

حتى جاء اليوم الذي اعتذر عن دفع الحساب للقهوجي الذي يعمل عندي، وطلب منه أن يؤيد الحساب على النوتة، والمرة القادمة يحاسب على مشروباته، جاءني القهوجي وأنا أجلس عند المكتب

الصغير الذي اتخذته لنفسي بعيدًا عن الزبائن داخل المقهى، بجانب مخزن الشيشة والشاي والسكر والقهوة، أخبرني بصوت خافض عن هذا الشاب الذي يريد أن يفتح حسابًا له هنا، خرجت معه ونظرت للشاب الذي أشار له القهوجي وعرفته فورًا، فقلت للقهوجي أن يفتح له حسابًا كما أراد. كنت بذلك أختبره. مر أسبوع جاء فيه الشاب - الذي عرفت من كشف الحساب أن اسمه (وليد) - للمقهى أربع مرات، وكل مرة كان يُطالب بإضافة مشروباته على حسابه القديم، حتى جاء اليوم الذي سمعت فيه أحد عمال المقهى يتكلم مع شاب صغير السن، وصوت الشاب الغاضب يعلو رويدًا رويدًا، تركت الشيشة من يدي وخرجت لصالة المقهى وأنا أسأل الشاب عن سبب حنقه وصوته الغاضب، فقال لي الشاب إنه تعرض للسرقة بالإكراه في مقهاي، صدمتني عبارته.

- "جه واحد على القهوة أول امبارح وقال لي إنه عايزني في حاجة، قومت معاه وأخدني على الشارع اللي ورا القهوة، وراح مطلع مطوة وأخد مني فلوسي بالعافية، وقاللي لو اتكلمت هايقتلني بالمطوة دي".

قال الشاب هذا الكلام وأنا أغلي من الغضب، حتى قلت له:

- "أخد منك كام؟"

- "60 جنيه".

أخرجت من جيبي المبلغ وأعطيته للشاب الذي رفض في البداية، ولكني حلفت أمامه أكثر من مرة حتى قبل بالمبلغ وأخذه، وطلبت منه

أن يخبرني عن شكل الذي فعل هذا.. فوصف لي وصفًا تفصيليًا لـ (وليد)، كما توقعت من أول يوم لهذا الحقير، طلبت منه أن يجلس في المقهى ولا يخاف، فأنا سأتعامل مع الموقف.

مر يوم و(وليد) لم يأتِ للمقهى، ولكن تكرر الموقف مع زبون آخر حكى نفس الحكاية تقريبًا عن (وليد)، بل وقال إن (وليد) عندما لم يجد معه مالاً كافيًا سبه وحذره من الجلوس على المقهى لأنه سيقتله لو فعل ذلك، اليوم الثالث تكرر البلاغ، وعرفت كيف يأتي (وليد) كل مرة ويسحب زبونًا بدون علم عمال المقهى، لقد قال الثلاثة الذين تعرضوا للسرقة على يده إنه أتى في الصباح الباكر عند الساعة العاشرة، أي إنه يأتي في الوقت الذي لا أتواجد فيه في المقهى، وفي نفس الوقت لا يوجد سوى عامل واحد لأن ضغط الزبائن يبدأ بعد صلاة الظهر.

اليوم التالي انتظرت في المقهى من الصباح الباكر وعيني على المقاعد المواجهة للشارع، والتي يأتي إليها (وليد) ليأخذ الزبائن من عليها، وفعلاً أتى (وليد) بوجهه الأسمر وشعره الأكرت وشفاهه الغليظة، ابتسمت وأنا أقول إن تلك الملامح التي يعتقد أنها ستدب الرعب في قلب من يتعارك معه لا تدل على قوته أو على قدرته على الدخول في مشاجرة، نهضت وأنا أضغط على جيبي الأيمن وأتأكد من السكين الصغيرة التي أحتفظ بها في جيب سروالي، كان (وليد) يتحدث مع رجل جالس يدخن الشيشة حتى فوجئ بخروجي من داخل المقهى.

- "بتعمل إيه يالا؟"

قلتها بصوت عالٍ فارتبك وهو يقول:

- "ما بعملش حاجة".

- "تعرف ياض لو شوفتك هنا تاني، أنا هاطلع عين أمك".

- "ماتقدرش، ولو راجل وريني نفسك يا ابن المرة الـ.."

لم يكمل عبارته عندما وجد يدي تصفعه على وجهه لدرجة أنه ترنح للوراء من شدة الصفعة، فجأة أخرج مطواة من جيبه وفتحها وظل يلوح بها في الهواء، بينما قاربت أنا على الضحك من مظهره الطفولي الذي يعني أنه لم يقتل أحدًا من قبل بتلك المطواة، رفعت قدمي في الهواء أضرب بها عضوه التناسلي كما كنت أرى والدي يفعل في المشاجرات، حيث كان يرفع قدمه ليضرب بها قدم من يتعارك معه أو يكسر له ركبتيه من ضربهما في الاتجاة المعاكس، تأوه (وليد) وهو يتراجع بسرعة وفعل ما لم أتوقعه!! رفع المطواة من بعيد وقذفها علي فاخترقت المطواة فوق سرتي تمامًا، ولكن لم يدخل منها لبطني سوى سنتيمتران أو أقل.

لم أصدر صوتًا ولكني أخرجت المطواة ببطء وصوت خوار يتصاعد من فمي ولكنه خوار غاضب.. تصلب (وليد) في مكانه وهو يراني أسير إليه وأنا أطوح بالمطواة بعيدًا وأخرج من جيبي سكيني الصغير، ثم أمسك بملابسه بيدي اليسرى وباليد اليمنى التي تحمل السكين أشرّح وجهه بها.. صوته وهو يتوجع أيقظ الشارع وأنا أكمل ما أفعله بسرعة، حتى وضع هو يده على وجهي محاولاً إبعادي عنه، ففعلت بيده ما

فعلت بوجهه، ثم نال جسده الكثير من الجروح، وفي النهاية ألقيت السكين من يدي وأنا أكيل له اللكمات لوجهه الذي اختفت ملامحه من كثرة الدماء، فجأة وقع مغشيًا عليه على الأرض فتركته وأنا أضغط بيدي على الجرح في بطني لأوقف النزيف، ودخلت مقهاي غير عابئ بالشارع الذي التف حول (وليد) الملقى على الأرض، ولا الرجال الذين حاولوا نجدته.

استندت على القهوجي كي يدخلني للداخل وهو يجري على الهاتف ليطلب الإسعاف، ولكني أوقفته وأنا أعطي له الأمر بالذهاب للدكتور (بيشوي) الذي يقطن في العمارة المقابلة للمقهى، وهو سيفعل اللازم، حمل الرجال (وليد) بعيدًا عن المقهى ذاهبين به إلى المستشفى، أو إلى أهله لا أعلم، المهم أن دكتور (بيشوي) نزل جريًا بعد أن شرح له القهوجي المشكلة، ومن حسن الحظ كان يحتفظ بخيط جروح أغلق به جرحي، وأصر على إبلاغ الشرطة ولكن رفضي القاطع منعه من مناقشتي كثيرًا، قررت الذهاب للمنزل للراحة، وبالفعل كنت في منزلي بعد نصف ساعة لأنام من الإجهاد ومن الدم الذي نزف مني، وبرغم أن زوجتي كادت تموت من المفاجأة عندما رأت الدماء إلا أنني استطعت أن أنزع من قلبها الشك في أن هذا الولد الذي آذيته سينتقم مني، أنا واثق أنه بعد تلك العلقة لن يقرب المقهى ولا الشارع من الأساس.. نمت وزوجتي بجانبي تخفف عني، ثم استيقظت على صوت زوجتي تطلب مني تناول الطعام الذي أحضرته على صينية ليمكنني تناوله وأنا مستلقي بجانبي على الفراش.

تناولت الطعام ونمت مرة ثانية من الإجهاد، ولكن تلك المرة استيقظت على يد قوية تهزني، ففتحت عيني لأجد ثلاثة رجال يمسكون السكاكين الضخمة ويلوحون بها في وجهي، وأحدهم يجذبني من ملابسي لأنهض وهو يشهر السكين بجانب رقبتي.

نظرت بسرعة للفراش في الظلام الذي يقطعه الضوء القادم من النافذة المفتوحة فوجدت آثار دماء!! ثم جثة زوجتي مقتولة.. بدأت المقاومة ولكن شيئًا ثقيلاً هبط على رأسي شعرت معه بألم وعدم وضوح في الرؤيا، ثم لم أشعر بالدنيا بعدها و.. استيقظت في شقة غريبة وأنا مقيد إلى فراش وجرحي ينزف والألم يقطعه، من وسط الرجال الذين تراصوا حولي وجدت الكلب (وليد) يقف يضع ضمادات على وجهه ورقبته، عرفته من شفتيه الغليظتين وشعره الأكرت، تبينت بعد ذلك في يده سكينًا طويلاً مسنونًا يتحسسه هو يتلذذ ويقول:

- "بقى يا ابن الكلب تقولي امشي وما أجيش هنا تاني، انت ما تعرفش أنا من عيلة مين في الشرابية؟ أنا من عيلة (سلامة) يا روح أمك، ودلوقت أنا مكتوب إني مقيم في المستشفى وقت ما مراتك اندبحت وانت اختفيت، يعني مفيش تهمة عليا، لأن طالما جثتك مش موجودة يبقى انت ما اتقتلتش يا حلو، ومراتك مدبوحة وانت مش موجود يبقى هاتلبسها انت لغاية ما يلاقوك.. دلوقت بقى أنا هاوريك مين فينا الراجل، أنا هاحرق قلب أمك عليك زي ما حرقت قلبك على مراتك".

انتهى من جملته واقترب من الفراش ثم رفع السكين عاليًا وانهال بها على رقبتي مرارًا وهو يفصلها عن جسدي، وأنا أتحرك يمينًا ويسارًا حتى أمسك أحدهم بشعري كي يمكن لوليد أن يفصل رأسي جيدًا، بعد أن خلعوا رأسي من جسدي أخذ (وليد) يعبث في جسدي بالسكين محاولاً تشويهه ليخرج ذلك الغضب المتولد من ضربي له، الشقة التي ذبحوني فيها هي شقة أحد أعمام (وليد) ومكانها بالدقي، نقلوا جثتي بعدها حتى وصلت لتلك المقبرة، أعطوني للتربي الذي قبض منهم خمسمائة جنيه مقابل دفن جثتي في مكان أمين، عرض التربي جثتي على أكثر من زبون ليبيعها لكنهم رفضوا بسبب رأسي المفصولة عن جسدي وبسبب الجروح التي ملأت جسدي وأحشائي التي خرجت من معدتي بعد بقر بطني، ولذلك رماني التربي في ذلك القبر غصبًا عن إرادتي، وقُيد حادث زوجتي ضد مجهول، ومازالت الشكوك تحوم حولي، يبحثون عني أو عن جثتي ليثبتوا عدم تورطي في قتل زوجتي.

صوت (رفاعي) الرفيع كف عن الكلام، فناديته باسمه فلم يُجب، كررت ندائي أكثر من مرة، ولكن سمعت صوتًا جعلني أقف على قدمي من الدهشة، صوتًا رقيقًا لفتاة!!!

- "(رفاعي) مش هايرد عليك".

صوت فتاة؟! قلت بعد أن جلست مرة أخرى على مقعدي:

- "انتي بنت؟"

- "آه".

- "ازاي تيجي هنا عنبر الرجال؟!"

بالطبع بدأت الظنون تلعب برأسي عن وجود فتاة في عنبر الرجال، ذلك لا يعني الكثير.

- "انت فاكرني مرتاحة هنا؟!"

- "!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!"

- "أنا تعبانة قوي، تعبانة قوي".

- "اسمك ايه؟"

- "مريم".

بلعت ريقي محاولاً اختيار كلماتي:

- "وإيه اللي جابك وسط الرجالة يا (مريم)؟"

تنهد الصوت الرقيق وقال:

- "أنا ما جيتش بمزاجي يا أستاذ".

كادت الدهشة تجعل عينيّ تقفزان من وجهي، ولكني تحليت بالصبر وأنا أحاول استدراجها..

- "(مريم)، انتي تعبانة من إيه؟"

أجابني الصوت الرقيق بعد تنهيدة حارة:

obeikan.com

- "أنا بنت.. ميتة وسط رجالة، عايزني ارتاح ازاي؟"

هذا غير ممكن بأي مقياس، هناك شيء خاطئ، ولو لم يكن هناك شيء خاطئ فبالتأكيد أنا المجنون هنا.

- "انتي مين اللي جابك هنا؟"

- "التربي".

- "وليه جابك هنا؟"

- "عايز تعرف ليه؟"

- "يمكن أساعدك تخرجي من هنا".

شعرت بصوت الفتاة يتغير بحق وتُضاف السعادة لنبراتها:

- "بجد؟ أنا هاحكيلك، بس خرجني من هنا، أنا زعلانة".

***

obeikan.com

الفصل العشرون

حكاية مريم

اسمي (مريم سامح سليم) سني ستة عشر عامًا، أنا أكره منزلي جدًّا، هذا لو كنت أمتلك منزلاً من الأساس، ماهو المنزل في رأيك؟ أهو جدران وسقف وأرضية؟ أم غرف نوم ودورة مياه؟ أم أسرة دافئة؟! لو كان اختيارك الأخير فأنت في صفي وستتفهم موقفي حتمًا، وستفهم لماذا أكره منزلي، أو للتحديد أكثر فأنا أكره أسرتي لأنني أعتبر أن المنزل هو الأسرة، ليس أكثر أو أقل، ولكن أهلي لم يوافقوني الرأي، أعيش بمنطقة في شبرا تسمى (المظلات)، في أحد أحيائها أقطن مع أبي وأمي وشقيقتي وبقية أشقائي الرجال الثلاثة.. لم يمنع والدي عني شيئًا يتعلق بالطعام أو الملابس أو النقود، ولكنه منع عني كل الحريات.

فوالدي يمتلك مطبعة بأحد أحياء شبرا، ودخله من المطبعة يجعلنا نعلو قليلاً عن الطبقة المتوسطة، ولكننا لا نقترب بالطبع من طبقة الأغنياء، تحتوي سفرتنا يوميًا على أنواع كثيرة من الطعام، ونبدل ملابسنا كثيرًا، ويحمل بعضنا حواسب آلية محمولة من باب المظاهر لا أكثر، ووالدي يعطي الجميع مصروفًا ليس قليلاً، بل ويزيده إذا كررنا طلب النقود، وخاصة أنا وشقيقتي، فهو ينفق علينا بسخاء لغرض ما في نفسه، شقيقي الأكبر تخرج من كلية الهندسة وأصبح مهندسًا معماريًا، وساعده والدي ليفتتح له مكتبه الهندسي بمدينة

نصر، شقيقي الأصغر منه تخرج من التجارة ويعمل مع والدي في المطبعة، ويُعتبر هو عصا والدي التي يتكئ عليها في أعماله.

شقيقي الثالث ترك المدرسة الثانوية وصمم أن يعمل في التجارة، والتي لا يعلم أحدنا ما نوع تلك التجارة التي تغيبه عن المنزل تلك الساعات فلا يعود إلا لينام فقط، حان الوقت لتعرف لماذا ينفق علينا والدي بذلك السخاء ولماذا يدللني أنا وشقيقتي في بعض الأحيان وما هو المقابل الذي يريده، في الغالب ستقول إنه يريد مصلحتي ويريد أن يراني بأحسن حال، وهذا ما كان في عقله بالفعل، ولكن بطريقة أخرى.

يريدني أن أدخل كلية الطب، وبالطبع شقيقتي الصغرى التي مازالت في المرحلة الإعدادية يجب ألا تقل عن الطب أو الهندسة، ينفق علينا فيما يخص التعليم والدراسة والكتب بطريقة غريبة، هل تعرف أن داخل شقتنا مكتبة كبيرة تمتلئ بالكتب العلمية والموسوعات الأدبية والعلوم والفنون وتواريخ الحروب، كتب كبيرة لامعة الأغلفة كثيرة التكلفة، هو لم يقرأ كتابًا في حياته برغم عمله في طبع الكتب، وأشقائي لا يقرأون الكتب، إنما اشترى كل تلك الكتب لأنه اعتقد أنه بتلك الكتب سيجعل عقولنا أكثر تفتحًا ومداركنا أكثر علمًا، وبالتالي سنصبح أطباء ومهندسين كما أراد، ولكن الحقيقة أنني أكره التعليم، ما المشكلة في تلك الفكرة، أشعر أنني اكتفيت من التعليم وأريد الاستقرار في المنزل، أريد أن ألتقي بشريك حياتي الذي سأخدمه بكل الطرق وأنتظره بعد عودته من عمله والغداء جاهز.. أخلع ثيابه وأحممه بنفسي وأناوله الطعام في فمه فلا يُتعب هو يده بمشقة تناول

الطعام، أعطيه كل الحنان الذي أدخره في قلبي ولا أنتظر منه حتى كلمة شكر.

ستتهمني بالجنون يا أستاذ، ولكن كل الفتيات يتكلمن عن أهمية التعليم والمستقبل وأهمية الحفاظ على المساواة بين الزوج والزوجة، والكثير من الكلام المحفوظ، ولكن الجميع نسى أو تناسى أنني من حقي أن أختار بكامل حريتي أن أكمل تعليمي أو لا أكمله، وخاصة أنني وصلت لسن النضج الذي يمكنني من اختيار طريقي القادم لا أن يفرضه أحدهم علي، وحتى لو أخطأت فسأتحمل نتيجة خطئي لأني اخترت حريتي، وتلك هي المشكلة، الحرية.. والدي يضربني عندما يشتم في حديثي معه تلميحًا بأنني أكره المذاكرة أو أنني لا أريد دخول الجامعة وسأكتفي بالثانوية العامة، لا ليس ضربًا.. هل تتخيل فتاة يمسكها والدها من شعرها ويجرها وراءه على الأرض وهي تصرخ، ثم ينهال عليها ضربًا بيده الخشنة من أثر التعامل مع ماكينات الطباعة؟ ثم يستهل الحفل بفاصل من الركلات التي تصيب جسدي ببراعة، وكأنه يصوب على المناطق التي تؤلم ولا تؤذي، وتصل ذروة الحفل عند مقطوعة الصفعات التي يعزفها على وجهي وتكون في الغالب أسرع من أن يتحملها رجل طبيعي، لدرجة أنني حاولت مرة أن أحصي عدد الصفعات السريعة فما أحصيته منها كان اثنين وعشرين صفعة، وأعتقد أن هناك صفعات لم أحصها، وينتهي الحفل البهيج غالبًا ببعض الضربات المركزة على الظهر أو لكمة خفيفة كنوع من الختام، كل ما سبق كان بدون استعمال أدوات كحزامه الجلدي أو حذائه ذي الكعب أو العصا أو الحبل الملفوف، وهذا الحفل من الممكن أن يقام

ثلاث مرات أسبوعيًا، ولا يقيمه في الأجازات الرسمية وبعض الأعياد وفي نهار رمضان كي لا يفقد ثواب صومه عليّ.

هل تعرف لماذا يفعل كل هذا.. إليك الحقيقة، والدي كان فقيرًا منذ صغره ولم يكمل تعليمه، فاضطر إلى العمل في المطبعة منذ طفولته التي لم يعشها، وبالتالي كما قال هو في إحدى المشاجرات مع والدتي أنه تمنى لو يتزوج امرأة متعلمة جامعية تُربي أولاده بطريقة أفضل من تربية والدتي لنا، شقيقي الأكبر المهندس كان يتلقى الضرب منذ صغره، لو أهمل لحظة في المذاكرة أو فكر لحظة أن يلعب مع زملائه أو يجلس ليشاهد التلفاز، وانتهت مشاكل شقيقي بمجرد تخرجه من الهندسة، ثم شقيقي الأوسط الذي تلقى نفس ما تلقاه من سبقه إلى أن دخل جامعة أقل من هندسة أو طب كما أراد والدي، فلم يعره والدي اهتمامًا بعد ذلك وابتعد عنه تمامًا، ثم شقيقي الأصغر الذي ترك المدرسة فتركه والدي، ولم يبقَ غيرنا نحن أنا وشقيقتي.. لذا فنحن نمر بأصعب مما مر به جميع من سبقنا لأنه وضع أمله فينا هذه المرة، يتكلم دائمًا عن العريس الذي لن يقبل به لبناته إلا لو دفع كذا وكذا وكان طبيبًا كبيرًا أو مهندسًا أو صاحب شركة ضخمة أو.. أو.. أو.. ويتكلم عن الفرح الذي سينفق عليه عشرات الآلاف وعن جهازنا الذي سيُكلفه من المال ما لم ينفقه أب على بناته من قبل، هل تريد الحقيقة يا أستاذ.. والدي يشعر بعقدة نقص رهيبة تجلعه يريد أن يرانا نحن نأكل وندرس ونرتدي ما لم ينله هو في حياته، نصبح أطباء لأنه فشل في ذلك، نقرأ الكتب الضخمة المكتوبة بلغات أجنبية لأنه تمنى أن يفعل ذلك، نتزوج زيجات ناجحة ونقيم فرحًا أسطوريًا لأنه تزوج فتاة ريفية طيبة غير متعلمة ولم يقم

فرحًا كما كان يحلم لأنه لم يكن يمتلك مالاً في صغره، وأنا لن أتحمل كل هذا، لن أتحمله.. أنا أبحث عن.. عن رجل بمعنى الكلمة.. صفاته.. للحق لم أفكر فيها كثيرًا ولكني تعرفت عليه بمجرد رؤيته.

كنت أغادر مدرستي وأنا أسير وحيدة أفكر بالمشاكل التي ستقابلني لو علم والدي أن مدرس التاريخ سيشكوه مني غدًا عندما يحدثه على الهاتف، كنت أفكر حين وقفت أمام المكان الذي سيأتي فيه الميكروباص لأستقله وأنزل أمام شارع منزلي، طويل وسيم طيب الملامح يرتدي نظارة طبية بدون إطار جعلته أكثر وسامة وأكثر رجولة ورزانة، اقترب مني هذا الشاب وسألني بابتسامة عذبة عن أحد الشوارع القريبة.. ارتبكت وأنا مازلت أنظر إليه بدون أن أنطق، فكرر السؤال وابتسامته تزداد، أنا في الغالب لا أتحدث مع أي شاب أو ولد وأتجنب حديثهم، فأنا أعرف أنهم يتسابقون على الفوز بالفتاة ذات الزي المدرسي لينالوا منها قبلة أو لمسة وفي النهاية ينتقلون لغيرها، ولذلك أتجنب الحديث معهم كي لا أظهر من النوع السهل مثل البقية، لكن هذا الشاب كان يجب أن أجيبه، نعم يجب أن أتكلم معه.

- " آخر الشارع ده هاتلاقي ميكانيكي تكسر يمين في يمين وتلف حوالين بيت قديم مكتوب عليه شا...."

توقفت عن شرح بقية الطريق وأنا أرى في عينيه نظرة عدم الفهم المختلطة بالخجل، فعرضت عليه أن يسير معي حتى نهاية الشارع وسأصف له الطريق من هناك لأسهل عليه الأمر، لا أعرف كيف عرضت هذا العرض وقد ظهر الندم على وجهي وأنا أقول داخلي إنه سيعتقد أنني فتاة لعوب و.. ولكنه وافق مع عبارة بسيطة يرجو ألا

يعطلني.. ابتسمت وسرنا، والجميل أنه كان صامتًا طوال الطريق وكأنه يخجل من التحدث معي، يا الله، هذا هو الرجل الذي أردته، لم يحاول أن يستغل وجود فتاة تسير بجانبه ويفتح معها حوارًا لكي يتودد إليها، كنت سأموت وأحدثه حتى جاءت لي فكرة أن أسأله عن المكان الذي يريد الوصول إليه بالتحديد، فأجابني بخجل ثم سكت قليلاً وسألني إن كنت أسكن قريبًا من هنا، فأجبته بصدق بمكان منزلي وسألته عن منزله، فأجابني، وهكذا وجدت نفسي أسير بجواره يسألني بخجل وأسأله بخجل، ونحن نبطء في خطواتنا كي لا نصل لآخر الشارع، وحتى بعد أن وصلنا إليه أكملنا الطريق، هل تعرف كم من الوقت ظللنا نسير؟ نصف ساعة بدون أن نشعر، حتى عدنا مرة أخرى إلى المكان الذي سأستقل منه الميكروباص إلى منزلي، أنا لست فتاة لعوبًا والله، ولكني شعرت تجاه هذا الرجل بشعور مختلف، كأنني أريد أن أستأمنه على أسراري وحياتي ونفسي، يمكنك أن تتخيل أننا تبادلنا أرقام هواتفنا المحمولة بعد أن حكى لي عن عمله وطموحه وحياته، وحكيت أنا بدوري عن معظم حياتي بصدق، وكأنني لم أحكِ لشخص من قبل.

هو يعمل مهندسًا متخصصًا في الشبكات بشركة اتصالات مشهورة، ويبلغ من العمر خمسًا وعشرين عامًا، اسمه (عبد الله)، اسمه جميل مريح به نبرة من السكينة تتنزل على قلبي عندما أنطقه، والآن تطور الموضوع بسرعة لدرجة أننا لمدة أسبوعين لم نفوّت ليلة واحدة لم نتحدث فيها لساعات.. كان دائمًا ما يتصل هو بي ويظل يتحدث ويسألني عن حياتي وأحلامي وطموحي، وأنا أجيبه بسعادة وأندهش من لهفته عليّ، وأنا الذي اعتقدت أنني أنا التي أتلهف عليه وليس هو، يمكنني أيضًا أن ألاحظ أنه ميسور الحال وهو يحدثني كل

ليلة بالساعات من هاتفه الشخصي بدون أن يسمح لي أن أهاتفه أنا، يا له من شاب مؤدب متدين لا يُفوّت فرض صلاة ويسألني كل يوم عن صلاتي هل أديتها أم لا، وينصحني بطريقة مهذبة رقيقة لا تجرحني، هذا غير أنه طوال الأسبوعين ابتعد تمامًا عن الحديث عن أي ما يخدش الحياء في كلماته!!! هذا هو الرجل الذي أردته يا أستاذ صدقني.

لدرجة أنه طلب مني ألا أخبر أيًا من صديقاتي عنه كي لا ينظرن لي على أنني فتاة سيئة السمعة تصادق الشباب وتحدثهم في هاتفهم ليلاً، وأن أنتظر حتى.. حتى يأتي لمنزلي ليتقدم لخطبتي.

كدت أقفز من الفرحة وأنا أسمعه يقول إنه سيأتي لمنزلي بعد شهر على الأكثر ليتقدم لخطبتي، ستبدأ السعادة من الآن وسأغادر هذا البيت الكئيب وأكون في كنف رجل آخر يحميني من بطش والدي بي، ويعطيني حرية اختياري، والتي سأختاره بها بالتأكيد لأنه أعطاني تلك الحرية، عندما خرجت من مدرستي ذلك اليوم وجدت اسمه على هاتفي المحمول يتصل بي، ابتسمت ورددت عليه فسمعته يقول لي بحب أن أسير في الشارع الجانبي الموازي لشارع مدرستي، فلما سألته قال لي إن هناك مفاجأة تنتظرني، يتحدث معي على الهاتف وأنا أسير بعد أن تركت زميلاتي بحجة أنني سأشتري شيئًا وأعود لهن مرة أخرى، سرت في الشارع حتى وجدته أمامي يحمل علبة هدايا حمراء كبيرة وعليها وردة حمراء، ابتسمت وأنا أقترب منه وهو يُغلق هاتفه ثم يتناول الوردة ويعطها لي..

أخذتها وأنا أشتم رائحتها بنشوة، تلك الرائحة الدافئة لأنها من يد حبيبي (عبد الله)، أعطاني الهدية الكبيرة وطلب مني أن أفتحها، فتحتها فوجدت دمية كبيرة على شكل قطة جميلة، فرحت بها جدًّا وزادت فرحتي بعد أن طلب مني أن أسير بجانبه في هذا الشارع قليلاً ليتحدث معي لدقائق قبل أن أعود لمنزلي.

سرت بجانبه حتى نهاية الشارع نتكلم وأنا أشعر بنعاس خفيف يُثقل جفوني، اتخذنا منعطفًا جانبيًا مليئًا بالأشجار الجميلة، وسرنا قليلاً حتى سمع (عبد الله) هاتفه المحمول يرن، استأذن مني بخجل في دقيقة يتحدث فيها على الهاتف، أقاوم النعاس و(عبد الله) يبتعد عني وهو يتحدث على الهاتف بانفعال.. النعاااااس، أريد أن أنام يا (عبد الله)، لماذا تبتعد هكذا؟ لماذا تدور الدنيا بي.. صوت من خلفي أعتقد أنه باب سيارة يُفتح!!! حاولت النظر خلفي بدون أن أقع بسبب الدوار، ولكن يد رجل وُضعت على فمي ويد أخرى طوقتني وسحبتني لمكان ما أعتقد أنه سيارة، حاولت الصراخ ولكن شعورًا بالنعاس جعل لساني ثقيلاً جدًّا، حتى شممت رائحة تشبة رائحة الوردة الجميلة التي أهداني إياها حبيب قلبي، ولكن الرائحة أقوى تلك المرة و.. لم أشعر بشيء، استيقظت وعصابة على عيني تجعلني أسمع ولا أرى، أشتم رائحة منفرة كنت أشمها وأنا أزور خالتي في المستشفى منذ ثلاثة أعوام، ربما هي مطهرات طبية أو أدوية، أصوات كثير تتكلم، حاولت النهوض ولكني لا أشعر بجسدي!!! ثم عدت إلى النوم فجأة واستيقظت مرة أخرى وأنا أسمع هذه المرة حوارًا ميزت فيه صوت (عبد الله) ورجال آخرين.. لا أصدق ما أسمع، (عبد الله) يعمل في بيع الأعضاء البشرية؟! يتحدث عن جسدي وعن القرنية التي سيستخرجونها مني الليلة ليبيعوها؟!!

أحاول النهوض مجددًا فلا أشعر بجسدي.. (عبد الله) لم يحبني ولم يكن يحدثني إلا لاستدراجي، الوردة.. الرائحة الجميلة منها.. صوت السيارة.. ابتعاده عني وهم يأخذوني كي ينفي أي شبهة عنه لو رآه أحدهم، غبت عن الوعي تمامًا، ظللت في تلك الحالة إلى أن مررت بثلاث عمليات لاستئصال أجزاء من جسدي، أشعر بهم ينتزعون عينيّ وكبدي وشيء آخر يؤلمني، وفي العملية الرابعة وأثناء تخديري شعرت براحة كبيرة، لقد مت وحان وقت دفني بعد أن أخذوا بعض الأشياء من جسدي كقطع غيار احتياطية وتركوه خاليًا، مستشفى (جولدن بادي) لجراحات اليوم الواحد بمدينة نصر، هكذا ينطقون الاسم، هذا هو المكان الذي أخذوا فيه أجزاء جسدي، و(عبد الله) اسمه الحقيقي (محمد صابر محمد)، وعمله الحقيقي مدرس ثانوي بمدرسة بالجيزة، ويعمل مع مدير المستشفى في اجتذاب الفتيات وخطفهن لسرقة أعضائهن، وفي ليلة باردة نقلوني إلى تلك المقابر البعيدة ودفعوا لذلك النجس الذي يعمل تربيًا مبلغًا من المال ليُخفي تلك الجثة كبقية الجثث التي يُخفيها، وكان نصيبي تلك المقبرة، والتي لم يراعِ فيها حتى حرمة دفني مع رجال.

***

انتهت (مريم) من كلامها، فقلت لها بسرعة:

- "انتي هنا من امتى يا (مريم)؟"

- "من سنة ونص، بابا وحشني قوي، ماما وحشتني قوي، كنت عايزة أتجوز، كنت عايزة أخلف، حرموني من كل ده".

هؤلاء المرضى يمتلكون عقلاً منظمًا يشبه عقل مريض جنون العظمة أو لأنهم.. لحظة مرة أخرى ،كيف تأتي فتاة لتجلس في عنبر كهذا في المستشفى؟! عنبر للرجال؟!! ناديت على (مريم) ولكني لم أسمع صوتها، قدرت أنها ستصمت الآن، ولكن صوتًا ثبت الدماء في عروقي دوى في الظلام.. صوت أطفال تبكي!!!

- "تقدر تقول يا أستاذ انت مين؟"

صوت رجل عجوز أو على الأقل تعدى حاجز الخمسين قال العبارة السابقة، مازل صوت الأطفال يبكي في الظلام..

- "أنا مريض جديد معاكم".

ضحك الصوت العجوز فقلت له:

- "انت مين ومين الأطفال اللي بتعيط دي؟"

صمت طويل داخل الظلام، قطعه الصوت العجوز ثانية:

- "أنا راجل فقير على باب الله دخلوني هنا من باب الشفقة مش أكتر، أخدوا فيا ثواب ودخلوني هنا.. أنا ميت من زمان قوي من سنين طويلة، أنا أول واحد جيت المكان ده، والكل نسيني، اتفرجت على الناس اللي دخلت وخرجت من هنا".

- "ومين الأطفال دول؟"

- "دول حكايتهم بسيطة قوي".

***

الفصل الحادي والعشرون

حكاية الأطفال

قال الصوت العجوز:

منذ سنتين جاء رجل للتربي الذي أدخلنا كلنا هنا، وهو يحمل شيئًا صغيرًا ملفوفًا في قطعة قماش وموضوعًا في كيس بلاستيكي.. هل تريد أن تعرف من أتى بالشيء الملفوف بالقماش الأبيض؟ إنه ممرض في عيادة طبيب نساء خاصة، طبيب تخصص في إجهاض النساء الذين تكوّن الجنين داخل أرحامهن، وبالتالي فهم الآن جثث، يخرج الطفل الوديع من جسد أمه العاهرة القاتلة، ثم يعطيه لممرضه ليذهب به إلى هذا التربي.

هناك ما يشبه العقد بين الممرض والتربي، عقد قديم جدًّا، عقد مصالح لتوريد الجثث، يأتيه بجثث أطفال وجثث كبار وكل شيء بحسابه، ولكني يا أستاذ أحدثك الآن عن جثث الأطفال الصغيرة التي تأتي هنا في بعض الأحيان بحجم قبضة اليد.

الأطفال الذين لا يعلمون لهم ذنبًا في الحياة سوى أن هناك أمًا وأبًا لا يريدان وجودهم، أو لنقل إنهما وقت الجد غير راغبين فيهم، كأنهما اشتريا علبة جبنة من السوبر ماركت ثم أصبحا غير راغبين في الجبنة، فتخلصا منها في صندوق القمامة، داخل هذا المكان ما يزيد عن ثلاثين طفلاً دخلوا إليه بغير إرادتهم ودُفنوا هنا بغير إرادتهم،

ينتظرون يوم القيامة ليأخذوا حقوقهم منه، ولو أردت أن تتأكد من صدقي فزر 23 ب شارع محمود علم مصر الجديدة، دكتور (سامح حسان) اخصائي نساء وتوليد.

***

فجأة توقف الصوت العجوز عن الحديث وإكمال القصة! تعلمت ألا أنادي على أحد، ولكن صوتًا ما تحدث معي بطريقة مريبة، صوت شاب.

الصوت الشاب: "خالد، أهلاً بيك معانا".

جاء الصوت من على يساري تمامًا، وكأن صاحبه يجلس بجانبي الآن، ولكني بلا خوف أجبته:

_ "أهلاً بيك انت، انت عرفت اسمي منين؟"

- "أنا عارفك كويس".

- "اسمك إيه؟"

جاء الصوت في الظلام يقول:

- "(حاتم) وسيبني أحكيلك حكايتي".

***

الفصل الثاني والعشرون

حكاية المؤلف

أنا (حاتم)، لن أتكلم عن تفاصيل حياتي سوى أنني سببت الكثير من الدهشة لمن حولي، الدهشة ثم الاستنكار ثم الرعب ثم الرضا بالأمر الواقع، هذا هو حال والديّ بعد أن اكتشفا ما أنا عليه في الطفولة، عند غضبي يشعر جميع من بالغرفة بالألم، أما عند شعوري بالنعاس يشعر أقرب الأشخاص لي بنفس الشعور بالنعاس، وصلت سن الخامسة ووالداي يخفيان عن الجميع ما يحدث معهما، أجوع فيجوع أقربهما لي، أخاف من شيء بسيط كما يخاف أي طفل آخر فيشعر أقربهما لي بالخوف بلا سبب.

في ليلة ما كانت والدتي تضع العشاء لنا أنا ووالدي على المنضدة، وفزعت هي حين وجدت طبق الأرز الذي وضعته أمامي قد أصبح أمام والدي، بالطبع والدي تسمر من الرعب.. وأنا أكمل ما أفعل وأطباق المائدة تتبدل أماكنها وتتحرك على المنضدة حركة مهزوزة.

كنت أفعل ذلك لأحصل على إعجاب والديّ معتقدًا أن ما أفعله هو حالة طبيعية يفعلها جميع الناس، وأنني يجب أن أصل لها، ولكن والداي كان لهما رأيًا آخر، تحدثا معي تلك الليلة وهما يطلبان مني أن أريهما ما أستطيع فعله.. أعتقد أن الفزع الذي ارتسم على وجههما

كان تعبيرًا غريبًا عليّ، أو على أقل تقدير لم أتوقعه من والديّ عندما يرياني أحرك أقلامي الرصاص وأكسرها من على بعد خمسة أمتار.

حاول والدي أن يتمالك أعصابه ولكن والدتي ابتعدت عند ركن الغرفة، وهي تشاهدني وأنا أمسك القط الصغير الأسود الذي أحضره أبي منذ عام وأضعه أمامي وأنظر له بابتسامة طفولية، فيتثاءب القط ثم ينام على الفور، سألني والدي وهو يحاول الاحتفاظ برباطة جأشه عن كيفية جعلي القط ينام هكذا، فقلت له ببراءة إنني لاحظت أن عمو (محمد) وطنط (سامية) يفعلان مثلما أفعل، والكثير من أقربائنا، حتى أنتما، تفعلون مثلما أشعر تمامًا، فعندما أريد تناول الطعام وقبل أن أنطق ينطق من يجلس بجانبي أنه جوعان، ومثل ذلك في النوم والحزن والشبع والغضب، وكل ما أشعر به، فقلت في نفسي لما لا أجرب أن أتخيل أنني أشعر بشعور معين وأرى التأثير على من حولي، ونجح الموضوع، فأصبحت أتخيل أي أفكار وأجد من بجانبي ينفذ ما أفكر فيه تمامًا، ثم انتهيت من إجابة سؤال والدي وسألته أنا بدوري ببراءة ودهشة: أليس الجميع يستطيع فعل ذلك؟

لن أنسى تلك النظرة وهو ينظر إلى والدتي المذعورة أولاً ثم ينظر لي بابتسامته، ويقول إن الذي أمتلكه لا يمتلكه غيري، وأنه يجب عليّ الحفاظ على سرية ما أملك كي لا يغضب مني هو وأمي، ومنذ هذا اليوم بدأت رحلات العلاج السرية لبعض الشيوخ لقراءة القرآن على رأسي اعتقادًا منهم أنني مصاب بمس من الجان أو لبس من العفاريت، واستمرت المحاولات الفاشلة لاكتشاف ما يحدث لي حتى سن العاشرة، الذي ظهر فيه عليّ أعراض مرض الصرع والنوبة الحادة التي

أخافت من حولي، فذهبوا بي للشيوخ مجددًا حتى وصلنا إلى شيخ المسجد القريب من بيتنا، ولكنه نهرهما لتركي كل تلك المدة بدون استشارة طبيب عن حالات التشنج الغريبة تلك، وأمرهم بالذهاب إلى الطبيب بسرعة. ذهبنا لدكتور (أمجد فوزي) جراح المخ والأعصاب الذي تبنى حالتي وطمأن أهلي عليّ، فعائلة والدي بالطبع لا تعرف موضوع أن الأشياء تتحرك من حولي وأنني أزرع أحاسيس في العقول، وفوجئ الجميع بتحرك الأشياء حولي أثناء نوبات الصرع، مما جعل والديّ يمثلان ملامح الدهشة أمام عائلتي، كأنها أول مرة يشاهدان فيها ما يحدث.. وتابعت العائلة حالة الصرع الغريبة التي تنتابني وتتحرك فيها من حولي الأشياء، وحاول البعض مساعدة والدي بأن يدله على أسماء شيوخ أو قساوسة حتى.

ولكن د (أمجد) أنهى الموضوع عندما صارحناه بكل شيء وأريته الأشياء التي يمكنني فعلها في حالتي الطبيعية، وخاصة بعد أن تحول زرع الأحاسيس إلى زرع ذكريات غير موجودة في العقول.. قال إنه قابل أكثر من حالة خارج مصر مصابة بنشاط كهربي غير طبيعي في المخ يمكنها فعل العجائب، برغم أنه لم يرَ حالة زرع ذكريات مزيفة في العقول مثلي، ولكنه رأى حالات يمكنها تحريك المواد الصلبة أو تحريك الماء، أو يمكنها التحكم في الأدخنة الناتجة عن الحرائق.

لكنه لم يعلم أن الذكريات التي أزرعها في العقول تمتلئ بالأخطاء، والتي من الممكن أن يكتشفها الشخص الذي يفحص ذكرياته، تلك الأخطاء علمت أنها اهتزازت في طول الموج الكهربي الذي يصدر من مخي

لمخ الشخص الذي أؤثر عليه، وتلك الاهتزازات يظهر بها أخطاء بسيطة داخل الذكريات، فتفقد بعض واقعيتها.

***

تنتشر تلك الحكاية في الجامعة ثم تظهر حكاية ثانية وثالثة ورابعة، وتسمع من يقول إن فتاة تحكي عن (حاتم) بأنها شاهدته عندما كانا بالفرقة الأولى في الكلية، أثناء إحدى المحاضرات، ينهض من المدرجات وينزل إلى الدكتور الذي يشرح المحاضرة ثم يأخذ القلم الموضوع أمامه على المنضدة ويعود لمكانه مرة أخرى، ليكتب بالقلم بضعة أشياء، ثم يعيده أمام منضدة الدكتور بدون أن يعترض الأخير أو يتكلم أو ينظر له أحد الطلاب، هي الوحيدة التي رأته، بالتأكيد الجان هم الذين يمكنهم فعل هذا.

***

خفت نوبات الصرع وتعامل معي الجميع طبيعيًا، وتعاهدت أنا ووالداي أن نحتفظ بسر الإيحاءات النفسية التي يمكنني فعلها داخل أسرتنا، كي لا أتعرض لمشاكل ممن حولي، دخلت الجامعة ونزحت إلى القاهرة، وهناك تعرفت على فتاة أحببتها وتعاهدنا على الزواج، ولأنني أعشق كتابة الروايات فقد عرضت أعمالي على دور النشر التي رفضت جميعها قصصي، ولكن في آخر عام لي في الجامعة اتخذت قرارًا أن أنجح في عالم الكتابة وأنشر أولى رواياتي، ونسقت في عقلي قصة جديدة، رواية ضخمة سميتها (نصف ميت)، وضعت فيها شخصيتي وأفكاري الحقيقية وأحلامي وأسراري، وبدأت العمل عليها بكل ما ملكت من أفكار، جعلتها تحفتي الخاصة، وقبل الانتهاء منها عادت النوبات الصرعية بسبب الضغط العصبي الجديد، فاضطررت إلى

إخبار فتاتي بموضوع تحريك الأشياء أثناء نوبات الصرع، لأن الجميع شاهد ما حدث أثناء نوبة الصرع التي حدثت لي في غرفتي بالمدينة الجامعية.

المهم انتهت الرواية وأصبحت جاهزة للعرض على دور النشر، بدأت بعرض نسخ منها، وتلقيت الكثير من الرفض أيضًا بسبب ضخامتها ودمويتها، ولأنها تدور في أدب التشويق والإثارة، انتهت امتحانات آخر عام في الجامعة وعادت حبيبتي إلى الإسكندرية بلدتها الأصلية تنتظر مني أي خطوة للتقدم لأهلها للخطوبة، وأنا مازلت أنتظر في القاهرة موافقة إحدى دور النشر على الرواية، تعددت زياراتي لهم حتى إنني كنت سأفقد الأمل مرة أخرى في قبول الرواية، حتى.. وافق هذا الناشر المغمور على الرواية.. كان شابًا لم يغادر العشرينات بعد، شاعر قديم قرر إنشاء دار نشر بفكر جديد، نشر مجموعة كتب حققت نجاحًا ليس بالقليل، تعرفت عليه عن طريق صديق لي حضر ندوة شعرية وقال بأنه سمع بهذا الناشر، قابلته وعرضت روايتي عليه.. وظل يناقشني فيها مدة طويلة حتى إنني اعتقدت أنه سيرفضها بأدب كالباقين، ولكنه قرر نشرها، بل والمراهنة عليها، قال لي بأنه يريد أن يُغير مفهوم الرواية عند الشارع العربي.. حلم مضحك هو، أو على الأقل جعلني أندهش منه، كيف يحمل تلك الأحلام في عقله، بعد أن توطدت صداقتي به عرفت أنه خريج كلية دار العلوم مثلي!!! وهو غير متزوج ويعيش وحيدًا، ولذلك يمكنه المخاطرة الآن قبل أن يتزوج وتُثقل أسرته كاهله.

كتب العقد معي، ودخلت (نصف ميت) مراحل التنسيق والطباعة، واستلمت منه أول مبلغ في حياتي أحصل عليه من كتاب، وذهبت على الفور طبعًا إلى المنصورة لاستلم دبل الخطوبة التي صممت أن أنقش عليها اسمي واسم حبيبتي بحروف بارزة خارج الدبل.

عدت للقاهرة لأرى بعيني النسخة النهائية من رواية (نصف ميت) تخرج لأعاينها من المطبعة.. الغلاف الثقيل الذي يحمل التصميم الذي صممه صديقي (عبد الرحمن فتحي)، وبين دفتي الغلاف ترقد روايتي بلون الورق المائل إلى اللون البني.. احتفلنا أنا و(عماد خيري) الناشر الشاب على ذلك المقهى بوسط البلد بخروج الكتاب، نشرب الشاي ونتحدث عن خطط التوزيع والرواية القادمة والمزيد من الأحلام.. (عماد) هذا من أطيب الشباب الذين قابلتهم في حياتي، دار النشر التي يمتلكها (dorcman)، والتي اقتبس اسمها كما قال لي من اسم مطعم مشابه في أسبانيا، عمل فيه بعد تخرجه وقبل عودته لمصر.

ظللنا نتحدث عن الرواية، وهو يسألني بطريقة خفية عن مغزى الرموز في قصتي والتفاصيل الدقيقة التي تُشعره أن أحداثها حقيقية، وأن شخصياتها من لحم ودم على حد تعبيره.

ثم تحدث معي عن مصادفة غريبة بخصوص أن بطل الرواية لم يجد ناشرًا لينشر له رواياته، وقبل أن يموت بقليل وجد الناشر الذي نشر له الرواية.. ابتسم وقال: ولكنك لم تذكر مصير الرواية! فقلت له إنني بالفعل لم أفكر ماذا سيحدث للرواية بعد موت صاحبها، فكرت قليلاً ثم ابتسمت له وقلت إنه لو كانت تلك الرواية واقعية فعلى الناشر أن يُكمل ما بدأه المؤلف، تجهم وجهه قليلاً وكأنه فوجئ

بكلامي، فأكملت قائلاً بسخرية "لو أنا بطل الرواية وانت الناشر اللي في الرواية، فأنا هاكون عايزك تنزل الرواية بعد ما أموت علشان أكون سايب ذكرى ليا في الدنيا".

ظلت عيناه مندهشتان برغم استمرار الحديث معي، وقد كنت أشعر بأنه يفكر في آخر جملة قلتها من خلال نظرة عينيه لي، الوقت أزف وحان وقت ذهابي إلى الإسكندرية الليلة، لأكون في الصباح هناك أقيم عند زميل والدي - الذي أوصاه عليّ بالهاتف، فهو يعرف أنني سأذهب لأتقدم لأسرة حبيبتي في البداية، وعند حصولي على الموافقة أعود بوالدي للتقدم الرسمي - وفي المساء أذهب لمنزل أسرة حبيبتي لأتقدم لوالدها، غادرت المقهى سريعًا وأنا أتصل بحبيبتي وأبلغها ألا تتصل بي الليلة لأنني سأسافر لمكان هام وغدًا ستجد مفاجأة سارة، أغلقت السماعة واستقليت الحافلة المتجهة إلى الإسكندرية من عند محطة (.....) وجلست داخلها.

جلست أفكر في الحلم القادم، وبجانبي جلس شاب ارتسمت ملامح الحزن على وجهه، من وقت لآخر يُغمض عينيه وتنحبس الدموع في مقلتيه، ويقبض على مسند مقعده بشدة كأنه يتألم من الحزن! تساءلت وأنا أقبض بيدي على علبة الدبل عن هذا الشاب الحزين، تساءلت عما يفكر فيه، وسرعان ما تركته لأحزانه وعدت أنا لأفراحي، أقرب الدبلة الذهبية من فمي وأتخيل أن حبيبتي ترتديها، ومن ثم أقبلها كأنني أقبل يد حبيبتي، فجأة شعرت بسرعة الأتوبيس تزيد وصوت قطار و...

***

- "كفااية".

قلتها بغضب وأنا أنهض.. لماذا قلتها بغضب؟ لماذا نهضت؟ لما زاد تنفسي؟ أطلقت صرخة طويلة، ألم.. ألم برأسي، كفى، سينفجر مخي من الألم، قطار يسير بسرعة شديدة، آآآآآآآآآآآآه، صرخت وصرخت، لقد فهمت لقد فهمت، القطار وألم و... صوت باب الغرفة يُفتح، ثم صوت الكليك الناتج عن ضغط مفتاح الإضاءة، والضوء يغزو المكان!! وضعت يدي أمام عيني بسرعة من شدة الضوء الأحمر الذي جاء من المصباح المعلق في سقف الغرفة، تعودت عيني على الإضاءة ففتحتهما وأنا أحاول تمييز من ينظر لي من خارج الغرفة، إنهما الممرضان اللذان قابلاني اليوم وكانا يجلسان خلف الكاونتر ينظران لي بذهول ثم ينظران لبعضهما!! نظرت حولي.. مقاعد مكسورة.. أخشاب.. ملابس مهترئة.. أين أنا؟

- "انت دخلت الأوضة دي ازاي؟"

قالها أحد الممرضين بدهشة ممزوجة بشك، فنظرت حولي مرة ثانية للغرفة الضيقة، أين المرضى؟ أين الأصوات؟ ماذا حدث؟ قلت وأنفاسي تتسارع من الخوف:

- "فين.. فين (ثابت)؟ (ثابت) هو اللي جابني هنا، فين الناس اللي كانت بتكلمني؟!"

نظرا لبعضهما مرة ثانية، ثم دخل أحدهما للغرفة بحذر وقال وهو يساعدني على النهوض من على الأرض.. أين المقعد الذي كنت أجلس عليه؟!

- "مين (ثابت) ده؟ وانت ازاي وصلت للأوضة دي يا أستاذ؟ ومرضى إيه اللي انت بتتكلم عنهم، دي أوضة كراكيب!"

أمسك مرفقي وأنا أنهض بصعوبة وأنظر حولي، ثم أخرجني من الغرفة وأنا أجر قدمي وأنظر خلفي للغرفة مرة أخرى.

- "صدقوني فيه واحد اسمه (ثابت) كان هنا وهو اللي دخلني العنبر ده و.."

قاطعني أحدهما وهو يجرني بلطف كي أسير أسرع معه قائلاً:

- "يا أستاذ قلتلك محدش اسمه (ثابت)".

توقفت أنا فجأة وتوقفا هما معي، ما هذا الذي يحدث؟ لقد أخرجوني من الغرفة التي اتضح أنها خالية، وسرنا معًا في ممر صغير ثم وجدنا أنفسنا عند كاونتر الاستقبال الخاص بالمصحة! كيف هذا وأنا صعدت بجانب (ثابت) السلم وسرت في ممرات عديدة لأصل لتلك الغرفة!!!

- "أستاذ، أنا شوفتك النهارده الصبح، مش انت اللي جيت تسأل عن مدير المستشفى؟"

نظرت لقائل العبارة بلإرهاق وأشرت برأسي علامة الموافقة، فقال الرجل عبارة لا أتذكرها، ولكني تذكرت زميله وهو يسأل:

- "انت دخلت الأوضة ازاي يا أستاذ؟"

- "فيه حد وصلني ليها، هو مدير المستشفى جه؟"

- "لا، دكتور (هادي) ماجاش النهارده".

نظرت لعينيه قليلاً ثم شكرت من يمسك بيدي وأنا أحررها منه وأقف أهندم ملابسي.. كنت بدأت أشعر بشعور غريب، نظرت إلى الكاونتر، هناك ساعة معلقة فوقه.. ركزت عيني على الساعة المعلقة وأنا أقطب جبيني، عقرب الثواني في الساعة يدور عكس اتجاه عقارب الساعة، يدور لليسار!!! نظرت للنتيجة المعلقة على الحائط تحت الساعة فوجدت الأرقام مكتوبة بالعكس كأنني أراها في مرآة، صرخت بأعلى صوتي وأنا أمسك رأسي من الألم والأفكار.

***

الفصل الثالث والعشرون

رفعت (دعاء) رأسها من على رواية (نصف ميت) متسعة العينين، الدموع تتكون داخل مقلتيها من نهاية الرواية ومن الحقيقة المرعبة التي فهمتها، كانت تجلس على فراشها فنهضت من عليه، تركت الفراش وفتحت باب الغرفة متجهة إلى الشرفة التي تجلس شقيقتها بها منذ تركتها لتقرأ بقية الرواية.

وجدت (داليا) تجلس كما هي معطية ظهرها لها، نظرت لها (داليا) وتأثير الدم لا يزال حول عينيها.. طالت النظرات بين الشقيقتين حتى تكلمت (دعاء) بنبرات بطيئة خافتة حزينة:

- "النصف ميت.. هايعمل الرمز ويتكلم عن المزيف.. هايكون معاه الدليل.. والمرافق هايوصله".

الدموع المتكونة في عين (دعاء) بدأت بالتساقط على الأرض، وشقيقتها تنظر لها نفس النظرة الجامدة الطويلة.

***

الساعة الثالثة قبل الفجر

غرفة (هادي) وبابها المفتوح والعطر الذي انبعث منها، وداخلها يجلس (طاهر) على نفس المقعد يأكل شيئًا ما وهو ينظر إلى الشاب الذي يقف دائمًا بجانبه ويتحدث معه عن جدول أعماله غدًا، ويأمره أن يؤجل بعض المواعيد الصباحية لأنه سيستيقظ متأخرًا، ثم نظر

الاثنان باتجاه باب الغرفة و(هادي) والرجلان يحملان الكفن ويدخل الجميع للغرفة، هذه المرة وضع الجميع الجثة على فراش (هادي) الذي فرش عليه ملاءة جديدة، كما حدث في المرة السابقة.

نهض (طاهر) ووقف عند رأس الجثة، ثم فتح الكفن لتظهر ملامح المرأة الشابة الممتلئة قليلاً جميلة الملامح قمحية اللون، وقد ضُفرت خصلات شعرها ثلاث ضفائر، ضحك (طاهر) وهو يمسك إحدى ضفائرها قائلاً:

- "حلوة قوي القوصة دي، طب ما كانوا يعملوهالها كيرلي أحلى علشان الموضة".

ضحك الجميع مجاملة لعبارة (طاهر) الذي نظر لهادي وقال له:

- "حلوة برضه المرة دي، بس كفاية عليك اللي انت أخدته، ده انت قابض ليلتين ورا بعض يا راجل".

ابتسم (هادي) وهو ينظر للأرض ويقول بنفاق واضح:

- "من غير فلوس خالص يا باشا، اتمتع انت بس واحنا تحت أمرك، ويارب تعجبك المرة دي".

ضحك (طاهر) وهو يضرب على جسد المرأة الميتة بيده على مناطقها الحساسة ويقول:

- "لا حلوة بجد".

ضحك (هادي) وحده هذه المرة واتجه إلى باب الغرفة ليغادرها هو والحراس، ولكن (طاهر) قال له قبل أن يغادر:

- "المرة الجاية هازودك ألف جنيه يا (هادي)، بس اتجدعن انت وخليها بسرعة".

قال (طاهر) العبارة السابقة لأنه خاف أن يغضب (هادي) فيؤخر عليه جثثًا جديدة، فهو يعرف أن لـ (هادي) زبائن آخرين غيره، ولذلك كان يجب عليه أن يُطمّعه كي يتصل به كلما جاء جديد، خرج الجميع وتركوا (طاهر)، الذي أخرج من جيب قميصه علبة أقراص صغيرة وتناول قرصًا منها، وهو يتكلم مع الجثة:

- "ايه يا حلوة مغمضة عينك ليه؟ مكسوفة مني ولا إيه؟"

مد يده يحاول أن يفتح عين الجثة، ثم خلع قميصه وسرواله وأمسك بسكين صغيرة تناولها من على منضدة (هادي) ليقطع بها قماش الكفن من على جسد الجثة. في الخارج وقف الحارسان والرجل الذي يرافق (طاهر) على مسافة قريبة من الغرفة ينظرون حولهم بين الحين والحين.

(هادي) يقف بجانب أحد الحراس ويناوله سيجارة، فيلتقطها منه الحارس بقرف وهو ينظر له نظرة جانبية، أما الحارس الآخر فقد رفض السيجارة من يد (هادي). لم يعرض سيجارة على الثالث لأنه كان يعرف أنه سيرفضها من البداية، ولأن شخصيته ترعبه.. (علي الطيب) يتحرك وسط الظلام من الناحية الأخرى من الغرفة بمشيته البطيئة الهادئة وعيناه المتصلبتان على نافذة الغرفة، وعقله.. العقل البسيط الطيب الذي استحق أن يحمله. عقل تدور فيه الآن بعض الأفكار

تنصب كلها حول الخطيئة، نعم، فعقله قادر على معرفة الخطيئة والصلاح، الطيب والشرير، الفعل الصحيح والفعل الخاطئ، وربما كان عقله أشد قوة في الحكم على الخطايا، صحيح أنه لا يعلم الكثير من التفاصيل عن الحياة والموت سوى قشورًا استنتجها عقله، ولكنه يملك الاختيار.

عرف هذا منذ أول ليلة رأى فيها عملية بيع جثة، أول ليلة رأى فيها أحد هؤلاء المتأنقين يمارس الجنس مع الفتيات الصغيرات اللاتي فارقن الحياة، أول ليلة وجد فيها (هادي) يقبض أموالاً من رجال أدى لهم خدمات مقابلها، يعرف الأموال جيدًا ويعرف أنها أداة المقايضة المستعملة، ويعرف أسماء العملات أيضًا وبعض أشكالها، ويعرف أن (هادي) يقبض المال مقابل ما يحدث، اقترب أكثر من النافذة ومشاهد كثيرة تعود لعينيه، عشرات الجثث وعشرات المقابر وعشرات النعوش، عظام، لحم، جثث، رجال يدفعون النقود، رجال يغتصبون الفتيات الميتات، و.. توقفت المشاهد عند الجثة التي دخلت المقابر أمس، الجثة التي تحركت يدها قبل أن تدخل المقبرة، أو بمعنى آخر الرجل الحي الذي دخل القبر.

انتبه هنا لطاهر العاري وهو يُصدر الأصوات من شفتيه ويرتعش كما كان يفعل كل مرة، عض بأسنانه على شفتيه وهو يسمع صوت المرأة الميتة في أذنه وهي تبكي وتئن من الألم.. سال الدم من شفتيه جراء ضغط أسنانه ولكنه لم يشعر قرب رأسه من النافذة أكثر حتى التصق وجهه بزجاجها، ضغط بأسنانه أكثر على شفتيه.. لقد كان يرى منذ زمن أنه يملك حق الاختيار بين الخير والشر.. والآن سيختار.

***

الفصل الرابع والعشرون

نظر لي الممرضان وأنا أمسك رأسي والأفكار تتسلسل في عقلي بسرعة.

نحن في شهر أغسطس فكيف تكون هناك دراسة في الجامعات؟

***

نظر دكتور (مصطفى) في ساعته ونهض بسرعة قائلاً:

- " نسيت إني عندي محاضرة لفرقة تانية دلوقت، أنا هاكتبلك العنوان على ورقة واديهولك وبكرة تبلغني عملت إيه".

بالفعل أخذ ورقة على عجل من على مكتبه وخط عليها العنوان ثم وودعني

***

لا توجد في (فيصل) مصحات أو شارع بهذا الاسم.

***

(مصحة الأمل. فيصل. شارع حسن حماد متفرع من شارع العشرين)

***

دكتور (مصطفى) زيادة أحد أساتذة الطب النفسي في الجامعة تُوفي وأنا في العام الدراسي الأول فكيف يتحدث معي أصلاً؟

***

توقف دكتور (مصطفى) لحظة وقال وهو يعدل وضع منظاره الطبي.

***

نضج الطعام فنقلته للمائدة وحاولت أن أفتح التلفاز كثيرًا ولكنه لم يستجب، يبدو أن الكهرباء لا تصل من الأساس لدوائره الداخلية، لا يهم أخرجت من مكتبتي كتابًا لدكتور مصطفى زيادة رحمه الله، ولكني تذكرت أنني قد قرأته منذ أيام فأخرجت كتابًا آخر قديمًا.

***

جامعة عين شمس التي تخرجت منها وحصلت على الماجيستير في علم النفس من داخها، كيف لي أن أستقل مترو محطة (الدقي) من جانبها؟! ومحطة المترو التي تُقابلها هي محطة (منشية الصدر؟!)

***

توجهت إلى المترو ودخلت المحطة، دخلت لمحطة قطار المترو وسط الجموع وأنا أنظر بعيني إلى اللافتة التي عُلقت على المحطة (الدقي)، قلت في نفسي إنني لن آخذ وقتًا طويلاً كي أصل لمحطتي.

***

صورتي لا أراها في المرآة.

***

قربت وجهي منها باستغراب حتى توقفت أمامها تمامًا.. أين انعكاس صورتي في المرآة!!!

***

عيني اليسرى التي لا أرى بها جيدًا.

***

يدي التي تكلم عنها السائق.

***

فجأة دوى صوت سائق التاكسي يقول:

- "مال ايدك يا باشا؟"

***

كيف أسير بين ممرات عديدة وأنا خلف (ثابت) ثم عندما أعود أسير في ممر واحد فقط؟

***

دخل (ثابت) في ممر على اليمين فتبعته، ثم ممر أيمن أيضًا، ثم أيسر، ثم سرنا في ممر أطول من الممر السابق.

***

سائق التاكسي الذي اعتقدت أنني رأيته من قبل قال لي إنه ربما قام بتوصيلي من قبل!!!

***

- "احنا اتقابلنا قبل كده يا حاج؟"

obeikan.com

ابتسم الرجل الطيب وقال:

- "أنا كمان باشبه عليك يا بني، ممكن أكون وصلتك قبل كده لمكان، المهم سامحني يا بني إني خليتك توصل متأخر".

***

هذا السائق يعرف طرقًا غريبة بحق، فهو يقود الأتوبيس متجهًا إلى الإسكندرية ولكنه يسلك طرقًا عجيبة ويقف عند محلات مأكولات كثيرة ويعلن للركاب أنه يمكنهم النزول لعشر دقائق لشراء ما يحتاجونه.

***

وانفتح تابلوه السيارة لتقع على قدمي صورة صغيرة داخل برواز من الذي يُعلق.. صورة لفتاة حسناء تبتسم.

- "دي بنتي الوحيدة".

***

عم (محمد) الرجل الطيب الهادئ الذي لا يضع بالاً لشيء ما في حياته، يصلي الفروض في أوقاتها ويتطوع لصوم أيام كثيرة من كل شهر، رزقه الله بابنته الوحيدة (سمية) نور عينيه والتي يحبها أكثر من نفسه.

***

صرخت وأنا أتألم وأقول بأعلى صوتي:

- "كفاية يا (حاتم)".

فجأة اختفت قاعة الاستقبال في المصحة ووجدت نفسي أستيقظ في القبر.. آآآآآآآآآه، الظلام والرائحة ودرجات السلم التي توقفت عندها وأنا أحاول الصعود إلى باب القبر.. صرخت فخرج صوتي متحشرجًا كما هو.. يدي اليمنى الوحيدة حركتها وأنا استشعر ملمس درجات القبر الترابية وسط الظلام.. لماذا تفعل بي هذا يا (حاتم)؟! الذكريات تعود لي بقوة، الليلة التي قررت فيها السفر إلى الإسكندرية، الحافلة التي استقللتها والشاب الذي جلست بجانبه، ذكرى جدي التي عادت لي وأنا أركب معه الحافلة ويُجلسني على قدميه وأنام على صدره، كما اعتدت في صغري، في أي وسيلة مواصلات أستقلها معه.

الشاب الذي يمسك علبة صغيرة ينظر لها بين الحين والآخر ثم يُقبّل شيئًا ما داخلها، الدموع تتساقط من عيني وأنا أتذكر جدي، صوت القطار، ثم.. لماذا أشعر بالدوار الآن، رأسي، رأسي، آه..

***

عدت لأجد نفسي في الغرفة المظلمة مرة أخرى، أجلس على المقعد وصوت (حاتم) الشاب يتكلم بجانبي.

- "(خالد) خليك معايا".

قلت أنا بصوت غاضب:

- "ليه بتعمل فيا كده يا (حاتم)؟"

***

فعائلة والدي بالطبع لا تعرف موضوع أن الأشياء تتحرك من حولي وأنني أزرع أحاسيس في العقول.

***

الأشياء التي يمكنني فعلها في حالتي الطبيعية وخاصة بعد أن تحول زرع الأحاسيس في العقول إلى زرع ذكريات غير موجودة في العقول..

***

قلت بغضب:

- "انت اللي زيفت كل الذكريات دي يا (حاتم) وأنا لسة جوه القبر؟"

رد صوت (حاتم):

- "القبر اللي انت فيه دلوقت أنا جثتي جنبك، وكل اللي كلموك هنا في الأوضة دي جثثهم موجودة جنبك في القبر الحقيقي، الأوضة دي اللي انت بتكلمني فيها عبارة عن ذكرى زرعتها في عقلك".

سكت قليلاً ثم قلت:

- "انت ميت؟"

- "آه".

- "وأنا؟"

- "حي".

obeikan.com

أصبح صوته أكثر انفعالاً وهو يقول:

- "كان لازم أعرف أكلمك..كان لازم أعرف أوصلك اللي بيحصل حواليك،كان لازم أستخدم ذكريات مخك وأبني عليها ذكريات جديدة كل ما تروح في غيبوبة، لكن أنا لما بأزرع الذكرى في مخك عقلك بيرفضها، وده اللي بيخلي الذكريات فيها أخطاء زي ما شكل الساعة والنتيجة كان غلط، وزي ما صورتك في المراية ماكنتش موجودة، لأنك في الحقيقة لسه في القبر.. أنا أوحيت ليك بكل شيء شوفته، ودي الطريقة الوحيدة اللي أقدر أتصل بيك بيها علشان تسمعني أنا وباقي اللي في القبر.. كل مرة الذكريات كانت بتختل ويبقى فيها غلطات في الأماكن والأشخاص كنت بتفوق تلاقي نفسك في القبر مرة تانية.

***

قربت وجهي منها باستغراب حتى توقفت أمامها تمامًا.. أين انعكاس صورتي في المرآة!!!

***

شهق شهقة كبيرة وهو يحاول أن يحرك يده من على الجثة التي وضع يده عليها يتحسسها، إذن هو داخل قبر، يا للهول يا للهول، هل مات وينتظر الحساب أم أن.. أم أن ماذا؟ أبعد يده عن الجثة وأوصاله ترتجف مما فهم.. حاول الارتكاز بيده على الأرض لينهض ولكنه فقد الوعي فجأة.

***

لماذا لا أرى انعكاسي في المرآة؟! توقفت لدقيقة أنظر للمرآة بنوع من التركيز محاولاً تأمل السطح المصقول وهل به مشاكل في التنظيف!! لا جدوى من ذلك، فانعكاس باب الحمام يظهر بالمرآة ولكن انعكاسي هو الذي لا يظهر.

***

أكمل (حاتم):

- "أنا ماكنش ينفع أوريك غير أشخاص ميتين، كل واحد شوفته واتعاملت معاه كان ميت، أستاذك في الجامعة وسواق التاكسي اللي هو سواق الأتوبيس اللي عمل الحادثة بينا، و(سيد) و(محمد) الممرضين اللي قابلتهم وانت داخل المصحة هما (سيد) و(محمد) اللي نقلوا جثثنا للتربي اللي اسمه (هادي)".

إذن فمدير المستشفى الذي سمعت أن اسمه (هادي) المقصود به هو التربي.. والمصحة هي المقابر، وبالتالي فمديرها هو التربي نفسه، ولكن من هو (ثابت)؟

- "التربي اسمه (هادي ثابت عيد) يا (خالد)".

(ثابت) هو والد (هادي)، وهو من أدخلني لهذه الغرفة، إذن فوالد (هادي) كان يعرف بأمر تلك المقبرة منذ زمن، وبالتأكيد هو ميت الآن لأني رأيته في الذكريات المزيفة، صوت (حاتم) يقول:

- "المصحة هي المقابر، وعينك اللي وجعاك هي عينك اللي انصابت في الحادثة، والإيد اللي شاورلك عليها سواق التاكسي هي ايدك اللي انقطع جزء منها، والساعة 12 إلا عشرة لما دخلت الأوضة هي نفس الساعة والدقيقة اللي دخلنا فيها أنا وانت القبر امبارح، والممرضين الاتنين اللي شوفتهم دول اللي نقلونا ليلة ما دخلنا القبر".

يستحيل عليّ أن أصدق ما يحدث؟ الآن جسدي داخل القبر ولكن عقلي يسبح في ذكريات صنعها (حاتم)!!!

- "أنا بأقدر أزرع الذكريات والأوامر في عقول الناس القريبين من جسمي، أي حد قريب من جسمي أقدر أزرع في دماغه ذكرى أو أمر، انت علشان جنبي قدرت أعمل معاك كل ده، وأي حد يبقى قريب مني أقدر أحط في دماغه فكرة أو أمر أو ذكرى مش حقيقية".

سكت قليلاً ثم أكمل:

- "(خالد)، الذكريات المزيفة هاتنتهي بعد دقايق خلاص ومش هاعرف أكلمك بعدها، لازم تخرج من هنا بأي طريقة، الأموات اللي كلموك عايزين منك تدل أهلهم على جثثهم وتبلغ عن اللي عملوا فيهم كده".

بدأ الألم يعود لرأسي فسمعت صوت (حاتم) يقول:

- "عقلك بيرفض الذكريات اللي بحطها فيه خلاص، انت وعيك هايرجع ليك تاني.. اسمع، لو خرجت من القبر ده وانت عايش عايزك

تروح مكان معين بعد ما تاخد حاجة معينة وانت رايح، وهاخلي أقرب واحد يقرب من قبري يساعدك، قولي يا (خالد) انت بتخاف من القطط؟"

لم أفهم مغزى العبارة ولكنه أكمل كلامه، ومن وسط الألم الذي اشتعل في رأسي سمعت عباراته الأخيرة وحفظتها عن ظهر قلب.. عن الرمز والدليل والمزيف والعنوان والميعاد والمرافق الذي سيرافق نصف الميت.. حفظت ما سأفعل وما سأقول، آه، الألم يشتد، أحرك رأسي يمينًا ويسارًا من شدته.. أرتعش وأرتعش وأرتعش وأحاول الصراااااااااااخ.

***

لقد عاد وعيي ثانية.. أنا في القبر!!! على السلم الحجري كما أنا عندما كنت أحاول صعود درجاته، صرخت بقوة مرة أخرى لعل أحدهم يسمعني.

***

الفصل الخامس والعشرون

انتبه هنا لـ (طاهر) العاري وهو يُصدر الأصوات من شفتيه ويرتعش كما كان يفعل كل مرة، عض بأسنانه على شفتيه وهو يسمع صوت المرأة الميتة في أذنه وهي تبكي وتئن من الألم.. سال الدم من شفتيه جراء ضغط أسنانه ولكنه لم يشعر، قرب رأسه من النافذة أكثر حتى التصق وجهه بزجاجها، ضغط بأسنانه أكثر على شفتيه، لقد كان يرى منذ زمن أنه يملك حق الاختيار بين الخير والشر.. والآن سيختار.

مد يده اليمنى يتحسس زجاج النافذة الذي يُغلقه (هادي) دائمًا بدون أن يُغلق مزلاجه، سحب الزجاج للخارج فانفتحت النافذة.. أمسك جيدًا بقاعدة النافذة ثم قفز بأقصى ما يستطيع ليتعلق بالنافذة ويحشر جسده ليدخل إلى الغرفة، العجيب أن (علي) كان يُحدث أصواتًا عند قفزه لداخل الغرفة فلم يستطع إخفاء صوت قدميه، ولكن الأغرب أن (طاهر) لم يسمعه وظل يفعل ما يفعله مع الجثة باستمتاع، سار (علي) داخل الغرفة مقتربًا من (طاهر) الذي لا يشعر به وهو يُعطيه ظهره، توقف بجانب المنضدة الموضوع عليها السكين، أمسك السكين بيده جيدًا.. شعر بقوة تسري في عروقه وهو يقترب من الفراش الذي يغتصب عليه (طاهر) المرأة.. يقف بجانب الفراش تمامًا.

الليالي التي نام فيها (علي) على الأرض داخل المقابر في البرد وعلى التراب والحصى صنعت من جسده النحيل كتلة حديدية خشنة،

توقف (طاهر) عما يفعله ونظر ليساره ببطء لتصطدم عيناه بجزع (علي) الذي يقف منتصب القامة أمامه.

رفع عينيه أكثر لتصطدم العينان الباردتان ببعضهما، عين (طاهر) وعين (علي)، رفع (علي) يده الممسكة بالسكين لأعلى ثم هبط بها ليغرس السكين في رقبة (طاهر).. دخلت السكين من شدة سرعتها حتى المقبض داخل رقبة (طاهر)، ولكن (علي) لم يكتفِ بذلك وإنما جذب السكين لخارج الرقبة ليذبحه وهو يدخل السكين ويخرجها كي يفصل رقبته، لوح (طاهر) كثيرًا بيده في الهواء وأخذ يُحرك جسده ولكن السكين التي تسير في رقبته تمنعه من التحرك، خرجت السكين من رقبته تاركه إياه يتحرك وصوت يشبه الصفير يخرج من حنجرته، توقف جسده فجأة ووقع من على الفراش.. سكنت حركته تمامًا لثوانٍ ثم عاد جسده يتحرك حركات تشنجية بسيطة توقفت بعد أقل من دقيقة.

اتجه (علي) لباب الغرفة ليفتحه وهو ينظر للحراس الواقفين وبجانبهم (هادي)، نظر له الجميع لحظة واحدة بعدم فهم ثم بسرعة أخرج اثنان من الحراس مسدسيهما وأطلقا النار بسرعة، كانا محترفين بحق وهما يطلقان النار على قدمه لأنهما لا يعلمان بعد ما حدث، فكما درسا يجب أن يقيدا حركته أولاً كي يتأكدا مما يحدث.. دخلت رصاصة في فخذ (علي) فأصدر تأوهًا وتراجع بفعل دفعة الرصاصة لداخل الغرفة، جرى الحارسان للداخل بسرعة و(هادي) يتبعهما والشخص الثالث يُخرج مسدسه هو أيضًا وينظر حوله، دخل الجميع الغرفة وتسمر الحارسان أمام جثة (طاهر) الملقاة، دخل الثالث الغرفة وهو يجري نحو جسد (طاهر) الملقى على الأرض يتفحصه.. كان

(علي) ينهض من على الأرض وهو يستند إلى المنضدة، ولكن الرجل الذي يتفحص جسد (طاهر) هتف بغضب وهو يوجه مسدسه ناحية (علي):

- "يا ابن الكلب!"

أطلق النار فاخترقت الرصاصة بطن (علي) ولكنه لم يسقط، بل جرى عليه (هادي) يحاول وقف نزيف الدم الذي انفجر من أحشائه، ثم جرى كل شيء أسرع من المتوقع.

صاح (هادي) في الحراس وهو يُمسك السكين التي وقعت على الأرض ويغرسها في صدر أقرب الحراس إليه، وفي نفس الوقت تخترق رصاصة من الحارس الآخر صدره لكنه لا يتأثر ويُخرج السكين من صدر الحارس الأول ويحاول غرسها في صدر الحارس الثاني، الذي أطلق عليه الرصاص، فتأتي رصاصة ثانية لتخترق صدره أيضًا ويعود إلى الوراء من قوة الرصاصة ليصطدم بجسد (علي)، الذي مازال واقفًا.. عندما اصطدم جسده بجسد (علي) أدار له وجهه بسرعة وهو يحتضنه ورصاصة أخرى تخترق ظهره، وكلمة متحشرجة تخرج من شفتيه لـ (علي):

- "اهرب".

فجأة جحظت عيناه عندما تلقى رصاصة أسفل رقبته وسقط على الأرض، وأمام أعين الباقين جرى (علي) المصاب برصاصة في فخذه ورصاصة في بطنه وغادر الغرفة بمعجزة، ورصاصتان تلاحقانه كادتا أن تصيباه، غادر الرجلان الغرفة وراءه وهو يجري أمامهما، وهما

يحاولان اللحاق به أو تحديد مكانه بدقة وسط الظلام، كان يجري وهو لا يشعر بالألم، نعم كان لا يشعر بالألم، ولكنه شعر بنوع من الانتشاء، نوع من السعادة الغريبة، تنميل محبب في أطرافه، يجري وهو يفكر بسرعة.. لقد اختار وأنهى حياة المغتصب.. التنميل الجميل يزيد والنشوة تزيد أكثر، يكاد يسمع أصواتًا في أذنه يعرفها.

نعم، نعم، هي الأصوات الجميلة التي تقول (الله).. إنها هي تعود لأذنه، ابتسم وهو يجري بين حارات المقابر في الظلام ويسمع صوت خطوات من يتبعونه تُسرع وراءه، سمع صوت رصاصة ورأى ضوءًا يسير من جانبه الأيمن بسرعة، إنها الأداة التي يصيبونه بها وقد أصابوا بها (هادي) ومات، هو يعرف الموت حين يراه.. إذن سيكون مصيره كمصير (هادي) الآن عندما تصيبه الأداة التي يحملها الرجال، أم إنه أصيب بالفعل وسيموت الآن؟ بقي أمامه القليل إذن ليُنفذ باقي ما اختاره، لو كان سيموت يجب أن يموت في مكان معين، يجب أن يعرف الجميع هذا المكان قبل أن يموت، صوت الرصاصة يدوي ولكنه لم يرَ الضوء هذه المرة، بل شعر بجسده ينتفض وجزء من ظهره يصيبه التنميل المحبب أيضًا، (الله) (الله) (الله)، الأصوات الجميلة تعلو في أذنه وهو يجري بين صفوف وشوارع المقابر وحاراتها مقتربًا من هدفه.

ابتسم أكثر وهو يرى المقبرة من بعيد.. لقد حان الوقت، الصورة تهتز أمامه، الصوت يعلو أكثر.. صوت يدق بانتظام في أذنه مع كلمة (الله).

اخترقت رصاصة أخرى جسده ولكنه كان قد اقترب كفاية من المقبرة ورمى جسده عليها وهو يبتسم ويتشبث ببابها الحديدي الظاهر،

تشبث جيدًا وهو يسمع الخطوات تقترب منه وهو نائم على وجهه يحتضن الباب، أطلق من حنجرته صوتًا وأغمض عينيه والرجلان يقفان وراءه ثم يوجهان المسدسات باتجاه جسده.. انطلقت الرصاصات وهي تُمزق جسد (علي) وتخترق لحمه وهو يتشبث بباب المقبرة، حتى انفجرت رأسه بعد أن اخترقتها ثلاث رصاصات وسكنت حركته، انتهى الرجلان من إطلاق النار بعد أن تأكدا من موته ونظرا حولهما ثم جريا بسرعة من المكان.

***

جاء هذا القط من داخل المقابر، جاء بعد انتهاء إطلاق النار من داخل غرفة (هادي)، دخل من الباب وهو ينظر للجثث المكومة والحارس الذي يشهق وهو يعاني سكرات الموت، اتجه القط رأسًا إلى جثة (هادي).. القط يمتلك مجموعة غرائز ومشاعر ولكنه لا يعلم لماذا أراد أن يلعب الآن داخل تلك الغرفة التي تمتلئ بالأموات! جثة (هادي) الملقاة على وجهها أخذ القط يخمشها بيده وكأنه يطمئن إلى مقاومة صاحبها.. بعد أكثر من مرة استخدم فيها القط مخالبه ليخمش جسد (هادي) بحذر؛ تأكد أن صاحب الجسد لن يمانع أن يلعب به قليلاً، مد مخالبه داخل ملابس (هادي) وكأنه يلعب حقًا معه، ولكن مخالبه كانت تقصد جيب سروال (هادي). دخلت المخالب داخل الجيب وخرجت ومعها العلبة الحمراء الصغيرة التي تحمل الدبل.

أخذ القط يلعب بها ثم قبض عليها بفمه وجرى لخارج الغرفة، وصوت رصاص ينطلق من مكان ما خارج الغرفة.

***

الفصل السادس والعشرون

تنحنح الشيخ (حامد) بين الحارات المظلمة في أحد أحياء شبرا، وهو يسير متجهًا إلى المسجد الذي يؤمه كي يرفع آذان صلاة الفجر ثم يقيم الصلاة ويؤم المصلين، نظر إلى (سعد) الرجل العجوز الذي يقيم معه بالمنزل بعد وفاة زوجته، ويسير معه أينما توجه ويعتني بالمسجد بين أوقات الصلوات، نظر له وقال:

- "أنا شوفتك بتتكلم مع واحد امبارح بعد صلاة العشاء قبل ما أمشي، مين ده؟"

رد (سعد):

- "ده راجل طيب جه الجامع امبارح الصبح وفضل قاعد فيه و..."

لم يكمل كلماته لأنه توقف ليُخرج مفتاح باب المسجد لأنهما وصلا أمامه، فتح (سعد) الباب وأضاء مصابيح المسجد فوجد الاثنان رجلاً ينام على جنبه الأيمن.

- "إيه ده؟ مين ده يا (سعد)؟"

قال (سعد) بلا مبالاة:

- "ما هو أنا ماكملتش كلامي، ده هو الراجل اللي انت شوفتني باتكلم معاه امبارح، الراجل ده فضل قاعد طول النهار يصلي ويعيط

obeikan.com

ويقرأ قرآن ويعيط ويدعي، بعد صلاة العشاء وبعد ما انت مشيت أنا كنت عايز أقفل الجامع، رحت ليه وقلتله إني هاقفل الجامع علشان يقوم يمشي، اترجاني وقعد يقول سيبني في بيت ربنا الليلة أنا عايز أبقى مع ربنا الليلة.. وعيط، بصراحة صعب عليا وسيبته وقفلت الجامع عليه".

- "شكله مجنون.. طب صحيه يا (سعد) علشان أنا هافتح الميكروفون علشان التواشيح اللي قبل الأذان، وكدة كده هايقوم من صوت الميكروفون".

مد (سعد) يده يلكز الرجل الراقد برفق ولكنه لم يتحرك، لكزه مرة ثانية بطريقة أعنف ولا استجابة! مد يده الثانية وقلبه على ظهره ليستطيع إيقاظه فوجد جسده يستجيب بسهولة، فينقلب على ظهره وفمه مفتوح مرسوم عليه ابتسامة صغيرة وعيناه متسعان تنظران لأعلى، وقع (سعد) وهو يتراجع للخلف من هول المنظر، وأخذ يردد الشهادتين، والشيخ (حامد) يجري إليه ويتفحص الرجل الميت ثم يردد الشهادتين ويغلق عينيه، ثم يجلس بجانبه يقرأ آيات من القرآن بصوت خفيض، وهو يكاد يبكي من هول الموقف.. من هذا الرجل الذي ظهر في المسجد أمس كما يقول (سعد)؟! وأخذ يصلي ويقرأ القرآن ويدعو الله؟ ولماذا أصر على المبيت في بيت الله؟

مد يده يبحث في ملابسه برفق حتى أخرج محفظته ومنها أخرج بطاقته وقرأ الاسم.. (محمد صلاح محمد الناجي)، قلب البطاقة ليرى عمله.. (ممرض).

***

قام (محمد) بتعريفه إلى (سيد) بسرعة بأنه (هادي) حارس المقابر.. كان صوته خافتًا بالرغم من عدم وجود أشخاص حولهم لمئات الأمتار، إلا أن المكان كان قد أضفى رهبة عليهم جميعًا.

***

ابتلع (سيد) ريقه وهو يفكر، في حين أخذ (محمد) الجوزة وهو يعطيها له ويقول ضاحكًا:

- "انسى يا جدع وماتفكرش كتير في الحاجات دي، خلي العايش عايش والميت ميت ومحدش بيشتكي لحد".

***

مد (محمد) يده في جيبه وهو يبحث عن شيء ما و(سيد) يشاهدهما باستغراب وهو يسحب أنفاس الجوزة، حتى أخرج (محمد) مبلغًا من جيبه:

- "ألف جنيه يا عمنا، أنا هاخد 300 جنيه منهم و(سيد) ياخد 200 وانت حلال عليك الباقي يا سيدي".

- "طب حالة الجثث إيه؟ ينفع تتباع يعني والعظم مكسر ولا إيه نظامه؟"

***

- "دي الجثة المتقطعة".

لم يبدُ على (محمد) التأثر، ولكنه ساعده على سحب الجثة وحملها خارج السيارة ليستقبلهما (هادي) بسرعة قبل أن تقع الجثة.

***

يخرج الطفل الوديع من جسد أمه العاهرة القاتلة، ثم يعطيه لمرضه ليذهب به إلى هذا التربي، هناك ما يشبه العقد بين المرض والتربي، عقد قديم جدًّا، عقد مصالح لتوريد الجثث، يأتيه بجثث أطفال وجثث كبار، وكل شيء بحسابه.

***

استيقظ (خالد) من غيبوبته على صوت رصاص يصطدم بشيء معدني بدا له أنه باب القبر، مرت دقائق وهو ينتظر في الظلام بدون أن يعرف ماذا يفعل، أصوات رصاص بجانب المقبرة، وبعضها يصطدم بباب المقبرة؟ فكر قليلاً ثم قرر أن يُكمل الزحف لأعلى درجات السلم بيده الوحيدة.. شعر بألم مرة أخرى في رأسه، ثم وجد باب القبر يُفتح فجأة والهواء يصطدم به مع دخول ذرات تراب في عينه التي يرى بها، مد أحدهم يده يقبض على معصم (خالد) ويسحبه لأعلى وهو يئن من الألم، خرج من القبر وهو ينظر حوله إلى الرجل الذي أخرجه، هذا الوجه ليس غريبًا على ذاكرته، ولكن الرؤية غير واضحة و.. إنه وجه جده المتوفي يبتسم له!!

فجأة عاد الظلام و(خالد) يستيقظ من غيبوبته مرة ثانية وهو يطلق صرخة متحشرجة.. لقد كان يحلم بأن جده أخرجه من القبر.

***

الفصل السابع والعشرون

رتبتي هي ملازم أول، اسمي (خالد محمد عبد الغفار).. شرطي بدائرة (....)، سأحكي ما حدث.. عندما كنت أجلس داخل السيارة بجانب زميلي والأمين المرافق لنا في دوريتنا ليلاً بمنطقة (....) لأن هناك إشارة بلغتنا بأن هناك مشاجرة تمت في تلك المنطقة، وأنها ستشتعل مرة أخرى الليلة قبل الفجر.

كاد (عمر) زميلي الجالس على مقود السيارة يغط في النوم من التعب وأنا أجلس بجانبه أنظر إلى الطريق الخالي وأفكر في نقلي لتلك المنطقة الشعبية منذ شهور ومحاولتي رسم شخصيتي عند مجرمي المنطقة الذين يعرفون أسماء الضباط واحدًا واحدًا، والمشاجرات التي تمت ولم أستطع الفصل فيها بسبب هروب الأطراف المتشاجرة، نظرت في المرآة لأمين الشرطة المرافق لنا والذي أغمض عينيه ونام منذ ساعة ولكنه كان يستيقظ بين الحين والحين كي يعتدل وينظر لنا بشك ليرى إن كنت أنا وزميلي سنعنفه لو أكمل نومه أم سنتركه، نظرت في ساعتي، وفجأة سمعت صوت رصاصات قوية من مسافة بعيدة!!! استيقظ الأمين وانتبه زميلي وهو يدير السيارة ويقول شيئًا ما عن بدء المشاجرة، ولكن بالأسحلة النارية هذه المرة، وهذا غريب على هذه المنطقة.

كاد أن يتحرك بالسيارة ونحن نستمع لإطلاق الرصاص المتواصل من أكثر من مسدس.. قلت له إن الصوت ليس من هنا، بل من مكان

بعيد عن الشارع الذي من المفترض أن تحدث فيه المشاجرة، قال الأمين إن الرصاص يأتي من الشوارع القريبة من المقابر، فنظرنا لبعضنا ثم قرر زميلي أن يذهب للشارع الذي ننتظر المشاجرة منه، ثم نكمل طريقنا للمقابر حتى لا يكون في الموضوع خدعة، أمسكت اللاسلكي وأنا أبلغ إشارة سماع صوت إطلاق أعيرة نارية في منطقة دوريتنا وأطلب الدعم.. صوت الرصاص مازال يدوي، ولكن أصبح بين الرصاصة والأخرى فترة زمنية تُعد بالثواني.

قاد (عمر) السيارة وهو يتجول في الشوارع التي خرج أهلها من منازلهم على صوت الرصاص والجميع يتساءل بدهشة، قاد السيارة إلى الشوارع الجانبية والأمين يدله على الطريق ليذهب إلى الشوارع المقابلة للمقابر.. وفجأة توقف صوت الرصاصات لدقيقة، ثم دوت أكثر من ثماني رصاصات من مسدسين مختلفين في توقيت مقارب، ثم توقف صوت الرصاص بعد ذلك، أصبحت على اتصال بضابط النبطشية في القسم وأنا أبلغه في اللاسلكي أننا نتجه إلى الشوارع المحيطة بالمقابر لأن صوت الرصاص يأتي منها.

الشوارع التي نقطعها بالسيارة استيقظ أهلها وأُضيئت أضواء المنازل ورأينا بعضهم يسير في الشوارع التي نقطعها متجهين على ما أعتقد ناحية المقابر مثلما نفعل.. دوى صوت رصاصة منفردة، بعد عشر دقائق وجدنا تجمعًا يسد أحد الشارع، والأهالي يصيحون وبعضهم يمسك أسلحة بيضاء والبعض الآخر عصي غليظة ويلوحون بها، خرجنا من السيارة ونحن نُشهر أسلحتنا ونصيح بالناس المتجمهرة محاذرين أن تحدث مشاجرة بيننا وبينهم، ولكنهم هللوا عندما وجدونا

نتقدم وكأنهم كانوا ينتظروننا وأفسحوا لنا الطريق بينهم!! جرينا وسطهم نخترقهم محاولين الوصول إلى.. ما هذا؟ مجموعة من الرجال يضربون شيئًا ما على الأرض ويدوسونه بأحذيتهم وبعضهم يضربه بالعصي؟ صحنا فيهم فلم يفسحوا لنا المجال.

اضطررت إلى شد أجزاء مسدسي الميري وأنا أحذر بصوت عالٍ أنني سأطلق الرصاص إذا لم يبتعدوا عما يضربونه، انتبه الرجال وابتعد البعض، وظهر على الأرض رجلان ممزقا الملابس يتلوى أحدهما من الألم والآخر سكنت حركته.

تكلم زميلي مع أحد الرجال بحدة وهو يسأله، فرد عليه الرجل:

- "احنا سمعنا صوت الرصاص جاي من المدافن اللي هنا".

وأشار بيده ناحية المقابر التي كانت تبعد مائة متر عنا، ثم أكمل:

- "جرينا على هنا لقينا الاتنين دول بيجروا وهايركبوا عربية واقفة هناك، وكانوا ماسكين مسدسات، جينا نتكلم معاهم راح واحد فيهم ضرب نار على عم (مسعد) البقال موته ابن الوسخة.. كانوا فاكرين إنهم خوفونا وركبوا العربية، بس قبل ما يدوروها كسرنا عليهم الإزاز وخرجناهم بالعافية، وواحد فيهم حاول يضرب نار تاني لكن ماكنش في مسدسه طلقات، مسكناهم وأدينا بنعجنهم أهو لغاية ما نعرف إيه حكايتهم".

كنت أسمع كلام الرجل وأنا أمسك بالرجل الذي يتلوى من الألم من ملابسه الممزقة وأرفعه ودماؤه تغرق ملابسي.. سألته بعنف عما حدث، لكننا سمعنا صوت رجل يصيح في الأهالي من داخل القبر:

- "قتلوا (هادي) يا رجالة، قتلوا (هادي) ولاد الكلب".

جرى الأهالي باتجاه القبر وأنا أسحب الرجل ورائي وزميلي يأمر الأمين بتقييد الرجل الآخر الذي لا يتحرك وحراسته حتى تأتي دورية الإمدادت، توقفت عند المذبحة التي رأيتها داخل تلك الغرفة والأهالي يصيحون وأنا آمرهم بالابتعاد عن الجثث لحين وصول المعمل الجنائي، نظرت هذه المرة بغضب للرجل الذي كنت أمسكه وفعلت أغرب أمر جنوني يمكن أن أُحاسب عليه.. قلت له وأنا أصرخ أن يتكلم بما حدث وإلا قتلته، لم ينتبه لكلماتي وهو يُغمض عينيه، فقربت مسدسي من أذنه وأطلقت رصاصة للأعلى مرت بجانب أذنه تمامًا، فأمسك أذنيه من صوت الرصاصة.

- "ها ياض، هاتتكلم ولا الرصاصة الجاية تبقى في نافوخك؟".

وضعت ماسورة المسدس على صدغه وضغطت بقوة وأنا أصيح فيه، ولكنه قال بسرعة إنه سيتكلم.. قلت له أول سؤال خطر على بالي:

- "انتوا اللي قتلتوا دول؟"

- "آه".

- "ليه".

- "احنا يا باشا البودي جارد بتوع (طاهر) باشا، ولما لقينا واحد قتله وكان معاه سكينة ضربنا عليه النار، قام التربي قتل واحد فينا فقتلناه".

نظرت إلى الجثث.. جثة امرأة ملقاة على الفراش عارية، جثة رجل عاري ملقى بجانب الفراش ورقبته على وشك الانفصال عن بقية جسده، جثتين لشابين يرتديان بذلتين، قارنت كلام الرجل مع عدد الجثث.. (طاهر) باشا قُتل هو وحارسه، والتربي قُتل، إذن أين قاتل (طاهر) باشا هذا، ومن هذه المرأة؟!

- "فين اللي قتل (طاهر) بتاعكم ده؟"

- "قتلناه يا باشا".

- "وفين جثته يا روح أمك؟"

- "مش هنا.. احنا جرينا وراه وسط الترب.. لغاية ماعرفنا نصطاده".

- "ومين الست دي ياض؟"

لم يُجب الرجل، كررت السؤال، فقال بصوت خافض وكأنه لا يريد أن يسمعه أحد:

- "دي كان (طاهر) باشا نايم معاها".

نظرت لها جيدًا.. لماذا هناك قماش أبيض تحتها؟

- "ومين قتلها دي ياله؟"

قال لي بنفس الصوت الخافض:

- "دي ميتة من زمان يا باشا.. ميتة قبل ما (طاهر) باشا ينام معاها".

فتحت فمي مذهولاً!!!

***

وصلنا لمكان جثة الشخص الذي قتل (طاهر)، وصلنا إليه بعد ربع ساعة أو أكثر، والأهالي يستخدمون الكشافات أمامنا ويتفرقون محاولين تغطية أكبر مساحة من المقابر ليمكننا اكتشاف المكان الذي قُتل عنده القاتل، كما يقول الرجل الذي مازلت أقبض عليه، كانت شواهد المقابر تحيط بنا ونحن نقف أمام الجثة المقلوبة على وجهها.. تأملتها وتأملت مواضع الرصاص التي مزقت ملابس صاحب الجثة وكسرت جمجته، اقتربت من الجثة التي صنعت حولها بركة من الدماء، واقترب معي الأهالي، و(عمر) يجلس على ركبته موجهًا كشافًا أخذه من الأهالي إلى الجثة.. فجأة تراجع (عمر) للخلف وهو يقول:

- "فيه صوت جاي من تحت الأرض!"

أرهفنا سمعنا فسمعنا دقات مكتومة وصوت كأنه حيوان يعوي بصوت خفيض.

- "بسم الله الرحمن الرحيم، صوت من تحت الأرض".

قالها رجل يقف بجانبي، فأمرته أن يخرس وأنا أرهف السمع أكثر، الصوت يخرج بالفعل من تحت الأرض!!!

قال أحد الأهالي بصوت عالٍ:

- "دي جثة (علي الطيب) يا جماعة".

أمسك (عمر) بالجثة وأزاحها جانبًا وسط اعتراض الأهالي وأصواتهم، فبدا لنا باب حديدي أسفلها، إذن هذه مقبرة؟ والصوت يأتي من داخلها.. الدقات المكتومة تأتي من باب المقبرة، هناك من يدق من داخلها؟ تركت الرجل من يدي وسلمته إلى أقرب الأهالي لي وأنا أسرع لأساعد (عمر) على رفع الجثة بعيدًا، ليظهر الباب الحديدي الغارق بأكمله في الدماء، له مقبض صغير حاولت جذبه ولكن قفلاً اكتشفت وجوده منعني من فتحه، أمرت الأهالي بالابتعاد وأنا أوجه مسدسي على القفل ثم أطلقت رصاصة دمرته، وأمسكت بفارغ الطلقة الملقى على الأرض لأضعه بجيبي بجانب الفارغ الذي التقطته من عند غرفة التربي، كي أقدمهما عند التحقيق.

امتدت الأيادي تساعدنا على فتح الباب الحديدي، ثم وجهنا الكشافات إلى داخل القبر.. فجأة دوت صرخات الأهالي وبدأت حالات الإغماء.

هذا الذي وجدناه على سلم المقبرة لم يكن من الطبيعي أن تحتمل النظر له لمدة طويلة، ذراعه اليمنى ممدودة أمامه واليسرى مقطوعة،

له عين يسرى مفقوعة منتفخة تخرج منها مادة متجمدة على العين، ملامح وجهه ليست واضحة بسبب دماء جافة وجلطات عند الصدغ يظهر منها لحم وجهه، وقطرات من الدم الطازج متناثرة على وجهه، غالبًا تسرب دم القتيل الذي كان ملقى على باب المقبرة إلى داخلها وسقطت قطرات منه على هذا الشاب.

أما المرعب فكان شعر رأسه الذي كان بلون الثلج!!! شعر أبيض تمامًا يقف منتصبًا! نظرت له بفزع في البداية أتبين تفاصيله على ضوء الكشافات، ثم بدأت أستنتج أن هذا الشاب دُفن حيًا وظل داخل القبر حتى جئنا إليه.

مرت المفاجأة وقررت أن أمد يدي لأمسك يد هذا الشاب الذي أغمض عينه اليمنى بسبب الكشافات، وهو يُخرج أصواتًا من فمه وكأنه هو الذي صُدم من مظهرنا.. أمسكت يده جيدًا وجذبته للأعلى، وساعدني (عمر) وهو يمسك ببقية جسده العاري، في تلك اللحظة شعرت بصداع بسيط في رأسي وشعور بالشفقة على هذا الشاب وأنني أريد مساعدته بلا سبب!

جسده مليء بالسحجات والجروح والكدمات، أمرت الناس بأن يحضروا ماءً بسرعة، وأنا أراقب حركات الشاب الذي يحاول فتح عينه الوحيدة وينظر لنا.. خلع أحدهم جلبابه ووضعه على جسده ليداري عورته، أعتقد أنه لا يرى لأنه يُحرك عينه حركه عصبية، يا الله، هذا الشاب دُفن في القبر بدون أن يعلم أحد به.. نظرت إلى القبر بسرعة وأنا آمر الأهالي بأن ينزل أحدهم بكشاف بسرعة ليستكشف إن كان هناك أحياء أم لا، قلت الأمر حين جاءتني زجاجة ماء من يد أحدهم،

ففتحتها ورششت الماء على يدي وأنا ألمس وجه الشاب وأقرب يدي من شفتيه التي امتصت إصبعي ولسانه يخرج من فمه لاهثًا، خرج الذي دخل ليستكشف القبر وقال إن القبر يحتوي على جثة داخل كفن وعظام كثيرة وبقايا جثة، كان يقول هذا وهو يسد أنفه بيديه، أعدت رش الماء على يدي ووضعتها على شفتيه، حتى لاحظت أنه يركز عينه اليمنى على وجهي، إنه يراني الآن، مد يده اليمنى وأمسك بملابسي وجذبني نحوه فقربت أذني من فمه متوقعًا أن يتكلم، ولكنه قال بصوت خافض:

- "شربني مية، ماتخافش هاقدر أشرب".

أمسكت غطاء الزجاجة وصببت به بعض الماء ثم جعلته يعتدل على يدي وصببت الماء داخل فمه، فلاحظت أنه يحاول الابتسام لي، فابتسمت على الفور له وأنا أناوله مزيدًا من الماء، ولكنه أخذ يسعل بقوة وجسده يهتز.. صوت أذان الفجر يُعلن في أقرب مسجد لنا، فوجدت ابتسامة الشاب تتسع، ثم أمسك بملابسي مرة ثانية، فقربت أذني على الفور لأسمع عبارات متقطعة:

- "اكتب.. اكتب كل كلمة هاقولها دلوقت.. أنا راجع من الموت.. علشان حاجة مهمة لازم أعملها".

اقشعر جسدي من عبارة "عائد من الموت" هذه، لماذا ربتت على رأسه وأنا أقول له بأني سأفعل؟ لا أعرف، لا أعلم حتى الآن لماذا نفذت ما قاله لي في تلك الليلة، لماذا أمرت من حولي بإحضار ورق

وقلم بسرعة.. لماذا انتظرت معه لحين قدوم الإسعاف، لماذا عندما جاء الورق والقلم بعد ربع ساعة أمسكته وقربت أذني من فمه وهو يقول:

- "هاتلاقوا جوه التربة عظم لجثة (محمد رفاعي الحوت)، انقتل من ست شهور، قتله واحد اسمه (وليد).. (محمد) كان عنده قهوة في الشرابية".

أخذ أنفاسه وأنا أقيد ما يقوله برعب، و(عمر) يسند جسده:

- "فيه جثة بنت تحت برضه اسمها (مريم سامح سليم)، كانت عايشة في شبرا المظلات واختفت، خطفها واحد اسمه (محمد صابر محمد) بيشتغل مدرس ثانوي في الجيزة، باع جسمها لمدير مستشفى (جولدن بادي) اللي في مدينة نصر، وهناك عملولها عمليات وأخدوا منها أعضاء من جسمها".

كيف يعرف هذا الشاب كل تلك المعلومات؟ وجدتني أسجل كل ما يقوله بدون مناقشة، حتى عندما أملى عليّ اسم طبيب أمراض نساء وتوليد وقال إنه يُجهض الحوامل وذكر عنوانه؛ كتبت ذلك بسرعة.. وفي النهاية قال:

- "أنا اسمي (خالد)".

اسمه كاسمي!!!

- "أنا و(حاتم) كنا في الأتوبيس اللي عمل حادثة مع قطر اليومين اللي فاتوا".

تذكرت الحادثة بسرعة لأنني شاهدت أحداثها على التلفاز، ولكن (خالد) قال بعد أن طلب بعض المياه وأعطيته إياها:

- "المستشفى خبت عدد الجثث الحقيقي اللي راحت في الحادثة، ودفنت الجثث المشوهة في مقابر الصدقة، وأنا و(حاتم) الله يرحمه نقلونا هنا ودفعوا للتربي اللي اسمه (هادي) علشان يدفنا من غير تصريح".

ذهلت من كمية المعلومات التي قالها لي، فقلت له بعدما أفقت من ذهولي:

- "انت عرفت كل الحاجات دي ازاي؟"

وجه عينه الوحيدة للقبر وابتسم وقال:

- "(حاتم) قالي".

***

جاءت سيارة الاسعاف والأهالي يدلونها على الطريق إلينا، وهم يحملون المحفة وضباط الشرطة يقفون عند غرفة التربي كما علمت، والوضع أصبح تحت السيطرة فعلاً، إلا أن (خالد) نظر فجأة بعينه الوحيدة ناحية الأهالي فنظرت مثله، ولكني لم أفهم.. ركزت النظر فوجدت قطًا يقترب بحذر منا و(خالد) يرمقه! فجأة مد يده فجرى القط ناحيته وأحد الأهالي يحاول إزاحته، ولكن القط كان مصرًا على التقدم!!! اقترب أكثر منا فوجدت (خالد) يبتسم له، كان القط مفتوح الفم، وهو ما لاحظته عندما اقترب من ضوء الكشاف، مفتوح الفم

ويحمل داخله شيئًا ما!! اقترب في النهاية من يد (خالد) الممدودة، (خالد) ممد على الأرض ونصف جسده مغطى بالجلباب الذي أعطاه لنا أحد الأهالي، وزميلي (عمر) يُسنده من ظهره ليُبقي ظهره مفرودًا معتدلاً، بينما يمد هو يده ناحية القط، الذي توجه ناحية اليد ووضع فمه بها أو بالتحديد وضع ما في فمه بها، فقبض (خالد) على الشيء جيدًا، أما القط فنظر حوله للناس مفزوعًا وكأنه يفيق من غيبوبة ما، ثم أطلق صوت مواء غاضب وهرب بسرعة وهو يتخبط في أرجل الناس!

نظر لي (خالد) واستطاع أن يبتسم بإجهاد، وهنا وصلت محفة سيارة الإسعاف، فمد (خالد) يده ناحيتي، اقتربت منه وأمسكت يده، فقال لي بصوت هامس:

- "خليك معايا وماتسبنيش".

تبع قوله بأن وضع في يدي ما كان في يده، فأخذتها، ورجال الإسعاف يرفعونه برفق ويضعونه على المحفة، وهو مازال يوجه عينه الوحيدة لي وكأنه يطلب مني ألا أتخلى عنه.

***

الفصل الثامن والعشرون

لم أتركه وذهبت وراء سيارة الإسعاف بسيارة الدورية، حتى وصلنا لمستشفى الساحل، وحملوا (خالد) لقسم الطوارئ، وأنا أتحرك بجانبه في المستشفى وهم يتجهون به لقسم الطوارئ، ومحلول معلق بيده اليمنى وممرض يمسح بعض الدم من حول بعض أجزاء جسده العارية. وهو بين الحين والآخر ينظر لي ويُغمض عينه براحة واطمئنان.

دخل لغرفة ودخل وراءه طبيبان، ثم تبعهما بعض الممرضين، وممرضة تحمل محاليل بيدها.. خرج عليّ أحد الطبيبين اللذين كانا في الغرفة منذ قليل، وهو يتساءل:

- "هو إيه حكايته؟"

- "اندفن غلط من يومين بعد حادثة أتوبيس إسكندرية اللي فاتت، وفتحنا التربة من ساعة، لقيناه صاحي وبالشكل ده! طبعًا إيده مش هاينفع ترجع تاني".

- "مش هاينفع خلاص، دي عدى عليها مدة كبيرة، ثم انت ما لاحظتش إن فيه حروق عند مكان القطع، كأن الجرح انكوى بالنار من الحادثة، هو ايده لقيتوها جنبه؟"

تذكرت أننا لم ننتبه لذلك، فأجبته أننا لم نبحث داخل القبر وانشغلنا بنقله للمستشفى، تركني بسرعة وهو يدخل للغرفة، ولكنه قال قبل أن يعبر الباب:

- " مش هاينفع نديله بنج كلي لأن دكتور التخدير مش هنا، وهو عنده هبوط واضح، على فكرة هو عمال يقول عايز يشوف الظابط.. أكيد يقصدك".

مرت نصف ساعة ووجدت الطبيب يخرج لي مرة أخرى وهو يقول بأن المريض سيدخل لجراحة في عينه اليسرى بسبب الشوائب التي تعلقت بها، ولتنظيفها كي لا يتلوث جرحها، وقال إن الجراحة ليست كبيرة ولن تأخذ الكثير، وسيكون المخدر موضعيًا، لذلك لن يحتاجوا لدكتور التخدير. بعد ساعة ونصف وجدت الممرضات ينقلن (خالد) على المحفة قادمين من المصعد، ووجهه مغطى بالضمادات ويرتدي ملابس المرضى وجسده مليء بلاصقات الجروح.. أدخلوه في أحد عنابر قسم العظام في الطابق الثالث ودخلت أنا معه، أعطوه حقنة أمامي وعلقوا له المحاليل، ثم تركوه فجلست بجانبه وعينه اليمنى تتحرك حوله لتستكشف المكان، يظهر الإجهاد واضحًا على ملامحه وعلى جسده، ولكنه أصبح أحسن حالاً عما كان عند الفجر.

سألني عن الساعة فأجبته أنها الثامنة صباحًا.. سألني عن اسمي فأجبته أنني (خالد)، ابتسم كعادته معي، وسألته أنا:

- "إيه حكايتك يا (خالد)؟"

تكلم بصعوبة وهو يقاوم النوم:

- "(خالد)، أنا ممكن ما يكونش قدامي كتير، أنا قربت من الموت قوي وربنا أراد رجوعي علشان خاطر حاجات مهمة لازم أعملها زي ماقولتلك".

أنا أصدق هذا الشخص، هذا الشخص يعلم الكثير، يتكلم بطريقة من اقترب من الموت فعلاً.. استمعت لبقية كلامه:

- "أنا قلتلك على أسامي ناس وعنوانهم وجرايمهم، ودي وصية الناس اللي انقتلوا واندفنوا غدر في التربة اللي كنت فيها، دي أمانة أنا حملتهالك لازم ترجع الحقوق لأصحابها وتبلغ أهل اللي ماتوا بالمكان اللي اندفنوا فيه، وتاخدوا حقوقهم من اللي عملوا فيهم كده.. مش باقي غيري أنا و(حاتم)".

- "(حاتم) مين؟"

- "كان معايا في الحادثة، ووصاني وصية وحيدة ليه، وصاني أوصل أمانة لواحد مهم عنده أول ما أخرج من القبر".

أخرجت من جيبي العلبة الحمراء التي أعطاني إياها (خالد) وأشرت لها إن كان يقصدها، فحرك رأسه علامة الموافقة.

- "أنا ما أعرفش أي تفاصيل عن أهل (حاتم)، ما أعرفش غير الشخص اللي أنا هاوصله الأمانة، علشان كده لازم أوصلهاله النهارده".

- "انت ما ينفعش تتحرك من هنا لأن بعد ساعة بالكتير هاتكون النيابة هنا بتحقق معاك، قولي العنوان وأنا هاوصل الأمانة".

سعل (خالد) قليلاً ثم قال:

- "أرجوك لازم أوصل الأمانة دي دلوقت، ماينفعش أتأخر، دي أمانة وصهاني واحد ميت، وصية ميت".

فكرت في كلامه غير المنطقي، يمكنني أن أتهمه بالجنون والخبل وأنا مستريح الضمير، ولكن مع ذلك لا يمكن أن أتجاهل كل ما يتكلم عنه، ثم لماذا أجد أنني مجبر على تصديق كلماته؟ لماذا أشعر أن عليّ مساعدته؟

- "انت عايز تساعدني بس خايف".

قالها (خالد) فاندهشت، كيف عرف هذا؟ سألته:

- "وانت إيه اللي خلاك متأكد من كده؟"

زادت ابتسامته وهو يقول:

- "(حاتم) أكد لي عليك".

- "؟!!!!!!!!!!!"

- "مش وقته دلوقت، المهم أنا عايز أخرج من هنا وأروح إسكندرية".

- "إسكندرية؟! تخرج ازاي بس؟ ثم انت واخد حقنة دلوقت وباين عليك هاتنام".

نظر بعينه حوله ثم قال لي هامسًا:

- "ماتخافش عليا من الحقن، أنا درست حاجات كتير في العقاقير المنومة والمهدئة، كل اللي هاحتاجه منك تشتريلي من أي صيدلية دوا اسمه (هيدانثوتين) علشان أفوق شوية، وعايز لبس ألبسه واحنا خارجين".

نسيت أنني ضابط شرطة ونسيت ما قد يحدث عندما أساعده ونسيت أنه ربما يهذي، وسيطرت عليّ فكرة واحدة هي مساعدته وتنفيذ طلباته.

***

- "أنا بأقدر أزرع الذكريات والأوامر في عقول الناس القريبين من جسمي، أي حد قريب من جسمي أقدر أزرع في دماغه ذكرى أو أمر، انت علشان جنبي قدرت أعمل معاك كل ده، وأي حد يبقى قريب مني أقدر أحط في دماغه فكرة أو أمر أو ذكرى مش حقيقية".

***

أمسكت يده جيدًا وجذبته للأعلى، وساعدني (عمر) وهو يمسك ببقية جسده العاري، في تلك اللحظة شعرت بصداع بسيط في رأسي وشعور بالشفقة على هذا الشاب وأنني أريد مساعدته بلا سبب!

***

خرجت من المستشفى بسرعة وأنا أتجه إلى أقرب صيدلية وأبتاع منها هذا العقار، الذي جعل الصيدلي يصحح لي الاسم بعد أن نطقته له بطريقة خاطئة، ثم عرجت على محل (.....) الذي يفتح 24 ساعة

في اليوم، ودخلت لأبتاع حذاء وشرابًا وقميصًا وسروالاً وملابس داخلية..كنت أختار مقاسات تقريبية تصلح لجسد (خالد) الرفيع، عدت بعدها إلى المستشفى وأنا أحمل ما أحمله في حقيبة كبيرة، حتى إن عامل الأمن لم يوقفني بسبب ملابسي الميري ونظرتي الحادة، صعدت لـ (خالد) وطلب هو أمام الجميع أن أسنده ليذهب إلى دورة المياه، ففهمت ما يقصد.. استند عليّ حتى دخلنا دورة المياه وساعدته على ارتداء الملابس كاملة، ثم خرجنا من دورة المياه ونحن نسير بطريقة طبيعية، يتسند عليّ وكأنه يغادر المستشفى وأنا أرافقه للخارج، ولم يمنعنا أحد.

***

- "فيه احتمال كبير آخد جزا لما يعرفوا اللي عملته ده".

قلت العبارة لـ (خالد) الجالس بجانبي في السيارة، فسمعته يضحك بصوت مكتوم مرهق، ثم سعل بسبب الضحك وقال:

- "أنا آسف بس أنا محتاجك قوي".

- "انت متأكد من العنوان؟ متأكد إنه جنب خالد بن الوليد؟"

- "آه".

فجأة قال لي (خالد):

- "انت مش نفسك تعرف إيه اللي بيخليك تساعدني؟"

- "؟!!!!!!!"

- " فاكر لما خرجتني من التربة؟ مش حسيت إنك عايز تساعدني من غير سبب؟"

- "طبعًا فاكر".

نظرت له بحدة وأنا أحاول أن أستشف ما يقصده، فأكمل قائلاً:

- "دلوقت أنا هاحكيلك على كل حاجة، وعليك إنك تصدق كل حاجة وتفهمها".

اقتربنا من الإسكندرية والساعة قاربت على الثانية عشرة ظهرًا، وهاتفي مغلق واللاسلكي الخاص بالسيارة أيضًا.. ما أفعله هو الجنون بعينه.

***

openkan.com

الفصل التاسع والعشرون

حالة (داليا) ساءت بعد أن امتنعت عن الحديث ورفضت النوم، وشقيقتها (دعاء) حالتها ليست أفضل بعد أن ظلت جالسة في الصالة تنظر للساعة وتضع رأسها على يدها. (دعاء) تجلس في الصالة تنظر أمامها شاردة، أما (داليا) فعلى فراشها تجلس مفتوحة العينين تنظر للسقف ولا تريد الكلام، الساعة الآن تخطت الثانية عشرة ظهرًا وهذا كثير.. أكثر من المحتمل، كيف لأحد أن يتوقع ما يدور بعقل (دعاء).. هل تتوقع أنها تسترجع الآن أحداث رواية (نصف ميت)؟ الكاتب الشاب (حازم) الذي يموت ويُدفن ويترك لزوجته (دينا) ميراثًا كبيرًا ورثه منذ أيام ولم يطلعها عليه، وروايته الأخيرة المسماة (نصف ميت)، والتي يترك فيها لزوجته دلائل وألغاز عليها أن تنتبه لها، (حازم) الذي يعاني من الصرع وتتحرك من حوله الأشياء، (حازم) الذي يُدفن في مقابر عائلته يبدأ بإرسال الرسائل المبهمة لـ (دينا)، التي تكتشف أن تلك الرسائل تتشابه، بل وتتطابق في بعض الحالات، مع الرسائل الموجودة في روايته.

- دمية على شكل عروس تنزف دمًا وترسم كلمة اعتاد زوجها أن يكتبها دائمًا، كانت تلك الكلمة في الحقيقة هي استغاثة لـ (داليا) لعلها تنتبه أن زوجها يُعذب، و(داليا) ظهر لها نفس الشكل تقريبًا ولكنها لم تفهم في البداية لأنها لم تتذكر تلك التفصيلة في الرواية الأصلية.. إذن (حاتم) يُرسل لها أنه يُعذب.

- وجه ضبابي لشخص يظهر لها في المرآة، ومكتوب في الرواية أن عليها أن تحفظ هذا الوجة لأنه وجه نصف الميت، أما (دينا) فرأت في الصور التي التقطتها (دعاء) لها هذا الوجه الضبابي الدخاني، إذن هذا هو وجه نصف الميت؟ هل هذه مصادفة؟

- ثلاث دقات متفرقة على ثلاث مراحل تسمعها (دينا) من على باب الشقة، وعندما يفتح شقيقها الباب لا يجد الطارق، وذلك يتوافق مع الرواية التي تقول إن الدقات الثلاثة هي الرمز الذي سيقوم به نصف الميت عند الحضور، و(داليا) تعرضت لنفس الموضوع.

- (حازم) الذي في الرواية يمتلك قدرة نفسية تمكنه من زراعة ذكريات مزيفة في العقول القريبة منه جسديًا لفترة معينة.

- تصحو (دينا) لتجد دماء على صدرها وتعرف أن الدماء ترمز بصفة ما إلى نصف الميت، و(داليا) استيقظت لتجد الدماء حول عينها اليسرى.

انقطعت (دعاء) عن التفكير وهي تسمع جرس الباب يرن، يا للهول لقد حان الموعد.. حان الموعد كما في الرواية، الموعد الذي يأتي فيه نصف الميت والمرافق، لقد انتهت جميع الدلائل والرموز، جرت على الباب تفتحه بدون وعي، ففزعت من وجه (خالد) المغطى بالضمادات وشعره الأبيض الغريب، يده اليسرى غير موجودة، وبجانبه الشاب الذي يرتدي ملابس ضابط.. تراجعت للوراء فتقدم (خالد) لداخل الشقة وهو يستند على الضابط.

- "(داليا) هنا؟"

- "انتوا مين؟"

تكلم (خالد):

- "من طرف (حاتم)".

صوت خطوات (داليا) تأتي من غرفتها، وهي تنظر لـ (خالد) والضابط، كانت الهالات السوداء تحت عينيها واضحة وشعرها عقصته للأعلى وهي مرتدية ملابس المنزل.. جلست على مقعد الصالة وهي تقول بصوت مرهق:

- "أنا (داليا)، كنت مستنياكم".

اتجه (خالد) للمقعد المقابل لها وجلس عليه بمساعدة الضابط.. جلس الاثنان أمام بعضهما البعض، و(خالد) يستخدم عينه الوحيدة في التحديق بـ (داليا)، التي لم يظهر على ملامحها الدهشة من مظهره، أما عقل (دعاء) فراجع تفاصيل الرواية الغريبة.. (دينا) تكتشف من خلال مذكرات (حازم) أنه يستطيع إضافة أوامر لعقول من يقترب منهم، ويزرع فيها أحاسيس وذكريات كثيرة، ويبني على أساسها حياة كاملة لأصحاب تلك العقول.

(حازم) الذي يستطيع زرع الذكريات يختار عامل المقابر ليزرع في عقله حكاية وهمية يعيش عامل المقابر فيها، ليخبره (حازم) من خلالها عن الطريقة التي قُتل بها.. (حازم) في الرواية قُتل عن طريق السم من شقيق زوجته، اختار الكاتب عامل المقابر لأنه مريض بسرطان الرئة

وكان من السهل زرع ذكريات زائفة في عقله لأنه قريب جدًّا منه، وفي نفس الوقت قريب من الموت، يمكن أن يتصل به الكاتب عقليًا ليوهمه بكل شيء ويوصل المعلومات إلى رأسه.

- "انت النصف ميت؟"

قالتها (داليا) واجمة، فأشار لها (خالد) بدون أن يتكلم برأسه علامة الموافقة.

ثم رفع يدة اليمنى ودق بها على مسند مقعده الخشبي ثلاث دقات متفرقة، أعادها ثلاث مرات كما أخبره (حاتم).. شهقت (دعاء) وهي تضع يدها على فمها من الرعب.

- "وانت المرافق اللي بتحميه وتوصله؟"

قالتها (داليا) وهي تنظر للضابط، الذي نظر لها هو الآخر بدون أن يتكلم.. (دعاء) تتذكر عندما استغل (حازم) صديق عامل المقابر القريب من القبر وزرع في عقله فكرة تنفيذ أوامر عامل القبر، كي يحميه من شقيق زوجته، ليصل بالدليل إلى الزوجة، لأن عامل المقابر كان في آخر مراحل سرطان الرئة. صديق العامل سماه (حازم) باسم (المرافق)، ووصل نصف الميت إلى (دينا) هو والمرافق يحمل الدليل أنه من طرف زوجها، وهو يتألم من السرطان ويبصق الدماء ويوشك على الموت، تذكرت الزوجة الدماء على صدرها التي تعني أن نصف الميت يحمل في صدره علامة، العلامة هي إصابته بسرطان الرئة.

تأملت (داليا) وجه (خالد) قليلاً.. إنه هو نفس الوجه الدخاني الضبابي الذي ظهر لها في الصورة، مع اختلاف أن الوجه الذي أمامها على وجهه وعينه اليسرى ضمادة كبيرة.. عينه اليسرى المصابة.. لقد وجدت على عينها بقعة دماء، إذن فتلك هي العلامة التي يتميز بها نصف الميت، فجأة مد (خالد) يده اليمنى وهو ينتزع الضمادة البيضاء بصعوبة لتظهر ضمادة جروح تحتها تُخفي عينه.. أمسك باللاصق بقوة وانتزعه، مطلقًا صرخة ألم عالية،، و(دعاء) تبتعد للوراء بينما هو يكمل ما يفعله وينتزع لاصق الجروح، وصوت ألمه يعلو، حتى انتزعه من على عينه ليسيل خط من الدماء من عينه اليسرى المغلقة، نظر لـ (داليا) طويلاً وهي تنظر له بلا خوف، حتى قال لها وهو يلهث من التعب.

- "دلوقت أنا هاقول اللي (حاتم) قالهولي".

ظلت (داليا) صامتة، فقال (خالد):

- "(حاتم) بيقولك: إنك وحشتيه قوي.. وإنه فاكر أول يوم شافك فيه في المكتبة، وكان بيبصلك كل شوية زي ما كنتي بتبصيله، كنتي جميلة قوي".

انحدرت دمعتان على وجه (داليا) الجامد، فأكمل (خالد) وصوته يتهدج:

- "بيقول إن رواية (نصف ميت) فيها كلام عن المزيف، المزيف اللي بيزيف الذكريات هو (حاتم) نفسه.. وبيقولك إنه بيعتذرلك علشان كان نفسه يكون معاكي دلوقت ويوريكي المفاجأة اللي قالك عليها".

مد (خالد) يده اليمنى في جيبه ليخرج العلبة الحمراء، ثم يبسط يده لـ (داليا) لتأخذها منه وتتأملها.

- "طلب مني إني اديكي الدبل اللي في العلبة، واللي قاللي أقولك عليها إن دي الدليل.. وإنه معاكي طول الوقت طول حياتك، ومستنيكي عشان تبقوا مع بعض".

ابتسمت (داليا) وهي تنظر للعلبة المغلقة التي غطتها الدماء وطُبقت على نفسها.. فتحتها فوجدت دبلتين تغرقهما الدماء، ابتسمت واغرورقت عيناها بالدموع، ثم تحول الابتسام لفرحة على وجهها وهي تنظر للدبلتين ثم تلمسهما بإصبعيها.. أغلقت العلبة وضمتها لصدرها بفرحة، ونظرت إلى (خالد) ودموعها تغرق ملابسها، وهي مازلت تبتسم.

- "شكرًا".

كانت عينا (داليا) تنظران لعين (خالد)، ولكن النظرة طالت والابتسامة ظلت، والدموع بدأت تتوقف!!

نادت عليها (دعاء) فلم تُجب، وظلت تنظر لخالد الجالس أمامها، جرت (دعاء) نحوها لتضع يدها على كتفها، ولكن رأسها مال على كتفها قبل أن تصل إليها شقيقتها.. لقد ماتت (داليا).

صرخت (دعاء) وهي تحتضن شقيقتها وتبكي..

***

الفصل الثلاثون

(النهاية)

مر أسبوع، واليوم هو الثلاثاء ليلاً، داخل نفس المقابر التي حدثت بها الأحداث السابقة، وعند القبر الذي دُفن به (حاتم) ونصف الميت؛ يقف (خالد) يستند على عكازه بيده اليمنى ويرتدي قميصًا أبيض اللون وكم القميص الأيسر موضوع داخل جيب سرواله الجينز، وهناك ضمادة على عينه اليسرى، وبعض بلاسترات الجروح على رقبته ويده اليمنى، وبجانبه يقف (خالد) الضابط يرتدي ملابس ملكية.

- "على فكرة، فيه واحد زارني في المستشفى من يومين وقال لي إنه كان الناشر اللي كان هاينشر رواية (نصف ميت) لـ (حاتم) الله يرحمه، وإنه عايز يتكلم معايا أول ما أخرج من المستشفى علشان يعرف مني حبة حاجات عن اللي حصل معايا أنا و(حاتم)".

قال (خالد) العبارة السابقة وهو ينظر إلى بوابة القبر المغلقة التي خرج منها حيًا منذ أسبوع.. كان ينظر إلى الدماء المتجمدة على باب القبر الحديدي، وهو يتذكر لحظة خروجة من هذا القبر الموحش.

نظر (خالد) الضابط له وقال:

- "أنا مش عارف انت مصمم ليه على إنك تيجي هنا النهارده بليل كده وتزور التربة، بعد ما عرفت إنها بقت فاضية خلاص بعد ما

الحادثة دي بقت قضية كبيرة واتسجن فيها ناس ووصلت لمجلس الشعب.. دلوقت انت واقف قدام مقبرة فاضية، حاول تنسى اللي حصل فيها".

- "التربة دي كانت تربتي، كانت المكان اللي اندفنت فيه وربنا نجاني تاني، برغم إني باترعب منها لكن باحن ليها ساعات".

- "بتحن؟"

- "باحس إن التجربة اللي حصلت دي ماخرجتش منها بدراع مقطوع وشعر أبيض بس، حسيت إني خرجت منها بحياة تانية خالص، كأن فيه واحد كان جوه القبر مات وواحد تاني اللي طلع من القبر".

ابتسم فجأة، فنظر له (خالد) الضابط بدهشة، فأكمل قائلاً:

- "تعرف إن اسمي مشتق من الخلود، يعني اسمي معناه إني مش هاموت.."

لم يبتسم (خالد) وظل محدقًا في القبر أمامه لدقيقة، ثم أدار الاثنان وجههما وغادرا المقبرة وهما يسيران بين صفوف المقابر، حتى وصلا إلى الغرفة التي كان يسكنها (هادي)، فوجدا عندها رجلاً في العقد الخامس من العمر يرتدي جلبابًا أبيض، هرع ناحيتهما وهو يجري مستفسرًا عن دخولهما المقابر في هذا الوقت.

طمأنه (خالد) الضابط وهو يُخرج بطاقته الشخصية له، قائلاً إنه يعلم بأمر القضية المثارة حول تلك المقابر، وأنه أشرف بنفسه على القبض على الجناة ليلة الحادث منذ أسبوع، هش الرجل وبش وهو يحلف بالطلاق أن يتناولا الشاي معه، ولكنهما اعتذرا.

- "اوعوا تكونوا خايفيين تخشوا الأوضة من جوه علشان الناس انقتلوا فيها، دي كلها إشاعات".

رد عليه (خالد) الضابط يستفسر عن تلك الإشاعات، فأخبره التربي الجديد بأن:

- "اللي انقتلوا روحهم بتتمشى وسط الترب بليل، بس ما تصدقوش الكلام ده، ده حتى فيه ناس بتحلف إن روح (علي الطيب) موجودة بليل في المقابر، وكمان بيقولوا إنه بيتكلم".

- "(علي) ده اللي قتل الراجل اللي بينام مع الميتين؟"

- "أيوة هو يا باشا، الله يكحم الراجل الدون ده مطرح ما راح، ويرحم (علي) اللي طلع واد جدع بجد وكشف سر الجثث اللي كانت بتتباع من الترب والنجاسة اللي كانت بتحصل، الناس كلها مابقتش ليها سيرة غير (هادي) اللي بيقولوا إنه روحه بتمشي بليل في الترب حاسة بالذنب".

فجأة رفع (خالد) رأسه أمامه ونظر يمينًا ويسارًا وهو يحاول أن يحدد مصدر هذا الصوت.. صوت يسمعه كأنه صوت رجال يتكلمون

بصوت خافض، صوت حفيف كلماتهم هو ما يصله؟ نظر للتربي والضابط صديقه فوجد أنهما لم يلحظا أي أصوات وسط انشغالهما بالحديث.

- "خليك انت هنا يا (خالد)، أنا داخل أقرأ الفاتحة مرة تانية وجاي تاني".

نظر له (خالد) والتربي بدهشة، واستفسر (خالد) عن السبب، وحاول التربي أن يثنيه عن الدخول ليلاً مرة أخرى بين صفوف المقابر في هذا الوقت، ولكن الأصوات في أذن (خالد) جعلته يُصمم على أن يدخل وحيدًا، حتى إن التربي كاد أن يمنعه بيده، ولكن (خالد) الضابط أوقفه وهو ينظر إلى (خالد) ويبتسم له موافقًا على أن يدخل المقابر ليقرأ الفاتحة كما يريد.

كان رد فعل غريب من الضابط وهو يسمح لـ (خالد) بأن يدخل لداخل المقابر ليلاً بهذه الحالة، ولكن (خالد) لم يُكذّب خبرًا، واستند على عكازه وهو يدخل بين صفوف المقابر.

يتتبع الصوت بأذنه ويحاول أن يسير في الشارع الذي تحيط به المقابر على جانبيه، ليصل لمصدر الصوت.. يسير ببطء مستندًا على عكازه وهو ينظر بعينه الوحيدة يمينًا ويسارًا محاولاً تحديد الصوت، حتى وصل لتقاطع فدخل يسارًا في منطقة قبور مظلمة عن باقي المناطق، بسبب الأشجار الكثيفة التي تحجب ضوء القمر ولكنها تُظهر جزءًا بسيطًا من شواهد القبور، هناك رجل يسير بخطوات هادئة من

بعيد في اتجاهه!! سار (خالد) هو الآخر باتجاه الرجل، الذي اقترب أكثر وهو يسير غير عابئ بـ (خالد) وكأنه يقصد اتجاهًا ما، عند نقطة في وسط شواهد القبور تقابل الاثنان في الطريق، و(خالد) يسير في اتجاه والرجل يسير في اتجاه، وفي تلك اللحظة وعلى الضوء المتسرب من القمر حدد (خالد) هيئة الرجل، كان أسمر الوجه تمامًا، كأنه سواد خاص في وجهه، ومن بطنه تنزف دماء وتُغرق قميصه!!! تخطى الرجل (خالد)، ولكنه وهو يتخطاه نظر في عينيه بعينه البيضاء وسط وجهه الأسود طويلاً، وعندما تخطاه ظل ينظر لـ (خالد) لحظات قبل أن يدير وجهه ويسير بين الشواهد مكملاً طريقه في الظلام.. لم يشعر (خالد) بالخوف على قدر شعوره بالدهشة من الصوت الذي يعلو، إذن فهو يسير في الاتجاه الصحيح، أكمل (خالد) طريقه يتتبع الصوت الذي علا أكثر وهو يخطو في شارع جانبي على اليمين بين مجموعة مقابر أخرى، حتى وجد منطقة حشائش، الصوت يأتي من هنا، لقد وجد من أين يأتي الصوت بالتحديد، يأتي من ذلك المكان.. اقترب أكثر والدهشة تملؤه، لماذا يرى هذا الضوء الأبيض داخل المقابر؟!!

لماذا يسمع الأصوات بوضوح الآن؟ إنه نوع من الإنشاد الديني؟! وتتخلله أصوات جميلة تقول (الله)؟! اقترب من المنطقة أكثر، إنه حائط عُلقت عليه رخامة كُتب عليها:

(مدافن عائلة أبو العنين 1911)

اقترب أكثر حتى توقف مستندًا بعكازه يشاهد ما يحدث بعين متسعة من الدهشة.. كائنات بيضاء تقف وأمامها شيء أبيض، والأصوات تزداد بطريقة منغمة، وفجأة تحولت الأجساد البيضاء إلى أجساد لرجال يرتدون ملابس بيضاء، والذي يقف أمامهم تحول لرجل ضخم مليح الوجه ذي وجه أبيض يُشع نورًا على نور بياضه، ويرتدي جلبابًا خلاف الباقين.. يرفع يده أمامه ويقول (الله) فيردد الجمع وراءه الكلمة بتنغيمة!! استمر ذلك للحظات حتى وجد الرجل يقول بصوت عذب يا حي يا قيوم، والجمع يرد الله، الجمع يُعطون ظهورهم له وهم يتمايلون لليمين واليسار ويرددون بصوت جميل الله، وكأنها تخرج من أعماق صدورهم، فجأة توقف أحد رجال الجمع الذين يتمايلون ونظر خلفه لـ (خالد).

لقد كان هو (علي الطيب)، ينظر لـ (خالد) ويبتسم له.. وبرغم أن (خالد) لم يعرفه، ولكنه ابتسم له أيضًا، دامت الابتسامة لحظات، وتحركت شفاه (علي) الذي يُشع وجهه بياضًا لتردد مع الباقيين الله، وينظر أمامه ويتمايل معهم.

***

تمت بحمد الله

حسن الجندي

obeikan.com

obeikan.com

أعمال الكاتب

- مخطوطة ابن إسحاق (مدينة الموتى)
- مخطوطة ابن إسحاق (المرتد)
- مخطوطة ابن إسحاق (العائد)
- الجزار
- نصف ميت
- لقاء مع كاتب رعب
- حكايات فرغلى المستكاوي
- فى حضرة الجان
- ابتسم فأنت ميت

obeikan.com

للتواص مع الكاتب

https://www.facebook.com/profile.php?id=100001343653770

obeikan.com

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007

obeikan.com